

مكتبة دار الكتب والوثائق القومية

سلسلة كتب في تاريخ المصور الوسطى

تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة — ١

الأمبراطور البيزنطي

تأليف

نورمان بينز

مع فصلين في تاريخ الدولة البيزنطية لشارل ديبل
وفصل عن علاقة الإسلام ببيزنطة لقازلييف
وثبت بأسماء الأباطرة الرومان الشرقيين لستيفن رونسمان

تعريب

دكتور

حسين مؤنس

محمود يوسف زايد
المدرس بالمدارس الثانوية بفلسطين

بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٠

الأهبال طورت به البئر نطية

شاريخها وحضارنها وعلاقتها بالاسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا الكتاب ترجمة للمجلد رقم ١١٨ من مجموعة

The Home University Library of Modern Knowledge.

وهو :

NORMAN H. BAYNES, *The Byzantine Empire.*
(London 1946)

الطبعة الأولى

القاهرة ، يناير ١٩٥٠



جستنيان
رسم بالفيفاء في كنيسة القديس أبولوناريوس في رافنا

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زبارة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فؤاد الأول — القاهرة

التاريخ البيزنطى مرآة الحياة المتحضرة بشرق أوربا فى العصور الوسطى ، ومن تلك المرآة انعكست على الأقاليم القريبة والبعيدة من الدولة البيزنطية أشعة حضارية متفاوتة القوة والقدرة على البقاء . ومن هذه الأقاليم آسيا الصغرى وشمال العراق والشام وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا ، وهى الأقاليم التى ظلت بيزنطية لعدة قرون ، ثم امتدت إليها موجة الفتوح الإسلامية فى القرن السابع الميلادى . فصارت جزءا من العالم الإسلامى حتى العصر الحاضر .

وتأثرت هذه الأقاليم بالمسلمين ، كما أثرت هى كذلك بثقافتها البيزنطية فى العالم الإسلامى ، ومن هنا تتضح أهمية التاريخ البيزنطى فى تاريخ الدولة الإسلامية المتراامية الأطراف ، يوم كان المسلمون يحكمون إمبراطورية واسعة ، وتلك أهمية يروى

بعض غايتها هذا الكتاب الذي يؤيد العاملون على التاريخ الإسلامي عامة — والتاريخ المصري خاصة — أن يكونوا معداً من أسئلة لا ترجع فحسب ، بل تأليفاً علمياً كذلك .

والتاريخ البيزنطي رزق ثيراً السمين في التاريخ الإسلامي عودة أخرى . حيث حق عثمان بن عفان البيزنطيين في إمبراطوريتهم وعاصمتهم . فأنشأت الدولة العثمانية ما شاعت أن تهمهم من الدولة البيزنطية وأساليب الحكم والإدارة ، كما فعل المسلمون السابقون . وأضفت على ولاياتها شرقية مما أفادت من نهج الحضارتين العثمانية والبيزنطية .

وبعد هذا جرت كذا دسوس السافرون على اعتبار التاريخ الإسلامي كله وحدة عقلية ، مستمرة لها يد عجزاوية ، ولم يدركوا ما للبلاد المختلفة التي اتجهوا المسلمون شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً من أهديات تاريخية ضخمة . ففهموا — وقنع قراء التاريخ الإسلامي منهم — بتسمية الدولة البيزنطية "الروم" . وذلك تسمية شرعاء عجزاء ، تعتمد على ما قبل الدولة البيزنطية فحسب من أصول يادت أو تسكاد ، لا على الدولة البيزنطية بعينها وحضارتها الرومانية الهلنستية . ثم لم تقف هذه القفاعة الساذجة الخاطئة عند التسمية ، بل تعدتها إلى الاجتزاء من أخبار أولئك

”الروم“ بأسماء المدن التي استولى عليها منهم المسلمون ،
أو استعادوها هم من المسلمين ، دون الإشارة إلى عوامل التجاوب
التاريخي الذي أنتج ذلك ، المتبادل المتصل .

والكتاب الذي بين أيدينا يصف الدولة البيزنطية وأحوالها
من زوايا ذات شأن أساسي في بناء التاريخ الإسلامي نفسه ،
ويعين الباحث في تعيين مراحل المدة والجزر في تاريخ الدولة
الإسلامية على فهم كثير من هاتين الظاهرتين . والكتاب هو
الأول في موضوعه في المكتبة العربية الحديثة ، كما أنه الأول
في سلسلة من الكتب والبحوث الخاصة بالعصور الوسطى في
الشرق والغرب . ويرجو كاتب هذه السطور التقديمية أن يعمل
العاملون على الإضافة إلى هذه السلسلة في صمت نشيط مسموع ،
وأن يحملوا زائد ما غلب عليه الغموض — أو الجهل —
في صفحات التاريخ الإسلامي الذي هو جزء من التاريخ الإنساني
العالم ، وليس التاريخ الإنساني العام جزءاً منه ، على قول المنطقة .

ويمتاز هذا الكتاب الطيب بمجهود المترجمين في النقل إلى
العربية في أسلوب سليم ، مع الحرص على تزويد المتن بالحواشي
التي تطلبها إيجاز المؤلف في الأصل الإنجليزي بعض الأحيان ،
وهذا وذاك فضلاً عن فصول نقلها المترجمان من مراجع ذات قدر

معلوم ، للبرهان على مدى تأثير البيزنطيين وحكومتهم وإدارتهم وثقافتهم في التاريخ الإسلامي . وإذا كنت لا أريد أن أتعرض لمحتويات الكتاب في شيء من التفصيل أو النقد ، فذلك لأن الكتاب الطيب سوف ينضح بما فيه للقارئ المستنير ، وإني أرجو للذين ينقلون أمثاله أو أشباهه إلى العربية التوفيق كله ، فيما هم بصدد من خدمات خالصة لوجه المعرفة والتاريخ ، كما أرجو أن يحتل هذا الكتاب ما يليق به من مكانة في المكتبة العربية .

مصر الجديدة { ٢١ يناير سنة ١٩٥٠ م
٣ ربيع الثاني ١٣٦٩ هـ } محمد مصطفى زبارة

مقدمة

إن امبراطورية تحتل آلام النزع طيلة ألف سنة لا بد وأن يكون في كيانها من القدرة ما يمكنها من تعويض ما يضيع من قواها بصورة مستمرة . وقد كان المؤرخون يحاولون — إلى حين قريب نسبياً — أن يحملونا على الاعتقاد بأن الدولة البيزنطية كانت في سكرات الموت أبداً بالرغم مما كانت تبديه على مرّ القرون من صور المقاومة الموفقة لكل هجوم تستهدف له . ولم يُصدّق الناس ذلك التناقض الجسيم إلا لكثرة تردّده ، ولكنه لم يقو على الصمود في ضوء البحث الحديث . وكتابنا هذا إن هو إلا محاولة لتصوير بعض مظاهر الحضارة الرومانية الشرقية في إيجاز ، وتذكير الناس بأسماء بعض رجالها الذائعي الصيت الذين تجدهم أهل زمانهم وكانوا فخر عصورهم .

بيد أنه لا بد لنا ، قبل كل شيء ، من الإجابة على سؤال واحد وهو : ما هي الفترة التي نستطيع ابتداء منها أن نتبين وجود امبراطورية بيزنطية أو رومانية شرقية واضحة ؟ ذلك أنه حتى في ذلك الحين الذي قام فيه حاكم للشرق في القسطنطينية وآخر للغرب في ميلان أو رافنا ، لم يكن هذا الوضع لينتقص من الوحدة المثالية

للإمبراطورية الرومانية ، إذ أن هذا الانقسام كان كما وصفه كاتب من كتّاب القرن الرابع مجرد « شبه انقسام » ، وكان الغرض من ورائه تيسير الإدارة . فقد كان كل من الحاكَمَين يعترف بنفس القوانين ومبادئ الحكومة والتقاليد الرومانية . وحينما انتهى عهد رومولوس أوغسطس ، آخر أباطرة الغرب سنة ٤٧٦ م ظلت نظرية الدولة الواحدة قائمة دون تغيير ؛ إذ أن « شبه الانقسام » هذا انتهى . رُمِدَت الوحدة القديمة إلى ما كانت عليه ، وانتقلت حقوق الحاكَم الغربي من تلقاء نفسها إلى صاحب العرش في القسطنطينية ، وُجِعَ السلطان كله مرة أخرى في يد واحدة . ويمكننا حتى في عهد جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) أن نقول إن الظاهرة الوحيدة التي كانت تضافى على حكمه طابع الوحدة هي طموحه لاستعادة الأراضي الضائعة ، وثبوت السيادة الإمبراطورية التي كانت لمن سبقوه فيما خلا من الأعصر — أى أنه كان باختصار آخرَ الأباطرة الرومان ، ولم يصبح بعدُ بيزنطياً .

وقد يذهب آخرون إلى أن الدولة البيزنطية إنما بدأت يوم عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ م ؛ إذ أنه في ذلك اليوم فاجأ البابا شرمَان وتوجه في روما إمبراطوراً على الغرب . فمن ذلك الحين قامت ، في واقع الأمر ، إمبراطوريتان وهما : الإمبراطورية الرومانية

المقدسة في الغرب ، والإمبراطورية البيزنطية في الشرق . وقد تبدو هذه النظرية مقبولة في نظر مؤرخ النظريات السياسية ، ولكنها أقل نفعاً لمن يدرس تاريخ روما الشرقية . فإذا أراد هذا الأخير أن يُعَيِّن الفترة التي يبدأ فيها التاريخ الذي يدرسه فلا بد له من أن يختار السنين الأولى من القرن السابع ، التي كانت بلاد شرقي البحر الأبيض المتوسط فيها قد اكتسبت تلك التيزات التي ظلت بعد ذلك تعيّن السياسة البيزنطيين حدود سياساتهم دائماً .

ومن الثابت أن سياسة جستنيان الإمبراطورية لم تكن إلا ونحماً مسير التحقيق باهظ التكاليف . ثم إن محمداً [صلى الله عليه وسلم] جمع القبائل العربية على دين واحد ، وكانت النتيجة أن تدفق أبناء الصحراء على فلسطين وسوريا بحماسة أعنف من أن تقاوم ، ولم يوقف اندفاعهم إلا الجبال التي تحمي آسيا الصغرى . ولم تلبث إفريقية أن سقطت في أيديهم . وتدفق الصقالبة عبر الدانوب . ثم إن حركة تبلور القوميات كانت قد بدأت إذ ذاك في الولايات الرومانية ، ونشأت عن ذلك دول البلقان الحالية . وهكذا نرى أن النصف الأول من القرن السابع هو الفترة المتميزة التي يجد المؤرخ نفسه ميالاً إلى أن يتخذها بداية « للإمبراطورية البيزنطية » .

بيد أن هذا العصر ، على الرغم من أنه كان في حد ذاته بداية لعصر جديد اقتضى إيجاد تعديلات في السياسة والإدارة ، فإنه لم يكن إلا ختاماً لعملية تطور طويلة ، ولا يمكن فهمه حق الفهم إلا على ضوء تاريخ العصور الثلاثة السابقة . ذلك لأن هناك حقيقة تزداد وضوحاً أمام أعيننا يوماً بعد يوم ، وهي أنه عند نهاية القرن الثالث المسيحي تنقضى حلقة من حلقات التاريخ ، إذ أن شعوب البحر الأبيض المتوسط بدأت حلقة جديدة من سلسلة تاريخها ، وهذه الحلقة الجديدة يُعَمِّنها اعترافُ الدولة بالمسيحية واختطاطُ مدينة قسطنطين — روما الجديدة — في بلاد اليونان . وهذه هي الحادثة التي يجب أن تُعَيَّن لنا نقطة بدايتها . وقد احتل الصليبيون القسطنطينية في سنة ١٢٠٤ م ، وأخذ الحكم اللاتين مكان الأباطرة البيزنطيين . نعم ، إن الإمبراطورية قد أعيدت خلال القرن الثالث عشر ، ولكن أمراً جديداً جدّاً على أيام أسرة باليولوجوس : ذلك أن مؤثرات جديدة من الغرب تسربت إلى العالم الروماني ، ولم يبق لروما الجديدة نفسها من عظمتها السابقة إلا ظلها . ولا زالت هذه الفترة في حاجة إلى دراسات طويلة حتى يشعر دارس التاريخ البيزنطي أنه يقف على أرض ثابتة . وربما حاول التخلّص

بإصدار أحكام عامة ، ولكن ذلك لا يخلو من مجازفة . ولهذا الأسباب وغيرها قَصَرَ المؤلف نفسه في هذا الكتيب بصفة خاصة على العصر الذى سبق سقوط القسطنطينية في الحرب الصليبية الرابعة ؛ ولهذا فإن كلامنا يتناول الفترة الواقعة بين إنشاء روما الجديدة في القرن الرابع واحتلال الصليبيين لها في سنة ١٢٠٤ م .

(المؤلف)

وقف المؤلف بعرضه التاريخي عند سنة ١٢٠٤ م ، ولكن فصوله على الحضارة تتناول الحضارة البيزنطية كلها حتى نهايتها في القرن الخامس عشر ، بل إنه أضاف فصولا عن تراث بيزنطة . ولهذا رأينا أن نضيف إلى الكتاب فصلين أخذناهما من كتاب شارل ديل المسمى : بيزنطة ، عظمتها واضمحلالها .

CHARLES DIEHL, *Byzance, Grandeur et Décadence* (Paris, 1919).

وهما : تكوين الإمبراطورية الشرقية .

La formation de l'empire oriental.

و : من أوج الدولة إلى سقوطها (٨٦٧ — ١٤٥٣)

De l'apogée de l'empire à sa chute (867—1453)

وقد قص فيهما المؤلف تاريخ الدولة البيزنطية من بدايته

إلى نهايته بأسلوبه البديع الشامل . وبذلك أصبحت الترجمة العربية شاملة لكل ما يحتاج إليه دارس التاريخ المبتدئ من المعلومات والحقائق عن تاريخ بيزنطة وحضارتها .

ولم يشر المؤلف إلا بإشارات عابرة إلى العلاقات السياسية والحضارية بين العرب والروم ، فرأينا أن نسد حاجة القراء بفصل خاص عن هذه الناحية أخذناه من الكتاب الذى ألفته مجموعة من كبار الأساتذة المختصين فى التاريخ البيزنطى وعرضوا فيه لتراث بيزنطة واسمه :

Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization

Edited by

NORMAN H. BAYNES and H. St. L. B. MOSS.

واسم الفصل *Byzantium and Islam*.

وكاتب الفصل الذى ترجمناه هو الأستاذ فازلييف الحجة المعروف فى الدراسات البيزنطية .

وختمنا الكتاب بملحق ثالث يضم أسماء أباطرة الدولة البيزنطية أخذناه من كتاب « الحضارة البيزنطية » تأليف : ستيشن

رونسمان *STEVEN RUNCIMAN : The Byzantine*

Civilization من صفحة ٣٠١ إلى ٣٠٥ . وبهذا نكون قد وفينا

قراء العربية حقهم من هذه الناحية ، وجعلنا من هذا الكتاب الصغير معرضاً يضم أفكار طائفة من أعلام الدراسات البيزنطية . هذا وقد أضفنا تعليقات يسيرة هنا وهناك ، حيث اقتضى المقام توضيح النص أو التعريف ببعض الحقائق أو الشخصيات التي عبرَ بها المؤلف عبوراً سريعاً . ولما كان المؤلف قد أضاف بعض الحواشي القليلة ، فقد ميزنا هذه الأخيرة بلفظ « المؤلف » تحتها وتركنا حواشيننا من غير تعيين .

ويسرنا في ختام هذه الكلمة اليسيرة أن نقدم أصدق الشكر إلى حضرات من تفضلوا بمعاونتنا في إخراج هذا الكتاب ، ونخص بالذكر حضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، والأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والأستاذين مصطفى عبد المجيد صالح وإحسان عباس .

والحمد لله أولاً وآخراً . (المعرباه)

الفصل الأول

مدينة قسطنطين

« تلك المدينة التي جمعت آمانيات الدنيا »
قسطنطين الرودسي^(١)

إن الحقيقة القائلة « إن تجارب كل جنس تتجسم في نظمه السياسية » تبدو أكثر وضوحاً في أعمال دقلايدانوس، وقسطنطين منها في أي شيء آخر . فقد ساد العالم الروماني من الداخل في القرن الثالث تفكك عام ، فكان الفساد يهدد الدفاع العسكري والحياة الاجتماعية ، فهوجمت جميع الحدود ، وعانت جموع البرابرة فساداً في الولايات في غالة وعلى الراين والدانوب ، بينما كانت فرق الإمبراطورية تواجه في الشرق تقدم الفرس بقيادة الساسانيين ، الذين ارتقوا إلى الحكم (حوالي ٢١٢ ب . م) بدافع من الحماس القومي الشديد .

(١) قسطنطين الرودسي : مصنف مجموعة من الأشعار القصيرة تسمى *Anthologia Palatina* فيها قصائد لشعراء وثنيين ومسيحيين ، وكانت ذاتة الانتشار خلال القرن العاشر الميلادي . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن قسطنطين هذا هو نفس المؤلف المعروف بـ قسطنطين خيفالاس . انظر : KRUMBACHER : *Geschichte der Byzantinischen Literatur*, p. 727 — VASILIEV, *Hist. Byzantin*, I, 479.

وكانت روما قد فقدت أكثر قوادها الأكفاء في ساحة القتال ، وانتخبت الشعوب الخاضعة لها قوادا وأباطرة — دفاعا عن نفسها . وأصبح الشعور بالوطنية لا يتعدى حدود الولاية ، لأنه لم يعد يعتمد على حماية جيوش الإمبراطورية ، بل على أهل الولاية أنفسهم .

وكان من الضروري للإبقاء على روابط الناس بعضهم ببعض ، أن تفرض عليهم قيود صارمة لا يفلت منها أحد ؛ ذلك أن المجتمع كان مهدداً بجيوش لا قبل له بها من الخارج ، وعدوان الجيش والانهيار الاقتصادي من الداخل .

وعلى هذا فقد اقتفى دقلديانوس خطى أوريليان *Aurelian* (٢٧٠ — ٢٧٥ م) وأجبر المواطن الروماني على مُزاولة مهنة أبيه ، وألزمه الخضوع لنظم النقاية التي كان أبوه عضواً فيها . وكذلك لم يكن يُسمح له ، مهما تكن ظروفه ، أن يتخلص من التزاماته نحو الدولة . فكان عليه أن يلزم وظيفته سواء أ كان مالك أرض ، أو عضواً في مجلس بلد ، أو جندياً على الحدود . فإذا امتنع أعيد مرغماً مهما بلغت خسارته الشخصية على حساب حريته أو أملاكه . إذ أدرك هذا الإمبراطور الإلأيرى بعقريته الفذة أن الأمل الوحيد لنجاة سفينة الدولة ، بعد أن أخذت

تتفكك خُشْبها ، هو العمل بهذا النظام الاجتماعى المتوارث .

ونقول بالإضافة إلى ما مر : إن اختبارات القرن الثالث
 هى التى أملت طبيعة إصلاحات دقلديانوس فى الحكم . فقد
 أثبتت أنه لا غنى عن وجود قوادٍ أكفاء يؤمنون بوجوب
 خضوعهم للحكومة ، وجيوشٍ سريعة الحركة يفقه أفرادها دروس
 الطاعة والنظام . فقد كان الوالى منذ أيام روما الأولى حاكماً إدارياً
 وقائداً عسكرياً إذا دعت الضرورة . فكان تفرده فى سلطته
imperium يكفل له نفوذاً مدنياً وعسكرياً . أما الآن فقد أصبح
 من الضرورى مراعاة الكفاءة العسكرية وحدها عند انتخاب
 الوالى ، لأنه لم يعد يجد من الوقت ما يعينه على نصريف واجباته
 المدنية . وعلى هذا فقد فصل دقلديانوس بين الواجبين فصلاً
 تاماً ، وهو إجراء ربما كان الإمبراطور جاليانوس *Gallienus*
 (٢٥٣ — ٢٦٨ م) هو أول من مهد له . وتعدى ذلك إلى إبعاد
 أعضاء مجلس الشيوخ النبلاء عن الجيش ؛ وعين فى الوظائف
 العسكرية رجالاً من الطبقة المتوسطة (الفرسان) الذين لم يكن
 لهم من محترم أو ثرائهم ما يؤهلهم لتلك المناصب ، وإنما أهلتهم
 لها كفاءاتهم . وأخذ دقلديانوس فى الوقت نفسه يسعى لمواجهة
 الخطر الذى قد ينشأ عن محاولة قائد ناجح اغتصاب العرش :

فزاد من عدد الولايات ، وبهذا أنقص من عدد القوات الخاضعة لإمرة أى قائد بمفرده ؛ ونظم الدفاع عن الحدود . ومن المرجح أنه كان صاحب الخطوة الأولى في سبيل خلق جيش إمبراطورى متنقل ، وهو عمل أتمه قنسطنطين فيما بعد (انظر الفصل السابع) ومع هذا فقد بقى أن يتحول الإمبراطور ، ذلك السيد الجامح ، إلى خادم مطيع للحكومة ، وأصبح من الضرورى أن يُنصَّ ثانية على سلطته . فاقبِس دقليديانوس لهذا الغرض أفكاراً فارسية عن الحكم المطلق من البلاط الساسانى : رأى أن يضاف على اللباس الأرجوانى أبهة شرقية وترفعاً ، وأن يصبح أميرُ الإمبراطورية القديمة ، الذى لم يكن بينه وبين شعبه حجاب ، ذلك الحاكم المقدس ، المترفع المحتجب ؛ ووجب على أفراد رعيته أن ينحنوا له صاغرين . ولم يعد الإمبراطور يعتمد فى تثبيت حقه فى العرش على هتافات التأييد الصاخبة^(١) من الحرس

(١) كانت القوانين الرومانية القديمة تقضى بالألا بلى موظف كبير وظيفة إلا بطريق الانتخاب . ولما كان الإمبراطور فى أول أمره موظفاً كبيراً عمله قيادة جيوش الدولة ، فقد كان لا بد أن ينتخبه مجلس الشيوخ لى يتولى منصبه ؛ ولا بد أن يؤيد الشعب هذا الانتخاب بالهتاف للإمبراطور . فلما تطورت نظم الدولة وأصبح الإمبراطور الحاكم المطلق للدولة الرومانية كلها بعد انتهاء الحروب الأهلية فى سنة ٣١ ق . م ، حرص أكتافىوس أول الأباطرة على مراعاة قواعد الدستور وسار خلفاؤه على هذا المنوال =

الإمبراطورى ، بل أضحت نفوذه مستمداً من الحق الإلهى ، وأصبح سلطانه هبة من السماء .

وبهذا سجلت روما على نفسها اعترافاً بما للشرق عليها من ديون ؛ ولم يكن هذا الاعتراف هو الأول من نوعه . فقد أصاب الحياة والفكر فى العالم الرومانى فى القرن الثالث تغير ملموس . نعم ، حدث أن قرر أوغسطس بعد أن انتصر فى اكتوبريوم (٣١ ق . م) أن يعتمد فى تثبيت سلطته على الولايات الغربية ، وأن إسبانيا وغالة أقبلتا على الأخذ بالثقافة اللاتينية بشغف أيام حكم الأسرة اليوليو — كلوديه ؛ غير أن الشرق الهلينستى بقى ملموس الأثر فى روما . حتى أن جوفينال *Juvenal* فى نقده اللاذع سخر من ذلك بقوله : إن نهر العاصى الشامى أخذ يصب فى التيمير . وعلى كل حال فقد تخال الإمبراطورية الرومانية تيار مقبل من أقصى الشرق . وبداء كآءا الفكر والثقافة الفارسيان أخذاً يتقدمان لغزو أراضى شرق البحر الأبيض المتوسط .

== فحرصوا على أن يكون ارتقاؤهم إلى منصب الإمبراطورية دستوريا من ناحية الشكل على الأقل ، فكان الطامع فى العرش يحرص على أن يجمع أفراد الحرس الإمبراطورى لى ينادوا به امبراطوراً ، ويعتبر ذلك تأييداً من الشعب لانتخابه . وقد أصبحت مسألة هتاف الحرس الإمبراطورى للإمبراطور هى البقية الوحيدة من مظاهر الدستور القديم .

وزحفت المذاهب الشرقية على الولايات الغربية وحمل رُماة الجيش الروماني من المرتزقة الذين كانوا يجندون باستمرار من آسيا عبادة مثراس إلى معسكراتهم على الدانوب والراين .

وأخذ النزاع الديني في القرن الثالث شكل كفاح بين المذاهب الشرقية . وكانت الوثنية اللاتينية تحارب معركة خاسرة حتى إن مؤيدي البانثيون القديم من أتباع الإفلاطونية الجديدة أخذوا يستخدمون الأسلحة الآتية من الشرق ، وتشبعت صوفيّتهم بعناصر شرقية بينما كان مرشدوهم يقيمون في مصر وسوريا . وهكذا اتجه مركز العالم الديني شطر الشرق .

وهجر الأدب أيضاً نهر التيبر ، وأدخل الكتاب اللاتين منافسوم اليونان ، وأصبحت مراكز العبقرية الأدبية في الغرب توجد في غالة وإفريقيا وإيطاليا .

ثم إن خطر البرابرة قد بلغ أشده على الحدود الشرقية والشمالية : فقضى كلوديوس (٢٦٨ — ٢٧٠) نحيبه يحارب القوط ، وقضى فاليريان ما تبقى من حياته أسيراً في فارس . وكانت روما أبعد من أن تنجد حدودها القاصية على الدانوب والفرات . كان أهل المجتمع الروماني زراعاً لا بحارة ؛ وحالت العوامل الطبيعية دون تدفق التجارة على روما . فالتيبر لم يكن يصلح

طريقاً للتجارة البحرية بسبب ضيق مجراه وكثرة فيضاناته ؛ ولم يكن غنى روما وليد شئ ، سوى ما سَلَبته من العالم ، ولأن ممالك الشرق المغلوبة نزلت عن كنوزها للغالب ؛ فلما أصبح البحر الأبيض المتوسط بحراً رومانيا تحول عنها — أى عن روما — فيض الغنى ، وانحطت الزراعة فى إيطاليا ، وهجرت الطبقات الحاكمة بساطة السلف ، وأخذ الشرق يزود الرومان بأسباب الترف ، ولم تعد إيطاليا تُنتج ما تؤدي منه أثمان ما تستورده من الأشياء ، وأصبح عليها أن تسد العجز الناشئ فى كل سنة بالنقد ؛ فعمّ الفقر إيطاليا ، واتجه منطق القوانين الاقتصادية الغاشم إلى الشرق كذلك .

وموجز القول إن المركز الدينى والأدبى والعسكرى للإمبراطورية قد انتقل . فلا عجب إذا احتاج حاكم يتوج رأسه بإكليل ملك الملوك إلى عاصمة شرقية للإمبراطورية ، وترك لقنسطنتين أن ينجز مابدأه دقلديانوس ، وأن يختار موقعاً ملائماً لروما الجديدة .

وهكذا قامت المدينة التى كتب لها أن تظل عاصمة للإمبراطورية وحصناً للغرب طيلة قرون ؛ واستقرت على شبه الجزيرة البارز من أوروبا والذى يكاد يلاقى الشاطئ الأسيوى ،

وفي وسط الطريق بين الحدود الشمالية والشرقية ، في بقعة يحميها مدبح مرمرة العنيف من الهجمات البحرية . واتخذت من القرن الذهبي ميناء لها .

وأخذت بيزنطة اسماً مسيحياً بعد أن قضى قنسطنطين على ليسينيوس *Licinius* قضاءً مبرماً . وبدأ العمل بإقامة سور المدينة الجديدة حين توج قنسطنطيوس قيصرأ في ٨ نوفمبر سنة ٣٢٤م ونشط العمل في البناء سنة ٣٢٨ م ، واحتفل بالقسطنطينية في ١١ مايو سنة ٣٣٠م احتفالاً مهيباً . وأقام الإمبراطور مع رجال بلاطه ومجلس الدولة *Consistorium* وهيئة حكمه المركزية في العاصمة التي حملت اسمه .

وكان لقنسطنطين في الحقيقة سبب آخر لتحوله هذا ؛ فقد شُيّدت القسطنطينية لتكون مدينة مسيحية الصبغة ، بينما ظلت عاصمة التير حصناً للديانة القديمة إلى وقت طويل .

وظل اعتناق قنسطنطين للمسيحية ، وطبيعة معتقداته الدينية الشخصية موضوع جدل لا ينتهي إلى أن كتب العلامة الفرنسي جول موريس كتاباً في نفوذ تلك الفترة أوضح فيه بجلاء — حسب ما رأى — أن قنسطنطين ولا ريب قد اتخذ المسيحية ديناً ، وأن الرواية التي تجعل تاريخ تنشره منذ

احتلاله لروما في أكتوبر سنة ٣١٢ م ، هي رواية صحيحة
ويتجلى مجد قنسطنطين الحقيقي فيما يلي : وهو أنه أقام طيلة
حكمه على الإخلاص للسياسة التي اتفق على الأخذ بها مع
ليسينيوس *Licinius* في اجتماعهما بميلان في فبراير ٣١٣ م في
عصر لا يعرف ناسه التسامح . وإذا جاز أن يكون منشور ميلان
مجرد رواية ، فما لا يقبل الشك أن رسائل وردت من البلاط
الإمبراطوري إلى حكام الولايات تأمرهم بأن يسمحوا لجميع
الطوائف — دون تمييز — أن يعتنقوا المذهب الذي يريدونه ،
وأن يمارسوا الطقوس الدينية الخاصة بديانتهم . وإذا جاز القول
بأن قنسطنطين كان يبشر في أواخر أيامه ، أو أن يقوم بصرف
الوثنيين عن حضور احتفالاتهم ، أو حتى أن يحاول أن يجتذب
شاه فارس إلى المسيحية ، فلا يجوز مطلقاً أن ندرج اسمه في قائمة
المضطهدين ؛ فقد رفض فكرة إلزام الناس الدخول في المسيحية .
وعلى كل حال فقد وجد قنسطنطين أنه يستطيع في مدينته
الجديدة أن يتحلل مما عاهد ليسيونيوس عليه في ميلان . فقرر
تحریم ممارسة الطقوس الوثنية في مدينته بعد احتفاله المهيب بميلادها
سنة ٣٣٠ م . ولكن كيف يتأتى لنا أن نفتر إإذا حقيقة
إنشاء معابد وثنية جديدة في تلك الفترة ؟ أو على الأقل ترميم

بعضها في نفس المدينة ؟ ذهب جول موريس إلى أنها أنشئت بين سنتي ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، وأن الذين أنشأوها كانوا موظفي الدولة لأنهم كانوا وثنيين ، فأرادوا بذلك التعبير عن تمسكهم بعقائدهم . لأن المسيحيين أبعادوا من الخدمة المدنية خلال فترة حكم دقلديانوس التي أطلق عليها فترة الاضطهاد ؛ ولا يغيب عن الذهن أن الإمبراطور في السنين الأولى هذه كان مضطراً إلى تنفيذ سياسته الجديدة عن طريق موظفيه الذين كانوا يناصبون أهدافه العداء ، حتى إن إرادة الإمبراطور لم يكن نصيبها سوى نذر من النجاح البطيء إزاء معتقدات الطبقة الحاكمة الراسخة . ومع هذا كله فقد فرضت القسطنطينية المسيحية على بيزنطة فرضاً في ٣٣٠ م .

وظلت عبادة الإمبراطور قائمة في الولايات ، ولكن في شكل معدل : فأصبحت مجرد احتفال لا تصحبه أية قرابين وثنية ؛ وأقيم معبد في أومبريا *Umbria* تكريماً لذكرى الأسرة الفلاڤيَّة *Gens Flavia* ، وحتى لقد احتفظت الديانة القديمة ببعض هيبتها في القسطنطينية نفسها ؛ وكان ذلك أثراً مباشراً لعمل قسطنطين : فهناك على عامود مرتفع نُصب تمثال كان في الأصل على الأرحح يمثل أبولو ، ولكنه أصبح يحمل ملامح

قنسطنطين . وحمل رأس الإمبراطور تاج هليوس *Helios* (إله الشمس) المتألى . وكان هذا التمثال موضع احترام المسيحيين والوثنيين على السواء . ترى ما الذى يعنيه هذا ؟ لقد ادعى قنسطنطين بالرجوع إلى نسب أبيه قنسطنطيوس كلوروس أنه من نسل الإمبراطور البطل كلوديوس جوثيكوس . ويظهر أن كلوديوس وقنسطنطيوس وقنسطنطين نفسه فى أيامه الأولى ، عبدوا إله الشمس (سول إنفيكتوس — الذى لا يقهر) . ويرى البعض أن قنسطنطين كان يرمى من وراء تمثاله هذا أن يعلن لشعبه أنه لم يزل بعد تبصره يعترف بفضل أجداده العظماء ، وأن الأسرة الفلاقية الجديدة التى أراد تأسيسها ، ذات ماض عريق وأنها جديرة بولاء الرومان ، فإذا كان هذا هدف قنسطنطين ، فقد حققه ؛ وليس أدل على ذلك من أنه عند وفاته كانت هناك شواهد جلية على الطاعة التى أحيهاها فى نفوس الناس شعوره هذا تجاه أسرته . وتساهل قنسطنطين مرة أخرى مع الوثنية ، فاستمر يعترف بإلهة الحظ *Tyche* — الروح الحارسة — إلهة بيزنطة وروما على السواء ، مع أنه قد يشك فيما إذا كان الإمبراطور قد أمر — كما يؤكد ذلك ملالاس *Malalas* — بأن يحمل تمثاله الذى صُوِّرت عليه الإلهة *Tyche* — فى العيد السنوى بالمدينة — وسط

احتفال مهيب خلال الهيدروم^(١)، ويقدم له سلطان الدولة مراسيم الاحترام ذلك أن كل تقاليد تلك الفترة التي أسمع عليها نوع من الإجلال قد عُزيت إلى قسطنطين . وقد أولى العلماء المحدثون تلك الصور المفرغة في قالب مثالي أهمية كبيرة — ففسروا الرمز إلى روح بيزنطة على صورة جَوْجُو سفينة ، على أنه في الواقع إشارة إلى روح روما الذي أراد قسطنطين أن ينقله إلى روما الجديدة التي أنشأها لذلك الغرض . وذلك تفسير معقول لأن روما كانت محرومة من الميناء — وهو روحها — ولا يستبعد أن يأتي دارس نقود في عصر مقبل فيجداد بطريقة مشابهة مستنتجاً من

(١) الهيدروم hippodrome (من hippos اليونانية أي حصان ، و dromos أي ميدان) : هو حلبة سباق الخيل والألعاب في المدن اليونانية والرومانية . وكان هيدروم القسطنطينية من أكبر منشآتها لأنه كان مجتمع أفراد الشعب للهو والتسليه حيث كانوا يشهدون سباق العربات وصراع المصارعين وبعض ألوان التمثيل الجدى والهرلى . وكان الأباطرة يذهبون إلى الهيدروم بعد تنويعهم مباشرة حيث يجلسون في المقصورة الإمبراطورية التي كانت تسمى Kathisma وهناك يحجبهم الشعب . وتعتبر هذه التحية بمثابة المياعة . وكان اللاعبون يلبسون أثناء اللعب ملابس ملونة بأحد ألوان أربعة : الأخضر والأزرق والأبيض والأحمر . وبعد أن حرمت الكنيسة مبارزات الجلادين في الملاعب العامة ، أصبح سباق العربات التي تجرها الخيول أشيع ضروب التسليه في اللعب . وكانت كل طائفة من المتسابقين تميز نفسها بلون خاص . وكان لها أنصارها الذين كانوا يعتبرون أنفسهم وحدة فيقومون بنفقات الخيل والعربات والسائقين . انظر : VASILIEV, Op. Cit., I, 204.

نقود الإمبراطورية البريطانية التي ستكون قد سقطت منذ أمد طويل أن عبادة الإلهة بريطانيا كانت شائعة فيها في القرن العشرين إلى جانب المسيحية ، كأثر باقٍ للوثنية القديمة في الجزيرة . ولا شك في أن تمثال *Tyche* يستطيع أن يصور لنا — من وجهة نظر واحدة — فكرة قنسطنطين عن هذه المدينة . فأهل القسطنطينية — كما يظهر من النقود المسكوكة في المدينة الجديدة — هم الجمهور الروماني : مُنحت لهم نفس الامتيازات ، وتمتعوا منذ ٣٣٢ م بتوزيع القمح والخمر والزيت من الحكومة ، فقد أخذت ناقلات القمح من السفن المصرية تبهر إلى القرن الذهبي ، بينما ظلت الفرق الرياضية تتبارى في الملعب الروماني . حقاً ، لقد كانت مدينة قنسطنطين روما الجديدة ، إذ وضعت نظمها على نهج نظم روما القديمة ، وترى قنسطنطيوس الثاني يرفع مجلس السناتو في القسطنطينية إلى مستوى شبيهه في مدينة التيمير .

وسمى قنسطنطين إلى تشجيع أفراد الشعب على ترك مساكنهم والاستقرار في عاصمته بكل الوسائل ، وقد سلمت من العالم الروماني كنوزه الفنية ، وأصبحت القسطنطينية متحفاً حقيقياً حافلاً بالروائع اليونانية والهيالينية بينما اقتضى تنسيق الحمامات والكنائس والقاعات والميادين على مقياسه الواسع بذخاً كثيراً .

ليس هذا مكان لوصف القسطنطينية وصفاً مفصلاً : لقصرها الذى كان يضم مجموعة معقدة من الأبنية التى كان يضيف إليها الأباطرة على التعاقب أبنية أخرى أثناء القرون ، وإشارتها الرئيسى ميزى ^(١) Mese الذى كان يسير من سنت صوفيا غرباً مخترقاً الفورم الذى أسسه قسطنطين ، والفورم التورى إلى البوابة الذهبية — بوابة مدخل القصر ، وبواكيه المغطاة بلاطاتها بالرخام ، والتي كانت تحف بشارع ميزى حيث كانت تقوم منصات البدالين ؛ وشوارعها الجانبية الضيقة التى لم يكن عرضها يزيد عن عشر أقدام ، والتي كانت تُصَيِّقُها شرفات الدور البارزة وسلاسلها الخارجية ؛ وكنائسُ سنت صوفيا والرسل الاثنا عشر وسنت إيرينى ، والصور المحيط بالمدينة الذى وسّعه ثيودوسيوس الثانى فى القرن الخامس ، والذى أعاد توسيعه هرقل فى القرن السابع . فإذا

(١) Mesé ميزى : اسم الشارع الرئيسى فى القسطنطينية أيام البيزنطيين وكان يبدأ عند باب القصر والهيدروم وينتهى نحو الغرب وطوله نحو ميلين . وكان متسعاً تقوم على جانبيه البواكى . وكان يخترق ميدانين : ميدان قسطنطين وميدان ثيودوسيوس ويتفرع عند نهايته إلى شارعين يتجه الأول نحو ميدان بول وأركاديوس ، وينتهى عند البوابة الذهبية ، ويمر الآخر بكنيسة الرسل ، وينتهى عند حى بلاخرناى ، والبوابة الخارجية . وكانت أكبر المحلات التجارية فى العاصمة تقع فى هذا الشارع .

انظر : RUNCIMAN, *Byzantine Civilisation*. pp. 185—86

والمراجع المغطاة .

رغب القارىء في المزيد فليرجع إلى كتب أخرى .

وحسبنا في البدء أن ندرك كيف استطاع قنسطنطين استمرار ذلك العصر ، وماذا كانت تصوراتاه للمدينة . لقد حاولت الحكومة الوثنية أن تستأصل شأفة الكنيسة المسيحية ، فأخفقت في ذلك ، وكان النجاح حليف قنسطنطين حين حاول أن يربط الحكومة الوثنية مع الكنيسة المسيحية برباط الصداقة . فالقنطنطينية رمز لذلك الاتحاد بين التقاليد الرومانية والمسيحية ، اتحاد اعتمد في توثيق عمره على مر السنين اعتمادا كلياً ، حتى أصبحت المعتقدات الأرثوذكسية والرعوية الرومانية شيئين مترادفين .

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية في الامبراطورية الشرقية

« إنني لأرى حينما وليت وجهي أنكم شعب شديد الورع »
أعمال الرسل ، ١٧ ، ٢ (ترجمة موفات) (١)

لا تزال الحياة الاجتماعية في الإمبراطورية الشرقية تنتظر من يؤرخها^(٢) ، وكل ما يمكن أن يعالج في هذا الفصل الموجز لا يعطى للقارى أكثر من صورة للجو العام في العالم البيزنطى ؛ إذ أن الدراسة تصبح أمراً مستحيلاً إذا لم تُرسم لذلك الموضوع خطوطه الكبرى .

لا يكاد أحد يُنكر أن مصالح الناس ، وما يثير اهتمامهم من الأمور لا تخرج عن أن تكون علمية أو اجتماعية ، وأن كل مسألة تتخذ شكل المعضلة الاجتماعية . أما في الإمبراطورية الرومانية

(١) انظر أعمال الرسل ، إصحاح ١٧ ، ٢٣ من الترجمة العربية ط . نيويورك ، ١٨٦٧ م ، حيث ورد هناك : « أراكم من كل وجه متدينين كثيراً » .

(٢) قضى المؤلف عدة سنين يجمع مادة لدراسة الحياة الفكرية والشعبية في الإمبراطورية الشرقية .

الشرقية فقد كانت الهواياتُ والنزعاتُ دينية ؛ وكانت الأمور من سياسية واجتماعية تلبس ثوباً دينياً .

لقد كان البيزنطى يعيش فى عالم تملأه وتسيطر عليه القوى الخفية . فكانت عطلاته أعياداً دينية ، وألعابه فى الملعب ، تُستهل بتراتيل ، وعقوده التجارية تنسم بعلامة الصليب ، أو تحتوى على ابتهاج للثالوث المقدس . وإذا أراد أن يستخير الله فى شيء ، لم يفعل ذلك إلا عن طريق النساك أو طريق الرؤى التى يتمثل فيها القديسون الأموات . وكان يتخذ من التماثم المقدسة تعاويذ له . ويرى فى الغبار المحتوى على قطرة عرق المحدث من جسم قديس من الذين ماتوا على الأعمدة أنجمع دواء عنده . وكانت حروبه صليبية مقدسة ، وإمبراطوره خليفة لله فى أرضه ، وكل حادثة مروعة فى الطبيعة فهى إما نذير أو بشير إيمانيه أو يحفز به . وكانت النتيجة لهذه النظرة أن أصبح العلم متهماً . ومجال القول ذوسعة فى تأييد تلك الحقيقة ، ولكن حادثة حقيقية واحدة قد تكون أبلغ أثراً من رسالة : حدث فى القرن الرابع الميلادى أن اجتاحت القسطنطينية طاعون كان يودى بأرواح عدد كبير من الناس يومياً ، ووجد أحد أطباء العاصمة أن نسبة الوفيات كانت عالية بين أصحاب الأيدي العاملة الذين يعيشون فى بيوت

تحت الأرض ، وأعلن للعلا أن ذلك ناجم عن قلة الهواء النقي في تلك الغرف الأرضية ، فروّعت القسطنطينية لذلك ، وصاح الناس : « يا للكفر ! إن الله هو الذى يتوفى الأنفس ، أما مسألة الهواء فإن القول بها لغو وسفاهة » ، وظل الطبيب يزور المرضى من الفقراء المدقعين حتى تسلفت إليه العدوى فى النهاية ففضى نحبه ، وبذلك انتصر الدين ، واعتقد الناس أن موته إنما كان عقابا له على زندقته .

والحق أن البيزنطى تحوّل بالسليقة إلى القديس بعد أن عاين عجز الطبيب . وبعد أن كان الناس ينامون فى الهياكل الوثنية ليبرأوا من أدوائهم ، أخذ المسيحى حينئذ يتردد إلى الكنيسة أو إلى مقام أحد الشهداء . وتولى الملاك ميكائيل مهمة شفاء الناس التى كان يتولاها الإله القديم الذى كان يشفى عباده إذا ناموا فى هيكل السوستينيوم *Sosthenium* على مقربة من القسطنطينية (ولا نعرف مكانه بالضبط) . وقد اضطر الطبيبان المسيحيان الأخوان كوزماس *Cosmas* وداميان *Damian* أن يوحيا فى المنام إلى يوتانى كان يبحث عن مطب داءه أنهما لم يكونا الأخوين الوثنيين كاستور وپوليدىوكيس ولكنهما عبدان

من عباد الحق سبحانه^(١) . وحينما تنصر هذا اليونانى نال الشفاء بفضل تدخل القديسين . ولم يكن فى مقدور كيرلس^(٢) الاسكندرى

(١) كاستور وبوليدىوكيس أو بولوكس *Pollux* : ولدا زيوس وهما من أبطال الأساطير اليونانية المشهورين . ويسميان فى بعض الأحيان الديوسقوريان *Dioscouri* . وكان الناس يعتقدون أن لهما قوة سحرية ولذلك كانا يسميان التوأمين الإلهيين ، وكان الناس يضرعون إليهما فى حالات المرض رجاء الشفاء .

انظر: RENDEL HARRIS, *The Cult of the Heavenly Twins*:
أما كوزماس وأخوه داميان فـكانا من العارفين بشئون الطب فى العصور البيزنطية الأولى ، وقد نسب الناس إليهما من معجزات الشفاء ما جعلهما فى سلك القديسين .

انظر: RUNCIMAN, *op. cit.* p. 132 .

وظاهر من هذه الإشارة أن اليونانى المريض كان وثنياً . وحينما طيبه الأخوان المسيحيان اعتقد أن الذى شفاه إنما هما كاستور وبوليدىوكيس . فلما شفياء ، احتالا عليه حتى أفهماه أنهما مسيحيان وأنهما شفياء بفضل من الله ، فكان ذلك من أسباب تنصره .

(٢) كيرلس الاسكندرى (٤١٢ — ٤٤٤ م) : هو أكبر بطارقة الكنيسة المصرية على الإطلاق . وهو ثالث ثلاثة يعتبرون بحق أبطال العصر المسيحى المصرى ، والاثنان الآخران هما ثيوفيلوس *Theophilus* (٣٨٥ — ٤١٢) ودوسقوروس (٤٤٤ — ٤٥١) . وكان كيرلس شخصية قوية استطاعت أن تسطر على مصائر المسيحية خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادى . وقد تزعم كنائس مصر والشام فى نزاعها مع كنيسة القسطنطينية التى كان يمثلها نسطوريوس ، صاحب المذهب المسيحى المنسوب إليه . وقد اشتد الخلاف بين كيرلس وأتباعه ونسطوريوس وأتباعه ، واستطاعت الكنيسة المصرية أن تحرز انتصاراً عظيماً فى مجمع إفيسوس الأول بفضل جيش عظيم من رهبان مصر ، استصحبه إلى إفيسوس ، فتمكن من =

أن يُبطل عبادة الشيطان *Menuthis* إلا بعد أن حول رفات
الشهيدين سيروس ويوحنا إلى قرية كان يعبد فيها ذلك الإله
الزيف . ولعل المتشككين يتساءلون فيما بينهم : ألم يخلق البطريق
القادر من ذينك الميتين الطاهرين ذريعة لتحقيق أغراضه ؟
ولكن الأمر ، كما عثر عنه مريد كيرلس المدافع دونه ، هو أنه
ليس في التاريخ حقاً ما يؤيد وجود الشهيدين (سيروس ويوحنا)
قبل ذلك ، ولكن كلمة من البطريق كفيلة بإثبات وجودهما .
وإن ذلك ليقنع كل باحث عاقل يجرى وراء الحقيقة . ومما لا ريب
فيه أن سيروس ويوحنا — مثل منوتس من قبل — كانا يشفيان

= استصدار أمر بعزل نسطوريوس ، ومع أن الحكومة البيزنطية عزلت
كيرلس بعد ذلك ، فإنه لم يعترف بعزلها وعاد إلى مصر وجعل يمارس
سلطات وظيفته كأن شيئاً لم يحدث ، وتمسك مع الزمن من أن يستميل
بلاط القسطنطينية ويستصدر منه قراراً بتثبيته . ومنذ ذلك الحين كان كيرلس
أكبر شخصيات الدولة البيزنطية على الإطلاق حتى وفاته سنة ٤٤٤ .

cf : DUCHESNE, *Histoire de l'Eglise*, III, pp. 480 sqq.

وهذه القصة التي يوجزها المؤلف تدل على ذكاء كيرلس وعظيم ثقة
الناس فيه ، فقد أراد أن يحو من القرية المذكورة عبادة الإله المصري
القديم منوتس ، فنقل إليها بقايا قديسين قديمين ، هما يوحنا وسيروس ،
لكي يصرف الناس بهما عن الإله القديم . وقد زعم أعداؤه أنه لم يوجد قبل
ذلك قديسان بهذين الاسمين ، وأن كيرلس ابتكرهما ابتكاراً . أما أنصاره
فلم يكلفوا أنفسهم عناء مناقشة خصومهم لأن قول البطريق بوجودهما كان
كافياً في نظرهم لإثبات هذا الوجود .

المرضى أثناء النوم . ولكن أطرف تصوير لشفاء الأمراض بواسطة القديسين هو ما كان معروفا في القرن السابع من كرامات القديس ارتيميوس *Artemius* (الذى استشهد في القرن الرابع) وكان قديسا اختصاصه شفاء جميع أمراض الأعضاء التناسلية . وقد كانت حشمته تأتي عليه أن يعالج المرضى من الإناث مباشرة ، بل كان يعالجهن على يدي مساعدته القديسة فبرونيا *Febronia* — وهى سيدة كانت قد فارقت الحياة مثله قبل عدة قرون^(١) . ولا شك أننا لا نكاد نستطيع أن نعيد على هذه الصفحة الروايات التى كانت شائعة عندئذ ، مع أنها حافلة بالطرائف الخفية . فقد كانت جماهير المرضى تهرع من جميع أنحاء الإمبراطورية قاصدة القسطنطينية ، وكانت الطريقة المتبعة للفوز بالقوى الخفية لهذا القديس هى أن يجيء المريض مساء أحد أيام السبت إلى كنيسة يوحنا المعمد ، حيث كان ضريح القديس ارتيميوس . وهناك يفرش حصيرته على الأرض ويقربها حتى تكاد تلمس الضريح . فإذا شاء القديس أن يشفى المريض فعل ذلك فى يومه

(١) المقصود بذلك هو أن الناس كانوا ياجأون إلى مقام هذا القديس المتوفى ليشفيهم من أمراض أعضائهم التناسلية بواسطة عدد من الرهبان كانوا يتوسطون بين روح القديس والمرضى . وكان هؤلاء الرهبان يحيلون المريضا إلى ضريح القديسة فبرونيا التى تشفيهن ببركاتها .

متمثلاً للنائم في رؤياه . ولكن أرتيميوس لم يكن مقتيداً
بالاعتبارات المكانية ، فكثيراً ما كان يعالج العباد ولو كانوا
فوق أمواج البحر .

وبمثل هذه الطريقة أخذ القديس المسيحي محل محل الإله
الوثنى الذى كان يدرأ الأذى عن المدينة . ذلك كان مركز
القديس ديمتريوس في سالونيك ، بينما كانت العاصمة تتمتع بحماية
العذراء ، أم المسيح . وكما ظهر القديس ديمتريوس على رأس
الكتائب الرومانية الشرقية دفاعاً عن مدينته ، كذلك رأى
خاقان الآفار وهو يُحاصر القسطنطينية صورة فحمة لأنثى تذرع
الأسوار وتعود الرومان وهم يغادرون بوابة المدينة . وصورة
ديمتريوس ، فارس الرب ، كما تصور لنا في كرامات القديس
ديمتريوس ، تعود بنا إلى الورا لتذكرنا بتدخل ديوسقوروس
عند بحيرة رجُلُس *Regillus* ، ونقلنا قدماً إلى ميادين فرنسا
سنة ١٩١٤ حين ظهر القديس جورج — كما يقال — على رأس
الجيوش الإنجليزية ، فكتب على أعدائهم الهزيمة .

هذا الشعور المستمر بوجود القوى الخفية ، هو الإطار الذى
كان يعيش فيه الإنسان البيزنطى . ذلك أن ميله إلى اللاهوت
كان يظهر فى كبر الأمور وصغارها ؛ وكان العالم المحجوب عن

الأبصار يدور معه في الآجلة والعاجلة . لقد نار الجيش مرة يطلب إلى الإمبراطور قنسطنطين الرابع أن يشرك في الحكم أخويه : هرقل ، وطيباريوس . ولما سألم الإمبراطور لم يريدون ذلك أجابوه قائلين : « لأننا نؤمن بالثالوث ، فلنتوج أباطرة ثلاثة » . حتى عند ما وثب كلب كبير على الأسقف بارثينيوس اللامبزاكي ، قال كاتب سيرته : « إننى أعتقد أنه لم يخرج من أحد البيوت ، ولكنه جاء من ذلك الكلب المحجب — أى من الشيطان » وكان من حسن حظ الأسقف أنه كان حاضر الذهن حينما وثب عليه الكلب ، فبادر إلى الإيماء بإشارة الصليب . وهكذا نجما دون أن يلحق به أذى . هذه حادثة تافهة ولا ريب ، ولكنها تُعيننا على تصوير وجهة النظر عند الرومانى الشرقى .

ولم يكن ساكن العاصمة يعيش فى جو دينى فحسب ، ولكنه كان يعيش فى جو خطر . ولا شك أن أعصابه كانت فى بعض القرون تحيا فى توتر مستمر لأن مدينته كانت تقاسى حصاراً بعد حصار ؛ وفى هذا التوتر المستمر نستطيع أن نجد تعليلاً لبعض السمات التى قد لا تنال إعجابنا فى الشخصية البيزنطية . ويكاد يكون مما لا جدال فيه أن الإمبراطورية الرومانية فى الغرب سقطت لأن أعداءها فاقوها عدداً . ولو أن عقلاً مخترعاً استحضر

يومئذ البارود والمدفع لباءت تلك الهجمات بالفشل . إذ يكون ذلك السلاح كافيا ليسد العجز العددي عند الرومان . وقد كانت أسوار القسطنطينية تمثل للشرق — بمعنى من المعاني — المدفع والبارود اللذين حُرمتها الإمبراطورية الغربية ، قَالَ أمرها إلى الزوال . ولكن لا بد للأسوار من رجال . وإذا كان المدافعون عنها فئة قليلة جداً ، فلا بد من أن تلعب الخدعة والحنكة والخيانة الصراح — إذا احتيج إليها — دورها بالنيابة عنهم . وهكذا مال الخلق البيزنطي إلى ألوان من الدهاء لا تعرف المبادئ ولا حدود الأخلاق . تلك الخصال التي نستطيع أن نلمسها حتى في شخصيات يونانية ورومانية زمن بركليس وديموستين . وإنا لنقرر من غير حرج ؛ أن النفعية الذاتية التي انفرست في النفوس — دون شك — كانت شائعة بين الرومانيين الشرقيين رفيعهم ووضيعهم .

ذلك أن التوتر الدائم له ردُّ فعل ، هو الإفراط في التراخي . ومن العبث أن ننكر أن العنف والوحشية والجور في السجايا البيزنطية كانت تلعب دورا كبيرا . نعم ، لقد غالى المغالون في تصوير تلك الناحية . ولكن لا يمكن تجاهلها بتاتا . فقد أصبح جمهور العاصمة ينظر باستخفاف إلى قيم الحياة الإنسانية نتيجة

لُسُخْطه على السَّاسة الذين أبغضهم بُغْضا مريرا ، ونتيجة للسهولة التي كان التحريق والقتل يُقْتَرَفان بها أمام أعينهم كلما وقع هياج . وزادت الحكومة الأمر سوءا ، فضربت للناس أسوأ المثل في هذه الناحية ، بما كانت تجرى عليه من معاقبة المجرمين بتوقيع عقوبات تقوم على قطع الجوارح : كقطع الأيدي ، وجذع الأنوف ، وسمل الأعين .

وقد رأى بعضهم أن هذه القسوة كانت تزداد سوءا لأن شعوبا همجية متوحشة كانت تندمج من حين إلى حين في كيان الدولة السياسي ، وتبقى على ما هي عليه من ضراوة الروح وإن سترت ذلك بغلالة رقيقة من الحضارة الهلينية . ولكن ، ألا يمكننا أن نردّ بعض أسباب الإسراف في هذا الاتجاه في التفكير ، إلى الخطر المائل ، الذي كانت القسطنطينية معرضة له دائما ؟ إن كاتب هذه السطور ليس عالما نفسانيا ، ولكنه يرى أن ذلك التوتر العصبي الذي كانت القسطنطينية ترسف في قيوده قد شلّ فيها القدرة على أن تكبح جماحها . ولو أنك فكرت في مغامرة خارج أسوار العاصمة ، تُروى فيها ظمأك إلى الصَّيْد — وهو لهو كان محببا إلى البيزنطيين — لما عرفت إن كان يقدر لك أن تعود . إذ يخبرنا التاريخ أنه لم يكن يقيم داخل الأسوار في مطلع القرن الثامن

إلا من كانت لديه مؤونة سنوات ثلاث . فإلى هذا الحد كان الخطر عظيما . إننا لا نستطيع أن نتخيل دائما الثمن الذى كان يدفعه سكان القسطنطينية لدفاعهم عن أوروبا .

وعلى الرغم من الخطر ، كان الرومانى الشرقى يتطلب لنفسه تسليه ومراحا . وكانت مرا كز الحياة الثلاثة فى القسطنطينية هى القصر وميدان السباق والكاتدرائية . وقد قال رامبو *Rambaud* : « إن كانت أياصوفيا لله ، وكان القصر للإمبراطور ، فإن الهيدروروم كان ملكاً للشعب » . فإذا أغلقت الحمامات ، وأقفلت أبواب الهيدروروم ، فقدت الحياة عند البيزنطى بهجتها ، وأصبحت تافهة ضحلة لا غناء فيها .

وقد بُنى هذا الهيدروروم على يد سِتيْمْيوس سِثِيرُوس *Septimius Severus* (١٩٣ — ٢١١) ب . م . أى أنه وجد قبل أن تخلق القسطنطينية ، ولا يزال باقيا إلى اليوم ، مع أن قصر الإمبراطور قد زال . وكان اللاعبون ، الذين كانوا ينقسمون إلى طائفتى الزرق والخضر ، منظمين ومعتبرين كأنهم حرس المدينة . ويمكننا اعتبار نقاباتهم التى تمثل فى الواقع عامة أهل بيزنطة ، بقيةً من النظم المدنية اليونانية القديمة ، أقرتها الحكومة البيزنطية المستبدة . فقد خمدت المعارك السياسية التى استمرت

نيرانها خلال القرون السابقة ، وتحوت العواطف الجامحة التي كانت تبعثها الميول الحزبية إلى مجال آخر . وقد كان وقوف الزرق والخضر قبالة بعضهم البعض على جانبي الملعب ، وتقاذفهم بالنقائض التي تقطر سما ، صورةً جديدةً لعصبية هؤلاء الناس لأحزابهم القديمة وتضامنهم في سبيلها . وكثيراً ما أثير هذا السؤال : وهو لم كان أباطرة القسطنطينية يسمحون بقيام ذلك الصخب والعجيج بين فرق الملعب ؟ والجواب الواضح على ذلك هو أن سلطة الحاكم المستبد نفسه قد تحدّها حدوداً لا يدّ له في قيامها . ومن المؤكّد أيضاً أن الحاكم قد يرى في تلك العداوات المتبادلة بين الزرق والخضر صماماً أمن تتسرب عن طريقه بعض العواطف الشريرة التي لولا ذلك لكانت خطراً يهدد عرشه .

تمثّل في فكرك لحظة ما كان يعنيه هذا الملعب الرّحّب في العالم البيزنطي ؛ وقدّر قبل كل شيء ذلك الحشد اللّجب من الناس الذين كانوا يرتزقون من أعمال خاصة بالملعب ، كالخراس والمدرّبين وسواس الخيل ، وسائق المركبات . فكّر في ذلك الحشد من الممثلين رجالاً ونساء . إذ في الفترة التي تتخلل سباق العربات الصّباحي والمساء ، كانت تُعرض مشاهد يقوم بها المهرجون والبهلوانات . وكان منهم من يمشون على الحبل ،

يلبسون ملابسهم وينزعونها وهم على ذلك الحبل المشدود . ومنهم من كان يوقف عموداً على جبهته فيتسلقه الأطفال ، ويجلسون على قمته . وفي أيام القسطنطينية الأولى كانت هناك مصارعات مع الحيوانات المتوحشة في الملعب . فكان يلزم لذلك هيئة من الحراس . وقد كان أكاسيوس *Acacius* ، والد الإمبراطورة ثيودورا حارس دب ، وكانت ابنته ممثلة ماهرة . وكان سائقو العربات لا يزالون يعيشون في عالم تسوده الخرافات الوثنية ، حتى لقد كانوا يحاولون بالتعاويد السحرية والتماائم أن يُقيدوا منافسيهم برُقية ويفوزوا دونهم . وكان السائقون يفتشون قبل بدء السباق حتى لا تكون معهم الخرزة السحرية التي تكفل لهم الفوز دون استحقاق . وكثيراً ما كانت تُكتب اللعنات المنصبة على رؤوس المنافسين المقوتين في ألواح صغيرة من الرصاص ، لا يزال لدينا منها عدد كبير . ويحمل ذلك كله آثاراً غنوسطية^(١) مُنحلة ،

(١) الغنوسطيون *Gnostics* وهم إحدى الجماعات التي كانت الكنيسة تناضلها في القرن الثاني الميلادي . وترجع تسميتهم بهذا الاسم إلى الكلمة اليونانية *Gnosis* أى « المعرفة » التي كانت تعين الشخص على تحرير العنصر المقدس فيه أى الروح ، من ربة الجسد . وأصل هذه الجماعة هو أن الناس في العالم اليوناني كانوا يفكرون في طبيعة الكون وكيف جاء الإنسان إليه ، وما هو مصيره ، فلما جذبتهم المسيحية إلى حظيرتها مزجوا بين أفكارهم هذه وبين تعاليم المسيحية . وكان بعض معلمى الكنيسة =

وتضرعات إلى الآلهة المصرية — أوزيريس وست وتيفون^(١) وابتهاالات إلى الملائكة الأظهار ورؤساء الملائكة ، وإلى قوى العالم الأدنى وإلى كائن خفي السرىسمى يولامون *Eulamon* المقدس . ومن هذه الألواح ، نستطيع أن نتعرف أسماء الخيول ، وهى غالبا فحول مثل *Phoebus* فيبوس ، وأخيل *Achilles* وبابلونيوس *Babylonius* ، وأوداكس *Andax* . وهى تعيننا على تعرف بعض الاصطلاحات الرياضية الكثيرة التى كانت متداولة فى القرنين الرابع والخامس . صحيح أن روما ابتكرت هذه الألواح لكن العاصمة الجديدة اقتبست نظامها عن القديمة . ويمكننا أن نستنتج ، مطمئنين ، أن أحوال الحياة الرياضية فى الشرق^(٢)

الذين مزجوا بين تعاليم المسيحية وهذه الأفكار التى أخذوها خارج نطاق الجماعة المسيحية يطلقون على أنفسهم كلمة « Gnostics » ، فأطلق خصومهم عليهم وعلى تلاميذهم وعلى كل من اعتنق أفكارا من هذا النوع كلمة « غنوسطين » *Gnostics* .

انظر EDWYN BEVAN, *Christianity* pp. 64—67. and STEVEN RUNCIMAN, *Byzantine Civilisation* p. 19.

(١) تيفون *Typhon* أو *Typhoeus* : شخصية أسطورية شريرة كثيرة التوارد فى أساطير الإغريق وهى تصور عادة فى هيئة إعصار مخرب أو عملاق ينفث النار من فيه ، أو مسخ له مائة رأس وعينان رهيبتان . وتصوره الأساطير دائما ساعيا فى السيطرة على البشر ، حتى تغلب عليه زيوس *Zeus* . ويبدو من كلام المؤلف هنا أن أصل تيفون مصرى قديم .
(٢) يقصد بالشرق هنا الدولة الرومانية الشرقية ، وبالغرب الدولة الرومانية الغربية .

كانت أقرب ما تكون شبهاً بأختها في الغرب . ويستطيع كل قارىء أن يتصور المشهد بنفسه ، فيرى : صفوف الزرق والخضر المتراصة آلافاً ، والأعيان والشيوخ يرفلون في أبواب مزر كشة من الحرير ، مرصعة بالأحجار الكريمة المتألئة ؛ وقد جلسوا في الشرفة المخصوصة بهم . أما مقاصير الإمبراطور والإمبراطورة فكانت متصلة بالقصر ، منفصلةً عن الملعب ، مشرفةً عليه من عل . وبعد انتظار طويل يعقبه وصول الحرس الإمبراطورى تبدأ الحركة ، فيدخل الإمبراطور إلى مقصورته ، ويرفع طيلسانه ويرسم علامة الصليب ، وتبدأ الأجواق الغناء . ومن الغريب أنه كانت ترسل المدائح في المسيح والعذراء ، ممتزجة بالضراعة الضارعة ، لعل النصر يكون من نصيب هذا المتسابق *charioteer* أو ذاك . ثم تنطلق العربات من عقالها : فإما النصر أو الخذلان . فإذا هبط الليل ، وساد الظلام التمتع سكّين مرهف ، وأبرق في ظلام إحدى الحارات الضيقة ، ثم يهوى إلى الأرض جسد ؛ ويعقب ذلك تناثر أمواد البحر ، ويجرف التيار شيئاً ما — لقد أخذ أحد الخضر ثأره من الأزرق المنتصر .

غير أن الملعب ليس مضماراً للسباق وحسب ، بل هو مجمع

يقوم مقام الكوميثيا^(١) المدرسة ، التي كانت آخر ملاذ لحرريات
الجمهور الروماني . فثمة كان الشعب يذسى منافسات الألوان ، ويدعو
الإمبراطور ليحاسبه عن عمل أحد الحكام البغيضين إليهم ،
أول يطلب إليه طرد وزير بغيض . فهناك ظهر الإمبراطور
أناستاسيوس حينما اتهم بالهرطقة حاسر الرأس ليقرر أمام رعيته
أنه على استعداد للتنازل عن العرش ؛ وهناك أيضا أخذ بلزاريوس
ثورة « النيقا » *Nika* في بركة من الدماء .

لقد أجمل الكاتب الإنجليزي الكبير *Bacon*
صاحب المقالات الفذة في إيجاز بارع أسباب الفتن ودوافعها فيما
يلي : الابتداع في الدين ، والاستحداث في الضرائب ، وتغيير
القوانين والعادات ، ونقض الامتيازات ، والظلم العام ، وتقديم
من لا يستحقون التقديم ، والأجانب ، والمجاعات ، والجنود
المسرحة ، والأحزاب المستيئة . وينضاف إلى ذلك كل ما من
شأنه أن يسىء إلى الشعب . وتتعاون جميعها وتتضافر في قضية
واحدة^(٢) . وتاريخ الملعب في القسطنطينية إنما هو حاشية تفسر
هذا النص المجل .

(١) الكوميثيا *Comitium* : ساحة في روما كانت تستخدم أول
الأمر لاجتماعات الجمعية العامة ، ولانعقاد المحاكم ثم أدمجت فيما بعد بالفورم .
(٢) انظر فرانسيس بيكون : مقالات ، ط . لندن ١٩٤٦ « عن
الفتن والاضطرابات » .

وكان ميدان السباق مكانا تعرض فيه الانتصارات
الإمبراطورية ، حيث كان الأباطرة يضعون الحذاء الأرجواني
— رمز السيادة — على رؤوس المنافسين المقهورين أو الأعداء
المغلوبين . كما كان أيضا محكمة جنایات ، يتخذ فيها القضاة
مجالسهم بانتظام . حتى إن الإمبراطور إذا اقتنع بارتكاب أحد
الحكام جريمة من الجرائم قضى على المجرم أن يحرق حيا على
مرأى من الرعية كما فعل ثيوفيلوس ذات مرة . وشدما كان
الشعب يحب هذا الإمبراطور (ثيوفيلوس) لذلك . وكذلك
كان الملعب مسرحا لتلك المواقب التي اعتاد الناس أن يروا فيها
رجلا من رجال البلاط أو رجال الدين المغضوب عليهم ، يُسار
به بين صفوف الشعب الساخر ، وربما أُركب حماراً وجعل وجهه
إلى ذيله . كذلك كان الملعب متحفاً فيه روائع فن النحت القديم
حيث كان رجال الكهنوت في الكنيسة المسيحية ، وقد رضوا
عما يجري في الملعب بعد أن كانوا يهاجمونه في عنف ، يتأملون
الآلهة الوثنية التي حلت الوثنية محلها . لقد كان الملعب مرآة للعالم
البيزنطي .

وكان الرجل من أهل الامبراطورية الرومانية الشرقية بطلان
هما الفائز في سباق العربات والقديس المتقشف . فأما الأول فكان

ينصبُ الصور والتماثيل إجلالاً له في كل مكان ، وكان سائق
عجلة السباق يمنح امتيازات خاصة : فكان في نجوة من كل عقاب
بدنى ، وإليه كان رجال الأدب يرفعون أحسن مقطوعاتهم . أما
المتقشف الزاهد فكان الحجاج يأتون إليه من كل صوب ، يحدوهم
شوق لاهف ابروا القديس على عموده وينالوا بركته ، وليحملوا
معهم تماثلاً صغيراً من تماثيل ذلك الرجل الطاهر ، التي كانت
تصنع لتباع بالجملة لكل من يطلبها من الأتقياء . وهذا التمثال
مع القنديل المعلق به ، كان يحمى دكان المتبرك وبيته من كل
أذى ، ويعطيه ثقة جديدة وشعورا جديدا بالاطمئنان وسط
أخطار الحياة .

ولو قدر لنا أن نتبع المتبرك إلى بيته لوجدنا هناك شعوراً
عظيماً بوحدة الأسرة وتقديراً لشعور الإخلاص المتبادل . فالمرأة
ربة البيت ، ولها نفوذها الملموس في مجال عملها على زوجها
وأطفالها . ونستطيع أن ندرك مدى قوة ذلك النفوذ من ذلك
الرسم الذى خلفه بسلوس *Psellus* للأم التى كان يحملها (انظر
كتاب ديل : صور بيزنطية ، الحلقة الأولى ، الفصل
الحادى عشر) .

وكانت البنت تتزوج في سن مبكرة . وكان اختيار الزوج

مما تُعنى به الأسرة . وكلما كانت البنت ترى زوجها قبل الزواج على أن المرأة البيزنطية لم تكن سجيناً بيتها على أمة حال ، على الرغم من أن الحرائر المحصنات لم يكن يرتدن دور التمثيل . وما قيل عن حجاب المرأة على الغالب مبالغ فيه . وكانت نظرية الرومان الشرقيين عن السيادة لا ترى غضاضة في زواج الأمير بامرأة لا يجرى في عروقتها دمُ الملوك . بل كثيراً ما كان النسل الإمبراطوري يتقوى باختيار عروس من الطبقات المتوسطة . حتى كان الإمبراطور أحياناً ينتخب شريكة حياته من بين سرب العذارى الجميلات ، اللواتى انتقين من الولايات لتلك الغاية .

ويستطيع مؤرخ الحياة الاجتماعية للإمبراطورية المتأخرة أن يستقى مادته من عدة مصادر : يأخذ فكرة عن روح الدعابة المستهترة التى اتصف بها أهلها ، من صورة خاقان الخزر على شكل يقطنية ، هذه الدعابة التى كلفت سكان تِفْلِيس حياتهم ؛ ويُكوّن لنفسه فكرة عن صمودهم من دفاعهم عن مدن الحدود ضد فارس ؛ ويتمثل تقوى أهلها من حياة القديسين العموديين ، بينما يفيض التاريخ الدينى بطرائف أولئك « المجاذيب فى سبيل المسيح » ، فيضنى ذلك على هذا التاريخ حيوية وروحاً .

وسُعيّنه قانون الفلاح وسجلات الأديرة على تصوير حياة

القرية ، ولو على وجه الإجمال . وسيزيد كتاب « محافظ المدينة »
في حيوية الصورة التي يرسمها عن الحياة التجارية في العاصمة ،
وعن صيادى السمك وهم يرفعون إلى أصحاب الشأن في المدينة
تقارير عما اصطادوه ، وعن بائعى البضائع الكتانية المتجولين ،
وعن الفلاحين الذين يسوقون خنازيرهم إلى السوق . وستهي له
حياة ثيودور السيكيوتى *Theodore the Syceote* فرصة طيبة
لتصور التلميذ الريفى . وكذلك ستعينه حياة يوحنا المحسن على
رسم صورة لمدينة الإسكندرية في القرن السابع ، أقرب إلى الحقيقة
في نفسه . وستصور له كرامات القديس ديمتريوس حقيقة الحال
في سالونيك في القرن السابع ، كما تصور له كرامات القديس
ارتيميوس قسطنطينية القرن المذكور . وسيصور من ملحمة
ديجينيس الكريتاس *Digenis Akritas* الغزوات على الثغور
التي كانت تقوم بين النبيل المسيحى والأمير العربى . وسيلخص
له كيكومينوس *Kekaumenos* فى شيخوخته الناضجة الحكمة
الديوية فى روما الشرقية إبان القرن الحادى عشر كأنه بولونيوس^(١)
Polonius آخر .

(١) بولونيوس *Polonius* : وهو إحدى شخصيات رواية هامات
لشيكسبير .

وليتصفح القارئ أثناء ذلك سفر ملالاس^(١) ، ذلك السجل الحافل بخليط غريب من الأحداث العامة ، كما رآها واحد من اهل انطاكية ، فهو لا بد مقتبس فكرة عن الأمور التي كانت تهتم المواطنين الصالحين في الإمبراطورية الشرقية . ويستطيع الإنسان ، بشيء قليل من الخيال ، أن يضيف العناوين الناقصة ، ويبدوله النص بعد ذلك وكأنه صحيفة يوم الأحد يقرأ فيها الأحداث على نحو يحيل إليه معه أنها مختلفة اختلافاً ظاهراً

(١) يوحنا ملالاس : مؤلف بيزنطي من القرن السادس خلف لنا مدونة روى فيها أحداث التاريخ منذ أقدم الأزمنة إلى نهاية عصر جستنيان ويظن أن النسخة التي وصلتنا من هذه المدونة تنقصها أجزاء كانت تتناول المصور التي أتت بعد ذلك . والكتاب مختلط اختلاطاً شديداً تمتزج فيه الأساطير بالحقائق . وترد الحوادث الهامة الخطيرة وسط حشد من الملاحظات والأخبار التي لا قيمة لها . ولم يكتب ملالاس كتابه هذا للطائفة المختارة من أهل المجمع البيزنطي كما كانت عادة المؤلفين في ذلك الحين وإنما كتبها للجمهور من رجال الكنيسة وغيرهم . ويقول كرومباخر : « إن هذا الكتاب إنما هو دراسة تاريخية شعبية بمعنى الكلمة » . وأسلوب المؤلف يستلقت النظر لأن كتابه هو أول نص كتب باليونانية الدارجة ، وهي لهجة نشأت من امتزاج عناصر لغوية أعريقية بعناصر لاتينية شرقية . ولهذا السبب كان لكتاب ملالاس تأثير عظيم جداً في أذهان الجماهير ، وفي تاريخ التاريخ البيزنطي والشرق والصقالي .

انظر

VASILIEV : *Hist. de l'Empire Byzantin*, I, pp. 240-241.

KRUMBACHER : *Gesch. der byzantinischen Litteratur*, p. 326.

J. B. BURY : *Later Roman Empire*, II, 435.

لمطابقتها للواقع . وإلى جانب أخبار الحرب — التي تعطى بطبيعة الحال أخباراً مفصلة جداً عن الوقائع في الجبهة البيزنطية الشرقية — يرى الإنسان أخباراً مثل :

١ — افتتاح الاكتتاب لصندوق اقتداء الأسرى :
الاستجابة للدعوة بسخاء . ملالاس صفحة ٤٦١ .

٢ — عرض عجيب للشهب الثواقب . بم تنذر ؟ (ص ٤٧٧)

٣ — تمثيل عجيب يقوم به كلب لرجل إيطالي . (ص ٤٥٣)

٤ — فضيحة مروعة في الكنيسة . اتهامات مشيرة للأنفس

توجه إلى أساقفة معروفين . (ص ٤٣٦)

٥ — مقابلة لملك حبشى ، آداب السلوك السحرية في بلاط

شرقي . (ص ٤٥٧)

٦ — تجارة الرقيق الأبيض في القسطنطينية . جلالاته يتدخل

(ص ٤٤٠)

٧ — صلاة في يوم الأحد . إقرار قانون جديد (ص ٣٧١)

٨ — تسويات القانون . توقيع عقوبة بمحاميين فاسدين

تجعلهم عبرة لمن اعتبر (ص ٣٨٤)

٩ — النار في مسرح . الشموع المضيئة سبب في الحريق .

إطفاء النيران بسرعة فائقة (ص ٤٦٧)

١٠ — افتتاح حمامات جديدة . طريقة مبتكرة للتدفئة .

(ص ٣٥٩)

١١ — طرد راقصى الباليه . حُظوة خاصة تناولها هيئة

راقصى الاسكندرية . (ص ٤١٧)

١٢ — زلازل فى انطاكية . دمار سريع وخسارة فى الأنفس

(يرد هذا الخبر كثيرا) ، المذابح اليهودية . ملحوظة ابقة للامبراطور

(ص ٣٨٩)

ومن الممكن أن تطول هذه القائمة إلى غير نهاية .

وفى إمكاننا أن نتعرف سيرعطاء الدولة البيزنطية وتفاصيل
القمخامة والأبهة فى بلاطها من اى تاريخ الإمبراطورية . ولهذا
نترك ذلك وننصرف إلى ما نحن أحوج إليه من تصوير حياة
الطبقات المتوسطة ، ونظرة المواطن العادى . وقد حاول كتاب
الماضى أن يصوروها فلجأوا إلى مواعظ كريسوستوم ، وهو رجل
أخلاقى صور آثام عصره ؛ كما أنهم لجأوا أيضا إلى تاريخ
بروكوبيوس السرى ، وهو مؤلف كُتب فى ساعة من الشعور
بالنكد واليأس . وباعتمادهم على مثل هذه المصادر ، صوروا لنا
مجتمعا فاسداً رذيلاً مُترفاً منحطاً ، ومسرّحاً قد هجره أهله إلى
البذاءة ، وتعلقوا بالبهلوانيات والاستعراضات ، وعالماً كان يحيا

فيه الرهبان والراهبات حياة من الطهر المشكوك فيه ، وتشير فيه العاهراتُ الشهواتِ الدنيئة ، بلبسهن غلائل العذارى ، زاعمات أنهن وهبن أنفسهن لله . ولكن قصص القوادين والمومسات تاريخ ناقص لأية حضارة عظيمة^(١) . وتاريخ روما الشرقية أغنى من ذلك وأخصب . ومن المشكوك فيه أن تحيا إمبراطورية بالذيلة وحدها . ومن المؤكد أن الإمبراطورية البيزنطية لم تحاول أن تفعل ذلك .

(١) يريد المؤلف بهذه العبارة الأخيرة أن يقول إن الاكتفاء في تصوير المجتمع البيزنطي بذكر مساوئه التي أشار إليها إنما يكون ناحية فقط من نواحي الحياة الاجتماعية البيزنطية ، وأن صورة هذا المجتمع لا تكتمل إلا إذا ذكرنا إلى جانب ذلك المحاسن والنواحي الإيجابية . ويذهب Baynes أيضا إلى أن هذا ينطبق على كلامنا على أية حضارة .

الفصل الثالث

ثبت بأسماء الأباطرة البيزنطيين

« ماذا ! أیظل هذا النسل متلاحفا حتى ینفخ فی الصور ؟ »
ماكبث — الفصل الرابع ، المشهد الأول .

كثیر من الطلاب حين یلقون أول نظرة على قید بأسماء
حكام روما الشرقية ، یشاركون ماكبث فی ما استولى علیه من
جزع . وهذا الكتيب لا یمكن أن یمثل تواریخ الإمبراطورية
البيزنطية . على أنه قد یمكن من التیید فی البدء أن نذكر
القاری بتمایب الحكماء الذين تخذوا القسطنطينية عاصمة لهم .
فليس هذا الفصل إلا جدولاً تاریخياً أضيفت إليه تعلیقات یسيرة .

الفترة الأولى

۳۳۷ — ۵۱۸ م

أسرة قسطنطين ، ۳۲۴ — ۳۶۳ م .

قسطنطين الأول وتوفي ۳۳۷ : الجيش لا یقبل الخضوع

إلا لأبناء الإمبراطور العظيم ، وقتل كثير من أقربائه ، وأبقى على يوليان لشبابه . فانقسمت الإمبراطورية بين ،

قنسطنطيوس الثاني ٣٣٧ - ٣٦١ وبين أخويه ،

قنسطنطين ٣٣٧ - ٣٤٠ ، وقنسطانز الأول ، ٣٣٧ - ٣٥٠ ،

وقد حكم قنسطنطيوس بمفرده في ٣٥٠ . لكنه لم يتغلب على ماجنتيوس *Magnentius* الغاصب إلا في ٣٥١ في معركة مورسا *Mursa* الكبيرة بين الدراف والدانوب حيث قتل ٥٤٠٠٠ جندي روماني على ما يقال . ثم نودي بيوليان (ابن عم قنسطنطيوس) الذي كان قائد الجيش في غالة إمبراطوراً سنة ٣٦٠ خلف قنسطنطيوس المتوفى سنة ٣٦١ .

يوليان المرتد *Julian the Apostate* ، ٣٦١ - ٣٦٣ ،

قتل أثناء انسحابه من فارس ، فانتخب الجيش في الحال ،

يوفيان *Jovian* ٣٦٣ - ٣٦٤ . وعند موته تدبر الأمر

أصحاب النفوذ العسكري والمدني فانتخبوا لهم إمبراطوراً ، الجندي فالنتينيان *Valentinian* الأول (فبراير ٣٦٤ - ٣٧٥) الذي أشرك معه أخاه فالنس *Valens* في الحكم في مارس وجعله حاكماً على الشرق .

فالنس ، ٣٦٤ — ٣٧٨ ، سقط وهو يقاتل القوط في معركة أدرنة ٣٧٨ ، فجعل جراتيان *Gratian* (بن فالنتينيان) الذى كان حاكماً على الغرب القائد الإسباني ثيودوسيوس شريكاً له فى الحكم ، وولاه أمر الشرق .

الأسرة الثيودوسية ، ٣٧٩ — ٤٥٧ م :

ثيودوسيوس الأول الكبير ، ٣٧٩ — ٣٩٥ (امبراطور الشرق والغرب منذ ٣٩٢) ، وعند وفاته تولى ابنه هونوريوس (٣٩٥ — ٤٢٣) أمر الغرب وتولى أمر الشرق ابنه ،

اركاديوس ، ٣٩٥ — ٤٠٨ الذى خلفه وعمره ٧ سنوات ابنه ،

ثيودوسيوس الثانى ، ٤٠٨ — ٤٥٠ . وكان الحكم الفعلى

من ٤٠٨ — ٤١٤ فى يد انثيمىوس *Anthemius* رئيس الحرس .

وفى ٤١٤ أصبح زمام الأمور فى يد پولسكيرا *Pulcheria* أخت

الإمبراطور . ثم استطاعت إيدوخيا *Eudocia* زوج ثيودوسيوس

الثانى الأثينية أن تثبت نفوذها مدة من الزمن (٤٣١ — ٤٤١) .

ومنذ سنة ٤٤١ حتى قبيل وفاة ثيودوسيوس الثانى ببضعة

أشهر أصبح خريسافىوس *Chrysaphius* الخصى سيداً فى

القسطنطينية . وبعد وفاة الإمبراطور تزوجت پولسكيرا الجندى

المحكّ مارقيان التراقي ، فأُنعمت عليه بالعرش .
مارقيان *Marcian* ، ٤٥٠ — ٤٥٧ . لم يعبّن عند وفاته
خليفة له . واسكن السيد المطاع المتسلط على الجند ، آلان أسپار
Alan Aspar ، الذى كان نفسه اريوسيا ، ولهذا محروماً من
العرش ، انتخب ليو ، القائد العسكرى الداشى (من إقليم
داشيا) ، امبراطوراً .

١- سنة ليو ، ٤٥٧ — ٥١٨ م

ليو الأول ، ٤٥٧ — ٤٧٤ م . مال نحو الايسوريين
ليتخلص من أسپار وكتائبه القوطية ، فزوج ابنته أريادنة من
تاراسيكوديسا *Tarasiodissa* الذى كان يسمى زينون (٤٦٨)
ثم قُتل أسپار (٤٧١) فخلف ليو حفيده من ابنته أريادنة
ليو الثانى ، ٤٧٤ م ، الذى جعل أباه زينون شريكاً له .
ووفاته تفرّد أبوه ،

زينون ، ٤٧٤ — ٤٩١ م . حين توفى سنة ٤٩١ م ، لم يكن
قد تعيّن من يخلفه اقتداءً بما سُنّ من قبل فى ٤٥٠ ؛ وقع اختيار
أريادنة على اناستاسيوس من دراخيوم . وكان هذا أحد حراس
القصر . وقيل تعيينه امبراطوراً كان مرشحاً لأسقفية انطاكية .

أناستاسيوس Anastasius ٤٩١ — ٥١٨ . لم يُعقَّب .

الفترة الأولى

٣٣٧ — ٥١٨

يُعد حكم ثيودوسيوس مركز الدائرة في تاريخ هذه الفترة ؛ فهو الذى أسس الحكومة التى كانت ديانتها الرسمية المسيحية الأرثوذكسية . وأبطل فكرة التسامح مع الوثنيين ، بينما توصل فى سياسته الخارجية إلى عقد صلح مع فارس ، وضع به حداً لتلك الحروب المستديمة على الحد الشرقى ، لمدة تزيد على قرن . وقد أقام القرن الرابع الدليل القاطع على عدم كفاية القوات الدفاعية الصغيرة ، التى كانت ترابط على حدود الدولة . حتى لقد اضطر قسطنطينوس أن يستدعى كتائبه من غالة لتحمل الولايات الآسيوية . وعلى الرغم من انتصار يوليان المرتد فى المعركة العظيمة عند استراسبورج (٣٥٧ م) ، وعلى الرغم من جهود البطولة التى بذلها فالنتينيان ، امبراطور الحدود ، أصبح من الجلى أن حداً كالراين لا يستطيع الوقوف فى وجه الغزو الجرمانى دائماً . وإذا كان القرن الرابع قد شهد فى الغرب صُنع القبائل البربرية بالصيغة الرومانية ، فقد شهد أيضاً انصباع الثقافة الرومانية

بالصبغة البربرية . وقد كان كسر القوط للجيش الامبراطورية ،
تلك الكسرة المنكرة في معركة أدريّة ، يحمل في ثناياه النبوءة
بنصر مشابه للقوط في الشرق . لقد أزاحت بطولة ثيودوسيوس
الكبير وحفكته السياسية شبح ذلك الخطر مدة من الزمن . وكانت
أرمينية ، طيلة القرن الرابع ، اللقمة التي تتنازعها فارس وروما ،
كما كانت روسيا وانجلترا تتنازعان أفغانستان في القرن التاسع
عشر : وكانت عواطف النبلاء الارمن تتجه صوب فارس ، وتحقيق
ثيودوسيوس ، الذي كان أعقل من نقاده المحدثين ، أن بقاء ارمينية
ولاية مستقلة ، كان يقتضى نمناً غالياً من حرب لا يحمّد أوارها
على الحدود . لذلك وافق على إمضاء معاهدة تقسم بها تلك الولاية
بين الإمبراطوريتين . ولما كان أسبارحين وفاة مارقيان مع
كتائبه من قوط وآلان يوشك أن يلعب الدور الذي مثله
ريكمير في الغرب ، فقد أشرك ليوا الأول الايسوريين في الحكم
واستطاع أن يضرب ، وأن يحكم الضربة ، حين لم يكن ثمة
خطر من فارس يعرقل سعيه . وقد حمى الايسوريون الشرق من
السيطرة البربرية . ولما أدوا واجبهم أبعدهم اناستاسيوس من
العاصمة . لقد تنصّرت « روما الجديدة » ملكة المدن ، وبقيت
رومانية رغم ذلك .

ومع أن السلام بين الامبراطورية البيزنطية وفارس قد استتب ، إلا أن موقفها ظلّ دفاعياً لأن الهون (الفنيون الاجريون *Finno-Ugrian*) كانوا يعيشون فساداً في أراضي الدانوب . وأنتم كورش ، محافظ القسطنطينية ، أيام ثيودوسيوس الثاني ، بناءً ذلك الحاجز الضخم من التحصينات الداخلية . هنالك بُنى « سور حقا وصدقا » كما عبرت عن ذلك الكتابة التي نقشت لتُخلّد ذلك العمل العظيم . وقد تم ذلك العمل على خير ما يرام حتى إن سادة روما الشرقية لم يروا مدينتهم تسقط في أيدي العدو إلا بعد أربع حملات مقدسة .

أما في الميدان الديني فكانت إعادة يوليان المرتد للوثنية ، تلك العودة القصيرة الأجل ، برهانا على أن ذلك المذهب المندرس لم يعد منافسا ترهب المسيحية جانبه . بل كان الخوف أن تنقسم الكنيسة ، التي أمدّت الإمبراطورية بحياة جديدة ، إلى شطرين بسبب الاختلافات اللاهوتية .

كان انتصار الارثوذكسية التي وفق اثناسيوس *Athanasius* آخر الأمر لتحقيق نصرها في الواقع ، أسراً لا سرية فيه . ولكن اثناسيوس كان بطريقا في الإسكندرية . ومنذ ٣٨١ — ٤٥١ كانت القسطنطينية والإسكندرية تتنازعان السيادة الدينية منازعة

صريّة متزايدة . وفي مجمع خلقيدونية ٤٥١ م انتهى الكفاح بانتصار القسطنطينية . ولكن التعريفات التي حاول الآباء وضعها للارثوذكسية كانت سببا في تجدد النزاع .

ولما انتصرت المسيحية في سوريا ، أُنشئت أديا سوريا وشيثا قريبا من الشعور القومي ، بينما كان المصريون دائما شعبا ذا قومية . وفي عصر ديني كهذا لم تجد القومية وسيلة للتعبير عن نفسها إلا بالمروق عن العقيدة المقررة . فقال رجال الإسكندرية بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، وناوأوا بذلك القول بالطبيعتين الذي أقره مجمع خلقيدونية . كيف كانت الكنيسة الشرقية تستطيع أن تجمع بين القومية السورية والمصرية وتبقى مع ذلك على وفاق مع روما ؟ تلك كانت هي المشكلة التي عكرت عهد زينون واناستاسيوس ، حتى استسلم هذان أخيرا لمشية الشرق ، فانقسمت العرى التي كانت تربطهما بالغرب (انظر الفصل الخامس) .

الفترة الثانية

٥١٨ — ٦١٠ ب . م

اسرة جستينيان ٥١٨ — ٦٠٢ م :

جستين Justin الأول : ٥١٨ — ٥٢٧ م . لما أعطى
الخصيُّ أمانتيوسُ الذهب لذلك الإلّيري الأُمّيّ — جستين —
قائد حرس القصر ، ليستخدمه في تأمين العرش لابن أخى
أمانتيوس ، استغلّه جستين ليستميل إلى نفسه قلوب الجند ،
وبذلك نودى به امبراطوراً . وكانت الحكومة فعلا في يدى
ابن أخيه .

جستينيان الأول : ٥٢٧ — ٥٦٥ م الذى خلفه ابن أخيه ،
جستين الثانى : ٥٦٥ — ٥٧٨ . وهذا لم يلبث أن أصابته
لؤة ؛ فرقى جستين الثانى فى فترة من فترات الصفاء الذهبى
طيباريوسَ ، رئيس حرس القصر ، إلى رتبة القيصر (ديسمبر
٥٧٤) وتوجّه قبل وفاته امبراطوراً .

طيباريوس الثانى ، ٥٧٨ — ٥٨٢ م . وفى سنة ٥٨٢
عقد طيباريوس الثانى للقائد موريس على ابنته ، وقبل وفاته
يوم واحد توجّج موريس امبراطورا .

موريس ، ٥٨٢ — ٦٠٢ م نَحَاهُ ثُمَّ اغْتَالَهُ فَوْقَاسُ الْمُتَبَرِّبِرِ
الْجَلْفُ الَّذِي تَزَعُمُ تَوْرَةَ نَشَبَتْ بَيْنَ الْجَيْشِ الْمُرَابِطِ عَلَى الدَّانُوبِ .
فَوْقَاسُ ، ٦٠٢ — ٦١٠ م .

الفترة الثانية

٥١٨ — ٦١٠ ب . م

المظهر البارز في هذه الفترة هو محاولة جوستنيان أن يستعيد
لروما ما انتزعه البرابرة من أراضيها ، وأن يجعل إرادة الحاكم
المطلق هي القانون الأوحد في الإمبراطورية المستعادة . فانتزعت
إفريقية من أيدي الوندال ، وإيطاليا من القوط . وأقيمت في
اسبانيا ولاية رومانية عاصمتها قرطبة كانت تعلن تحقق أحلام
جستنيان . وحطمت في العاصمة قوة حزبي الملعب المتنافسين .
واعترفت الكنيسة بصاحب القسطنطينية ملكا -- كاهنا ،
وأعيدت الروابط بينها وبين روما . ونشأت كنيسة جديدة
للحكمة المقدسة ، فكانت إشارة ورمزاً من رموز الأبهة التي
بذت أبهة سليمان نفسه .

ومع ذلك فإن نجاح جستنيان كان نذيراً بالويل لأنه قام
على متناقضات غير مؤتلفة — كان الإمبراطور يتلهف رغبة إلى

إصلاح نظام الحكم وإلى تخفيف الأعباء والحيف عن سكان الولايات ؛ وكان معنى ذلك إنقاص الضرائب ، وهذا يؤدي إلى تدهور خزانة الدولة وعدم توفر المال الضروري يومئذ لاستعادة البلاد التي انتزعت من الإمبراطورية ، والدفاع عن الحدود المهددة ، وللقيام بمشاريعه العمرانية العظيمة ، في حين أنه كان لا بد للدولة يومئذ من الأموال الجزيلة . وهكذا اضطر جستنيان أن يتغاضى عن الاغتصاب العلني الذي كان يقوم به وزير مالهته البغيض ، يوحنا الكابادوكي . ثم لم يكن هناك مندوحة للكنيسة الشرقية عن التصافي مع كنيسة روما لنجاح الفتوحات الجديدة في إيطاليا . غير أن الاعتراف بمبادئ مجمع خلقيدونية كان معناه مجابهة سوريا ومصر بالعداء ، لأنهما كانتا تقولان بالطبيعة الواحدة . ومعنى هذا أنه لم يكن هناك مفر للإمبراطور من تضييع ولاء الشرق له إذا أصرَّ على كسب الغرب . أضف إلى ذلك أن الإمبراطور الذي ترعرع في ولاية تتكلم اللاتينية ، كان يرى في نفسه رسولاً يبشر بالفسكرة الرومانية القديمة عن الإمبراطور الذي يجمع للناس الشريعة الرومانية ويصوغها في قالب قانون متناسق ، ويناصر استعمال اللغة اللاتينية . هذا بينما كان الغرب والشرق قد أخذوا يعجزان تدريجاً عن التفاهم فيما

بينهما . وأخذ الشرق يغدو في الفكر والعاطفة إغريقياً . وقد كان من الممكن لولايات الدانوب أن تكون حلقة الوصل بين ذينك العالمين لولا أن قبائل الصقالبة والبلغار كانت قد اجتاحتها ، بل لعل الطبيعة نفسها قاومت جستنيان : فقد كان في حاجة إلى مدد دائم من الجند لجيوشه . لكن طاعوناً اكتسح الإمبراطورية في سنة ٥٤٢ م وما تلاها من السنين ، فجرف معه أولئك الذين لو قدّر لهم أن يعيشوا لحاربوا في سبيل الإمبراطورية . وبذلك حدث النقص في الرجال من نشاط جستنيان العسكري .

وقصارى القول ، إن موارد الامبراطورية ناءت بأعباء المهمة التي ألقاها جستنيان على عاتقها . وحاول جستنيان الثاني أن يقتفى خطوات عمه ، فزح عقله تحت ذلك العبء الفادح . وهجر طيباريوس سياسة جستنيان ، إذ كانت الامبراطورية عاجزة عن خوض لجة الكفاح في جبهتين — كانت عاجزة عن أن تصد تيار الصقالبة والآفار المتدفق على الولايات الأوروبية ، وأن ترفع رأسها في الوقت عينه مُتَحَدِّيةً التعرش الفارسي الجديد . لقد كان قلب الإمبراطورية في آسيا ، فكان لا بد من سلامة آسيا بأى ثمن . وكانت نتيجة ذلك أن وقعت إيطاليا غنيمه باردة في أيدي اللومبارد ، واحتل البرابرة أراضي الدانوب . ولما أسعف الحظ

الباسم مورييس إلى أن يعقد معاهدة صلح مع فارس (٥٩٠)
وجه همه مرة ثانية إلى الدفاع عن التخوم الشمالية . ولكن
الجيش رفض أن يتحمل مضانك الحملة ، ففقد مورييس بذلك
عرشه وعمره . وتلت ذلك فترة من الغزوات الفارسية والتخريب
البربرى والحرب الأهلية جعلت إقليم رومانيا *Roumania* أيام
فوقاس على شفا الخراب . ولم تنج الإمبراطورية مما كان يهددها
إلا بقيام ثورة في إحدى الولايات .

الفترة الثالثة

٦١٠ — ٧١٧ م . ب . م .

أسرة هرقل :

أنزلت فوقاس عن عرشه حملة من ولاية إفريقية يقودها ،
هرقل ، ٦١٠ — ٦٤١ م . أنجب من زواجه الأول ابناً
اسمه قنسطنطين (الثالث) . وأنجب من زواجه الثانى من ابنة
عمه مارتينه ، ابناً يدعى هرقلليوناس *Heracleonas* (وتزوج
عام ٦٣٨ م) وأبناء آخرين وهكذا خلفه ،

قنسطنطين الثالث ٦٤١ م { شريكين فى الحكم ، ولكن
وهرقلليوناس ٦٤١ م { الجيش أبى أن يخضع لحكم

مارتينه . فلما توفي قنسطنطين الثالث بذات الصدر ، اضطر هرقليوناس أن يتوج ابن أخيه قنسطانز ، حفيد هرقل الأول ، امبراطوراً في سبتمبر من هذه السنة . وأقصى هو وأمه عن العرش في أواخر سبتمبر من نفس السنة . وأصبح قنسطانز الثاني ، ٦٤١ — ٦٦٨ م امبراطوراً متفرداً بالسلطة . وقتل قنسطانز في صقلية خلفه ابنه ،

قنسطنطين الرابع ، ٦٦٨ — ٦٨٥ م الذي خلفه ابنه ، جستنيان الثاني ، ٦٨٥ — ٦٩٥ وعمره ست عشرة سنة . كرهه الشعب لاستبداده وظلمه ، فعزله سنة ٦٩٥ م قائده في الشرق ليونتيوس ، ونفى إلى خرسون .

مستفيانه في المنفى :

ليونتيوس ، ٦٩٥ — ٦٩٨ م أسقط عن العرش حين ثار بحارة الأسطول في كريت ، ونصبوا نائب أميرال البحر أفسيمار *Apsimar* ، فأصبح هذا امبراطوراً باسم

طيباريوس الثالث ٦٩٨ — ٧٠٥ م ، غير أن جستنيان استطاع في سنة ٧٠٥ م أن يعود بمساعدة الزعيم البلغاري ترَبل *Terbel* .

جستنيان الثاني ٧٠٥ — ٧١١ م . ثارت خرسون خوفاً
من طغيان جستنيان بقيادة ضابط أرمني اسمه فيليبكوس باردانس
Philippicus Bardanes ، وانضم إليها الخزر في ثورتها ، ثم
أرسل إلى خرسون أسطول انحاز إلى جانب الثائرين . وتغلب
رجال الجيش عن جستنيان الثاني ثم قتلوه .

نزهة القوة الإمبراطورية :

باردانس ، ٧١١ — ٧١٣ م . أدى عدم نجاحه إلى تنصيب
وزير الدولة المدني ،

أناستاسيوس الثاني ، ٧١٣ — ٧١٦ م . ولكن محاولته
في سبيل إعادة النظام في الجيش أغرت فرق الولاية الثغرية ،
(انظر الفصل الثامن) — ولاية أوبسكيون *Opsikion* — أن
تنادى بموظف مغمور من موظفي الولايات امبراطوراً وذلك هو
ثيودوسيوس الثالث ٧١٦ — ٧١٧ م . ولكن الخلاص جاء
بتولى ولاية الأناضول الثغرية المدعوليو الإيسوري (أو الإيزوري
Leo the Isaurian كما يسمى عادة) .

الفترة الثالثة

٦١٠ — ٧١٧ م

أبحر هرقل من إفريقية ، حيث كان العنصر اللاتيني أقوى من غيره ، لكي يخلص الإمبراطورية الرومانية . وقد كانت السفرة في نظره عملاً دينياً ، ولا عجب فقد كانت للدين طيلة حكمه المنزلة الأولى . وكانت الكنيسة تعضده بجملة من حربه لعباد النار ، تلك الحرب التي توغل فيها إلى قلب فارس . وبعد ست سنوات من الحملات المتتالية أحرز نصراً مؤزراً كاملاً . ولكن صحته كانت قد تدهأت ، وكان الجذب في تلك الأثناء قد أخذ يسوق القبائل العربية التي وحدتها لأول مرة في حياتها ، عقيدة مشتركة ، وبيعها من الجزيرة نحو الأراضي الخصبة . وانتزعت جيوش المسلمين فلسطين وسوريا من جسم الإمبراطورية ، وبعد سنوات قليلة فقدت الإمبراطورية مصر أيضاً . تلك كانت لحظة مهمة في التاريخ البيزنطي ، فإن الجزء الذي بقيت روما تحتفظ به كان موئلاً الأرثوذكسية ، بينما كانت البلاد التي فقدتها مثابة المونوفيزية ، ولم تعد الكنيسة الشرقية في حاجة إلى أن تسترضي أهل المذاهب المخالفة . وبهذا أصبحت الدولة أرثوذكسية كنيسة

ودولة ، وارتبطت الدولة والكنيسة من الآن فصاعدا ، وأصبحتا وحدة لا تتجزأ .

وبهذا غلبت على شرق البحر الأبيض المتوسط حوالى منتصف القرن السابع تلك الخصائص التى ستغلب على سير التاريخ البيزنطى . فقد اعترف الصقالبة ، بعد أن تحرروا من أسياهم الآفار ، بسيادة الإمبراطورية ، واكتسحوا ولايات الدانوب متوغلين فى يونان ، شاقين طريقهم إلى جزر إيجه . ووقع أكثر إيطاليا فى أيدي اللومبارد ، وأصبح البابا فى العاصمة القديمة قادراً على أن يحمل محل الأباطرة الذين لم يعد لهم هناك وجود . ومع أن قنسطانز حاول أن يجعل من جنوبى إيطاليا وصقلية حصناً قوياً لصد تقدم العرب فى الغرب ، إلا أن خلفاءه لم ينجحوا نهجه فى هذا السبيل . لقد أصبح قلب الإمبراطورية فى آسيا — فى بلاد تتكلم اليونانية . وقد زالت العداوة بين فارس والقسطنطينية ، تلك العداوة التى ورثتها القسطنطينية من روما القديمة ، لتحل محلها عداوة الإسلام التى بقيت ما بقيت الإمبراطورية . ومن هنا يبدأ التاريخ البيزنطى متميزاً مستقلاً . ويرجع ما أحرزته أسرة هرقل من مجد إلى أنها تلقت أول ضربات الغزو العربى ، وأوقته جنوب سلسلة طوروس . فلما

توجه العدو بهيمته إلى البحر صددت العاصمة كل هجماته . ولم تمض سنة في الفترة بين ٦٧٣ — ٦٧٧ م دون أن يبحر معاوية من قاعدته البحرية في قيزيقوس *Cyzicus* ^(١) ، وكان يعود في كل سنة مغلوباً على أمره حتى اضطر إلى عقد صلح سنة ٦٧٨ م . وقد سقطت ولاية إفريقية في أيدي المسلمين سنة ٦٩٧ ، وأسس إسبرخ *Isperich* مملكة بلغارية بين الدانوب والبلقان ؛ ولكن القسطنطينية ظلت صامدة تحمي أوروبا ، وتحفظ المدينة وراء أسوارها . وفي تلك الفوضى التي تلت سقوط الأميرة الهرقلية بدا كأن الحصن المنيع يكاد ينهار ، ولكن التخاذل طرح جانباً — مرة أخرى — وتولت دفعة الدولة المهددة يد قوية .

الفترة الرابعة

٧١٧ — ٨٦٧ ب . م

الأسرة البسورية (المايغونيدون) ٧١٧ — ٨٠٢ م

ليو الثالث ، ٧١٧ — ٧٤١ ، خلفه ابنه ،

قسطنطين الخامس ، ٧٤١ — ٧٧٥ م . خلفه على العرش ابنه

(١) تقول المصادر العربية إن الأسطول العربي احتل جزيرة تسمى أرواد قرب القسطنطينية سنة ٥٤ هـ بقيادة جنادة بن أبي أمية . وهذا ينطبق على ماتسميه المصادر الأجنبية جزيرة قزيقوس الواقعة على بحر مرمره شمال آسيا الصغرى .

ليو الرابع ، ٧٧٥ - ٧٨٠ م . تولت أرملته إيريني *Irene*
أمر الحكومة بعد وفاته وصيّة على ابنها الصغير ،

قنسطنطين السادس ، ٧٨٠ - ٧٩٧ م . ومع أن الجنود
أجبروها أن تتنازل عن الحكم سنة ٧٩٠ م ، إلا أن قنسطنطين
أعادها إلى الحكم سنة ٧٩١ م . وفي سنة ٧٩٧ م خلعت ابنها
وسمّلت عينيه ، وأصبحت إمبراطورة بلا شريك في الحكم .
إيريني ٧٩٧ - ٨٠٢ م . خلعت عن العرش بمؤامرة
دبرها ضدها الموظفون الكبار سنة ٨٠٢ وخلفها صاحب خزينة
الامبراطورية نففور .

نهاية الأسرة الابسورية :

نففور *Nicephorus* ، ٨٠٢ - ٨١١ م . سقط وهو يقاتل
البلغار . أما ابنه ،

ستوراكيوس *Stauracius* ، ٨١١ م ، فقد نجح من المعركة
بجرح بليغ . وعيّن إمبراطوراً حماء ،

ميخائيل الأول ، ٨١١ - ٨١٣ م . كان انكساره أمام
جموع البلغار على الأرجح بسبب خيانة القائد الأرمني الذي
خلعه واعتلى العرش باسم ،

ليو الخامس ، ٨١٣ - ٨٢٠ م . قتل ليو عند المذبح

سنة ٨٢٠ م . فولى الأمر رجل جاف من أبناء الولايات أصله من عُموْرِيَّة في فريجيا العليا . وكان حينئذ قائدا للحرس .

الأُسرة الفريجية ٨٢٠ — ٨٦٧ م :

ميخائيل الثانى ، ٨٢٠ — ٨٢٩ م . خلفه ابنه المثقف ،
ثيوفيلوس ، ٨٢٩ — ٨٤٢ . تسلمت أرملة ثيودورا الحكم
بعد وفاته وصية على ابنها الصغير ،

ميخائيل الثالث ٨٤٢ — ٨٦٧ م . كان من المقرّبين إليه
باسيل المقدونى . وقد قضى هذا برغبة من الامبراطور على قيصر
برّداس *Cæsar Bardas* أخى ثيودورا ، ذى الحول والطول سنة
٨٦٦ م ، وأصبح قيصر فى تلك السنة ثم تكفل بقتل الإمبراطور .

الفترة الرابعة

٧١٧ — ٨٦٧ م

فى السنة الأولى من حكم ليو بدأ العرب هجومهم الشديد
على القسطنطينية وعسكر مسئلة (بن عبد الملك) أمام المدينة
بجيشه البرى فى أغسطس ٧١٧ م . وظهر الأسطول بقيادة سليمان
فى سبتمبر . وقد ظل الحصار مستمرا على الرغم من قسوة ذلك
الشتاء قسوة شاذة حتى اضطر المهاجمون المغلوبون على أمرهم أن
يفكوا الحصار فى أغسطس ٧١٨ م . ولم تقع أوربا مرة أخرى

في خطر ساحق كهذا من جراء هجمات العرب . ذلك أن الأزمة العصبية وجدت لها الرجل القادر على الصمود لها .

ولا ينسى مؤرخو الكنيسة مع ذلك أن ليو كان أول محطى الصور (انظر الفصل الخامس) كما أن أصحاب « المَدَوَّات » من الرهبان لم يصفحوا عنه أو عن خلفائه . ولكنهم — مع ذلك — لا يستطيعون أن يتجاهلوا أن كثيرين من محطى الصور كسبوا حب رعاياهم فضلاً عن احترامهم . وقد بقي النزاع أكثر من مائة سنة ، فأعادت إيريني الصور المقدسة مؤقتاً . ويرجع الفضل في إحراز النصر النهائي لعباد الصور ٨٤٣ م لامبراطورة أخرى هي ثيودورا ، التي كانت وصية على ميخائيل الثالث . وهكذا تعلق النصر في هذه الخصومة بلواء الرهبان والنساء . ولكن التاريخ اليوم قادر على أن يحكم على أهداف محطى الصور وعلى جهودهم حكماً أقل ميلاً إلى الهوى عن ذي قبل . فنحن نرى اليوم أنهم خدموا روما جهد طاقتهم . فحى ليو أوروبا ، وتغلب قنسطنطين الخامس على البلغار ، وأصلح نقفور مالية الدولة ، وحاول ثيوفيلوس أن يشيع العدالة بين الناس . وربما استطعنا أن نعبر الفن المعماري الذي نشأ على أيدي محطى الصور أساساً قام عليه جاه الأباطرة الذاهبين ؛ وربما وجدنا في تصاويرهم تصويراً للذائد الإنسانية

والأبهة الدنيوية . ولكن ينبغي علينا أن نحيط فلا نفسر عداءهم
للصور المقدسة بأنه كان ناشئاً عن كراهية للفن نفسه .
وبالاختصار ، لقد أولى محطمو الصور الإمبراطورية تنظيمها مدنياً
وعسكرياً (انظر الفصل السابع) وجعلوا القانون الروماني يسد
حاجات عصرهم حين نزلوا على حكم العادة والعرف (انظر الفصل
الحادى عشر) وبذلوا كل ما فى وسعهم ليكبحوا من جماح
الخرافات ، وايجلّصوا السلطة المدنية من سلطان الرهبان ذوى
الأفق الضيق ، على الرغم من إخلاصهم وتفانيهم (انظر الفصل
الخامس) وينبغي أن يرفض التاريخ ما زعمه الرهبان فى مدوّناتهم
بهذا الصدد .

الفترة الخامسة

٨٦٧ — ١٠٥٧ م

الأسرة المفرونية :

باسيل الأول ، ٨٦٧ — ٨٨٦ م خلفه إبنه
ليو السادس ، ٨٨٦ — ٩١٢ م مع أن أبوتّه ليو السادس
والاسكندر ، ٨٨٦ — ٩١٣ م مشكوك فيها . ولم يحكم
الاسكندر — شريكه الإسمى — فعلاً لأنه وهب نفسه للذائد .

ولكنه أصبح وصياً على ابن ليومدة سنة واحدة بعد وفاة الأخير .

قنسطنطين السابع (پورفيروجينيتوس Porphyrogenitus)

٩١٢ — ٩٥٩ . وقد نَصَّبَ زوج أمه رومانس الأول

(ليكاپينوس Lecapenus) إمبراطوراً معه .

رومانس الأول ، ٩١٩ — ٩٤٤ . ولكن أبناء رومانس

ساعدوا على عزل أبيهم سنة ٩٤٤ م فخلف قنسطنطين السابع ابنه ،

رومانس الثانى ، ٩٥٩ — ٩٦٣ الذى حكمت بعده أرملته

ثيوفانو وصية على طفليه :

باسيل الثانى ، ٩٦٣ — ١٠٢٥ م .

قنسطنطين الثامن ، ٩٦٣ — ١٠٢٥ م والمتفرد بالعرش من

١٠٢٥ — ١٠٢٧ م . وفى سنة ٩٦٣ م تزوجت ثيوفانو من نقفور

فوقاس الذى حكم باسم ،

نقفور الثانى ، ٩٦٣ — ٩٦٩ م حتى تأمر عليه الضباط

وعزلوه عن الحكم خلفه ،

يوحنا الأول تسيميسكيس John I Tzimiskes ٩٦٩-٩٧٦م

الذى حبس ثيوفانو فى دبر . ولما مات قنسطنطين الثامن ١٠٢٨م

لم يعقب ذكوراً بل ترك ثلاث بنات هن : ايدوكسيا Eudoxia

الراهبة ، وثيودورا التي لم يكن لها رغبة في الزواج ، وزُوى Zoe ،
وطلق رومانس ، عضو مجلس الشيوخ ، عملاً بشروط وصيّة
قنسطنطين الثامن ، امرأته ، وتزوج من زوى ، وأصبح
امبراطوراً باسم

رومانس الثالث ، ١٠٢٨ — ١٠٣٤ م . وبعد وفاته
تزوجت زوى من عشيقها البفلاجوني — ميخائيل — الذي
ارتقى إلى العرش باسم

ميخائيل الرابع ، ١٠٣٤ — ١٠٤١ م . وأصبح ابنُ أخته
ميخائيل قيصرًا . وحين توفي ميخائيل الرابع جعلته زوى
امبراطوراً باسم

ميخائيل الخامس ، ١٠٤١ — ١٠٤٢ . ولما سجن التي أولته
جميلاً ، ثار عليه أهل القسطنطينية ونادوا بالأميرتين الباسيليتين
زوى وثيودورا سنة ١٠٤١ ، حاكتين . وقبل أن يمضى
على ذلك شهران تزوجت زوى — وكانت قد بلغت من العمر
اثنين وستين — مرة أخرى ، ومنحت التاج بيدها لقريبها

قنسطنطين التاسع منوماخوس ، ١٠٤٢ — ١٠٥٤ ، وتوفيت
هي سنة ١٠٥٠ . ولما توفي قنسطنطين تفردت بالحكم ثيودور

آخر الأميرات اللاتى « وُلدن فى الأرجوان »

ثيودورا ١٠٥٤ — ١٠٥٦ . رشحت قبل وفاتها القائد ،

عضو مجلس الشيوخ ،

ميخائيل ستراتيوتيكوس *Michael Stratiotikos* امبراطوراً

١٠٥٦ — ١٠٥٧ م .

الفترة الخامسة

٨٦٧ — ١٥٠٧ م

فى سنة ٨٠٠ م توج البابا شرلمان فى روما . ومنذ ذلك التاريخ أصبح هناك امبراطور يقان مسيحيان . ومع أن امبراطور الغرب كان يرغب على الأرجح أن يعيش فى وئام مع أخيه امبراطور روما الشرقية ، إلا أن عاملاً جديداً بالغ الأهمية كان قد أدخل فى السياسة الأوربية — كان للغرب رئيس دنيوى ، ورئيس دينى ، وهما البابا والامبراطور ؛ فأتحدوا ضد الامبراطور والبطريق ، وأخذ يزداد شعور الشرق والغرب بأنهما عالمان منفصلان ؛ واستطاع فوتيوس *Photius* بطريق القسطنطينية أن يجعل من نفسه أعظم شخصية خلال عصر محطى الصور وعصر الأسرة المقدونية . وكان شخصية قديرة ، لم يقف أثرها عند

إيقاع الانشقاق بين روما القديمة والجديدة ، ولكنه وضع أسس الاختلاف التي كانت سببا في الانقسام النهائي ١٥٠٤ م^(١) . وكانت أوروبا في هذه القرون جاهدة دائبة . ويستطيع الناظر أن يرى أن شقة الخلاف بين الشرق والغرب كانت تزداد اتساعا خلال ذلك العصر بالرغم من كل شيء . وخاض صقالبه الغرب في ذلك الكفاح الذي قام به الصقالبه المنتصرون ليحتفظوا لأنفسهم بمراسيم دينهم القويم معركة خاسرة . فقد انتصرت الكنيسة الرومانية بطقوسها اللاتينية ، بينما انحازت بلغاريا النصرانية — بعد تردد قصير — إلى الجانب الشرقي (انظر الفصل الرابع عشر) . ولم يعد الشرق والغرب يتصلان إلا بطريق السفراء — وقبلما حدث ذلك . فانقطعت روابط الحياة المشتركة بينهما . وأصبح البلاط البيزنطي يجعل للعالم الصقالبى المسكان الأول من الأهمية . أما ما يقع خلف مملكة البلغار من ناحية الغرب ، فقد كانت بلادا لا يصل إليها مدى بصره . وكان قسطنطين الذى ولد فى المهد الأرجوانى يسمى أمراء بافاريا

(١) يشير المؤلف هنا إلى حادث انفصال الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية عن الكنيسة الغربية الكاثوليكية انفصالا تاما على يد كيرولاريوس Cerularius بطريق القسطنطينية سنة ١٠٥٤ ، حين أعلن أن الكنيسة البيزنطية لا ترتبط بشيء من علاقات التبعية والخضوع للبابوية فى روما .

وسكسونيا حكاما على ما يسمى بلاد النيمتز *Nemitz* — وهو الاسم الذى كان يطلقه الصقالبة والمجر على الجرمان .

ويعتبر النصف الثانى من القرن التاسع فترة عودة إلى القديم . فقد كان محطمو الصور مجدّدين مبتدعين فى حين عملت هذه الأسرة على جمع ما يمكن حفظه من تراث روما . واكتسبت من ذلك التراث قوة جديدة . كما أُعيد قانون جستنيان . فالمعرفة قوة . ولذلك جمع قنسطنطين السابع — الإمبراطور الموسوعى — القوانين التى قامت عليها عظمة روما ورتبها . وكان جهاد الأبطال الذى واجه به حكام أرمينية البغريون *Bagratid* قوى الإسلام ، قد مهد الطريق (أمام حكام القسطنطينية) . فلما تولى الحكم حكام عسكريون بالطبع من أمثال نقفور فوقاس ويوحنا تسيمسكيس ، حدث أكبر تقدم ملموس . إذ انتزعت سوريا والجزيرة العراقية من أيدي المسلمين ، حتى لقد استرجعت انطاكية نفسها ، ووصلت الإمبراطورية البيزنطية إلى أبعد حدودها . ثم إن باسيل الثانى ، الذى قاتل البلغار فى حرب طويلة الأمد هدم أركان المملكة التى بناها التزار صمويل العظيم من قبل . وفى سنة ١٠١٤ م سملت أعين خمسة عشر ألف بلغارى إلا مائة وخمسين ، أبقي على عين واحدة لكل منهم ليعودوا بجماعتهم إلى

وطنهم . ومُحمَّد فلاديمير أمير كييف ، وبدأ تنصير روسيا .
فلما توفي باسيل أخذت عظمة روما تتقهقر ، وأخذت الدولة
تُحارب قوة المقاطعات الأرستقراطية ، وتُحارب كنيسة كانت
دائبة على اقتطاع الأرض لأديرتها ، والحصول على إعفاء تام
لهذه الأرض من دفع الضرائب . ولكن جهود الدولة ذهبت
دون جدوى . وأخذت البطانة في البلاط تُجاهد المحافظة على
قوتها ضد نبلاء آسيا العسكريةين بالتقليل من قوة الجيش ، مما
أدى إلى إضعاف قوة روما^(١) الدفاعية . ولذلك يصطبغ التاريخ
الداخلي للإمبراطورية في القرنين الحادى عشر والثانى عشر
بصبغة الكفاح بين العاصمة وأشرف الولايات .

الفترة السادسة

١٠٥٧ — ١٢٠٤ ب . م .

إن العواطف التى كانت تؤيد البيت المقدولى ماتت بموت
ثيودورا ، وقد أسقط النبلاء العسكريون مرشحها ودعوا لـ :
اسحاق كومنينوس ، ١٠٥٧ — ١٠٥٩ م . تنازل عن
العرش حين أنهكته المهمة الشاقة ورشح للإمبراطورية مدير
المالية ،

(١) نلاحظ هنا أن المؤلف يسمى القسطنطينية روما فى بعض الأحيان

قنسطنطين العاشر دو كاس ، ١٠٥٩ — ١٠٦٧ م . وبعد وفاته تزوجت أرملة إيدوكيا *Eudokia* من القائد ،

رومانس الرابع ديوجينيس ، ١٠٦٧ — ١٠٧١ م ، الذي أنزله عن عرشه بعد انكساره أمام السلاجقة الأتراك في معركة منزيكرت (ملاذ كرد) سنة ١٠٧١ م ابن ايدوكيا بالتبني ،

ميخائيل السابع دو كاس ، ١٠٧١ — ١٠٧٨ . فقد قام الشعب بثورة عليه فأنزله عن العرش وخلفه ،

نقفور الثالث بوتانتياثيس *Nicephorus III Botaniates* ، ١٠٧٨ — ١٠٨١ م . أنزله عن عرشه جماعات الجنود الثائرة ، ونصبت على العرش الكسيوس كومنينوس *Alexius Comnenus* .

أسره كومنينوس

الكسيوس كومنينوس (ابن أخ إسحاق الأول) ١٠٨١ — ١١١٨ م . افتتح عهدا من التنظيم والإصلاح . وخلفه ابنه ،

يوحنا الثاني ، ١١١٨ — ١١٤٣ م خلفه بعد وفاته ابنه ،

مانويل ، ١١٤٣ — ١١٨٠ م الذي خلفه طفله ،

ألكسيوس الثانى ، ١١٨٠ — ١١٨٣ م ، ققامت الإمبراطورة
مارية وألكسيوس (ابن عم الإمبراطور) بالحكم . وفى سنة
١١٨٣ م جعل أندرونيكوس كومنينوس (ابن أخ يوحنا الثانى)
شريكا لألكسيوس الثانى . فحنق ألكسيوس فى السنة التالية .

أندرونيكوس ، ١١٨٣ — ١١٨٥ م . عزله عن العرش

اسحاق الثانى ، ١١٨٥ — ١١٩٥ م . رأس أسرة إنجيلي
النبيلة . أنزله عن عرشه أخوه

ألكسيوس الثالث ، ١١٩٥ — ١٢٠٣ . ولكن الصليبيين
أرجعوا

إسحاق الثانى (١٢٠٣ — ١٢٠٤) ، وبقياً حتى عزلا
وألكسيوس الرابع (عندما احتلت القسطنطينية ١٢٠٤ .

الفترة السادسة

١٠٥٧ — ١٢٠٤ م

ليس فى طوق كاتب هذه السطور أن يجعل تاريخ هذه
الفترة فى فقرة واحدة . إذ لا معدى لنا عن ذكر بعض المشاكل

فيها . كان العامل الجديد في الوضع الخارجى هو ظهور السلاجقة الأتراك القبربرين . فهم الذين هزموا روما الشرقية فى منزىكرت (ملاذ كرد) ١٠٧١ م هزيمة منكرة لم تستجمع الإمبراطورية قواها بعدها . وأصبح من الصعوبة بمكان أن تستبقى الإمبراطورية قواها بينما مواردنا تنقص ، واستولى العدو على كثير من مناطقها ، أو نهبتها جماعاته . وعندئذ أخذت الإمبراطورية تعتمد فى حماية نفسها بحراً على أسطول البندقية . وقد اشترت مساعدة البندقية بامتيازات تجارية ضارة (انظر فصل ١٣) . وبينما كانت الأحزاب المدنية والعسكرية تتنازع السيادة داخل الإمبراطورية ، كانت قوى الغرب فى الحملات الصليبية تجذبها أبهة الأباطرة البيزنطيين ، وتستفززها سياستهم . وقد كان من الممكن أن يحاول البلاط الشرقى شراء المساعدة المسلحة من الغرب ببذله وعوداً خلاصة عن الاتحاد الدينى مع البابوية ، لولا أن الشعب حثى فى نفسه العداوة المهاجرين الطليان وللسيادة الغربية . وربما كان أمر شىء على إمبراطورية قوية أن تكون فى حاجة إلى الحماية ، ثم أن تكون القوى الوحيدة التى تستطيع حمايتها أبغض شىء إليها . أما رجال الغرب الذين لم يجدوا فى أرض الميعاد سوى

القليل من اللبن والعسل ، ولقى الكثيرون منهم الموت في رمال الصحراء ، ورأوا روما الشرقية تفوز لنفسها بالأسلاب والغنائم التي كسبتها أيديهم ، فقد أذكى كل هذا في نفوسهم الشعور بخيبة الرجاء ، وأجج ذلك في قلوبهم نيران الكراهية ، ومن الكراهية المريرة نشأت مأساة سقوط الإمبراطورية . وكل حضارة رفيعة تجتذب نحو نفسها الحضارات التي هي أدنى منها في المرتبة بطبيعة الحال . ومن هنا يقول عالم محدث : إن الحروب الصليبية كانت في واقع الأمر صراعاً في سبيل القسطنطينية . فهل هذا صحيح ؟

الفترة السابعة

١٠٢٤ — ١٤٥٣ م

بعد سقوط المدينة ، أقيمت في العاصمة إمبراطورية لاتينية . ومع أن أمرة الأشاكرة حكمت في نيقية من ١٠٢٦ إلى ١٢٦١ فإن الإمبراطورية الرومانية لم تستعد عهداً في القسطنطينية إلا تحت حكم آل باليولوجوس . ولا نرى من الضروري أن نذكر سلسلة الأباطرة الذين حكموا من ١٢٦١ — ١٤٥٣ م في هذا الكتاب . فإن مملكتهم اقتصرَت على العاصمة والمنطقة المحيطة بها ، بعد أن أهدقت بها الملكة الصربية من الغرب والأتراك

من الشرق ، إلى أن احتلت العاصمة نفسها أخيراً وزالت
الإمبراطورية الشرقية من الوجود^(١) .

(١) إلى هنا وقف المؤلف في إيجاز التاريخ السياسي للدولة البيزنطية .
ولا زال أمام الدولة فيما بين سنتي ١٢٠٤ ، ١٤٥٣ نيف ومائتا سنة
مائية بالحوادث . ولما كان دارس تاريخ الدولة البيزنطية وحضارتها لا يستغنى
عن الوقوف على تطورات تاريخ الدولة البيزنطية خلال هذه الفترة الباقية
فقد رأينا أن نكمل هذا العرض من الفصل الأول من كتاب شارل ديبل :
« بيزنطة ، عظمتها واضمحلالها » :

CH. DIEHL : *Byzance ; Grandeur et Décadence* (Paris, 1919),
pp. 1-22

وعنوان هذا الفصل : تطور تاريخ بيزنطة .

Evolution de l'histoire de Byzance

وقد استحسننا أن نوجزه كله حتى يستقيم سياق الكلام . فليراجع
القارى في ختام ترجمتنا هذه .

الفصل الرابع

السيادة البيزنطية

الإمبراطورية والبرابرة

• فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان، والبيت الذي بناه ، وطعام مائدته ، ومجلس عبيده ، وموقف خدامه وملابسهم ، وسقائه ومحرقاته التي كان يصعدهما في بيت الرب لم يبق فيها روح بعد ، فقالت للملك : صحيحا كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك . ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيني . فهو ذا النصف لم أخبر به . زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذي سمعته . طوبى لرجالك ، وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما ، السامعين حكمتك . ليكن مباركاً الرب إلهك ، الذي سر بك وجعلك على كرسي إسرائيل . لأن الرب أحب لإسرائيل إلى الأبد ، جعلك ملكا لتجري حكما وبراً » .

الملوك الأول ، الاصحاح العاشر ٤ — ٩ .

وقد كان هذا الشعور نفسه [الذي ملأ نفس ملكة سبأ] يختلج في نفوس الأمراء المعاصرين نحو جستنيان ، وكثير غيره من أباطرة روما الشرقية . وقد قدم لنا المؤرخ اليهودي القديم أروع تعليق بين أيدينا على السيادة البيزنطية .

فها هو جورج الپيزيدى *George of Pisidia* ^(١) يعبر عن عقائد رعايا هرقل بقوله « ما أروع الملكية كنظام للحكم حينما يؤيدها الله » ؛ ومع هذا فالإمبراطور الذى تركزت فى يده جميع السلطات هو خليفة الحاكم الرومانى ، ووريث أكتافىوس المواطن الأول فى الجمهورية ، بعد أن أصلح أمرها .

فقد توزعت حقوق الملوك عند ما سقطت الملكية فى الأيام القديمة من تاريخ روما بين حكام عديدين ، كان لكل منهم فى أكثر الحالات شريك يقاسمه نفوذه ، وجعل زمن توليه السلطة قصيرا ^(٢) . فلما كانت أيام الإمبراطورية ألغى سلطان *(Imperium)* كثير من هؤلاء الموظفين الكبار ووضعت سلطاتهم جميعاً فى يد مواطن فرد . وانتهى الأمر ، بعد فترة لم يستقر الناس فيها على رأى ، إلى منح هذا الحشد من السلطات [إلى فرد واحد] مدى الحياة . فأخذ [هذا الواحد الذى كان يسمى] الأمير *(Princeps)* على عاتقه قيادة الجيش والإشراف

(١) بيزيديا *Pisidia* : مقاطعة فى داخل آسيا الصغرى وتقع فى الجنوب .

(٢) يشير المؤلف بهذا إلى نظم الحكم فى الجمهورية الرومانية التى وزعت السلطان الذى كان بيد الملوك بين رجال يختارهم الشعب . والمعروف أن كل وظيفة من الوظائف الكبرى فى أنظمة الحكم الرومانية كان يتولاها اثنان .

على الولايات التي كانت في حاجة لحماية عسكرية . وفيما عدا ذلك احتفظ حكام الجمهورية بحقوقهم القديمة . وإذا كان أوغسطس قد سعى إلى جعل السناتوشريكاً عاملاً في أداة الحكم ، فقد رفض هذا أن يقوم بدوره واضطر الإمبراطور ، على غير رغبة منه ، أن يقوم بوظائف جديدة ؛ وبهذه الطريقة كثرت أعباء الإمبراطور .
و حين اعتزل طيباريوس عمله المنهك ولزم جزيرة كابرى^(١) ،
وضح أن العناصر العاملة في الجمهورية القديمة لم تعد تقوى على مواجهة الضغط المتزايد . وسرعان ما انتشرت الفوضى حين رفض الإمبراطور القيام بهذا العبء الثقيل .

فتكونت في زمن كلوديوس هيئة إدارية قوامها معتقو الإمبراطور ، فأخذوا يعملون جنباً إلى جنب مع حكام روما القدماء مع أنهم مستقلون عنهم . وأخذ خدام قيصر من رجال حاشيته مكان الهيئة التنفيذية القديمة ؛ ولم يسع الحكومة إلا أن تدعن لهذه الهيئة الإدارية . وحل معتقو الإمبراطور ، في زمن هدریان ، محل بعض المواطنين من الطبقات المتوسطة (الفرسان) . وهكذا تحولت الجماعة التي كانت تقوم بشئون القيصر البيتية إلى فروع من الخدمة المدنية لروما كلها . و انتهى الأمر

(١) جزيرة كابرى *Capri* : وتقع غير بعيد من ساحل إقليم كامبانيا في إيطاليا عند مدخل خليج نابولي .

بالسناتور ، الذى كان قد صار تدريجاً وكأنه شريك نائم منذ نشأ
حكم الفرد ، إلى أن يكون فى مكان شريك محدود السلطان .
إذ لم تعد له أية سيطرة فعلية على سياسة الدولة . وحينما حاول
استعادة امتيازاته منى بالفشل . فأبعد جاليانوس أعضاء مجلس
الشيخوخة عن الجيش ، وأقصاهم دقلديانوس عن إدارة الولايات ،
وانتصرت الطبقات المتوسطة على الأرستقراطية . وحينما استعاد
دقلديانوس السلطة الإمبراطورية ، واستطاع بيت قنسطنطين أن
يفتح باب الحكم لكل من كانت فيه كفاءة من أهل
الإمبراطورية ، فقد مجلس الشيخوخة ما يجعله فى مركز المنافس
للإمبراطور ، وأصبح فى استطاعة الفرسان وأعضاء مجلس الشيخوخة
على السواء أن يدخلوا فى خدمة السيد الفرد الذى يقبض على زمام
السلطة جميعها .

وقد مررنا فى الفصل الأول كيف كانت الإدارة المدنية
مفصولة عن العسكرية فصلاً تاماً . ولكن الإمبراطور جمع فى
شخصه شقى السلطان . ولم تعد جمعيات الشعب التشريعية القديمة
تعقد اجتماعاتها . فحينما اختار الناس إمبراطوراً ، كان معنى ذلك
أنهم تنازلوا له عن حقوق سيادتهم الموروثة ، لأن ذلك الإمبراطور
الذى انتخبوه أصبح مصدر التشريع ، وأصبحت أوامره هى
التفسيرات الوحيدة لتشريعاته .

ولما كانت جميع الأمور ، المقدس منها وغير المقدس ، في أيام الجمهورية تخضع لسيطرة الحكام — لأن القسيس لم يكن إلا مستشارا في المسائل الدينية فقط — فقد بُعثت هذه النظرية إلى الحياة في روما الجديدة : فما دام الإمبراطور الرئيس الديني الأول فهو رئيس الكنيسة وحامي حمى الدين .

وعلى الرغم من أن مخاوف جراتيان *Gratian* حالت دون قبوله لقب « پونتيفيكس ماكسيموس » *Pontifex Maximus* أى [الرئيس الديني الأعلى] لأنه لقب وثنى ، وقنع بأن يكون إمبراطوراً مسيحياً ، إلا أن الشعب أصر على أن يحمل الإمبراطور المسيحى عبء العناية بروحه وجسده معاً : ولم تقتصر العناية في هذه الظروف الجديدة على المواطن فحسب ، بل ظلت جزءاً من سياسة الدولة (انظر الفصل الخامس) . فالإمبراطور من البداية أكثر من إنسان مجرد — فلم يكن اختيار أكتافىوس لقب أوغسطس إلا لارتباط هذا اللفظ بالالهية . نعم ، إنه لم يكن في حياته إلهاً على الرغم من أن أهل بعض الولايات الشرقية أصرّوا على اعتباره إلهاً ، فقد اعتادوا الخضوع للملك مؤلهين . ولكنه إذا مات زالت عنه كل عناصر البشرية . وتقرر في المنشور الذى كان

يصدره السناتور بهذه المناسبة أن إلهما أولمبيا آخر قد أخذ مكانه في صفوف الخالدين .

فأخذ الإمبراطور المسيحي بدوره ، كما يظهر ، مكانة مشابهة في جنة الدين الجديد عند موته ؛ وجلس يشارك ابن الإله الحكم في أماكن سماوية — وإذا كان شبيها للإله في الحياة فقد أصبح « مقدس الذكرى » في الآخرة . وعلى الرغم من مثل هذه الآثار من بقايا الفكرة القديمة التي ترد في خطاب القديس أمبروزيوس *Ambrose* الذي ألقاه على قبر فالينتينيان ، وفي النص المنقوش على قبر ثيودوسيوس الثاني ، ففي استطاعتنا أن نقول إن القديس حل محل التأليه بصورة عامة .

وأضيفت مميزات شرقية جديدة إلى هذه العناصر الموروثة . فقد انتشرت في القرن الثالث مؤثرات شرقية في العالم الروماني وامتزج تصور الفارسي للملكية ، على أنها هبة من الله ، بنظرية الروماني حول سلطان *Imperium* الحاكم ، فخلقت من الإمبراطور إنسانا لا يُدنى منه ، إنساناً مقدساً يسجد الناس له لأنه خليفة إله السماوات على الأرض ، ويتوج رأسه بالتاج الملكي ، ويخضع الناس على كل ما له أساس بشخصه صفة قدسية .

غير أنه من الضروري أن ندرك أنه حتى هذا التطور يرجع

في أصوله إلى ماض بعيد ؛ فهو ليس إلا انتصارا لتلك الفكرة التي مال الشرق الهيلينستي من البداية إلى الأخذ بها عن مكانة الإمبراطور ، وهي ذات الفكرة التي لم تنصرها نظرة الأول من قيصرية الرومان . إلا أن دقلديانوس ادعى لنفسه بصراحة تلك الامتيازات التي لم تكن لتمنح سابقاً إلا للمثل كاليجولا أو دوميثيان *Domitian* . ومن الممكن أن نقول إن ترك الماضي قد ظهر بصورة مبالغ فيها في التحول الذي طرأ على الإمبراطورية على يدي دقلديانوس وقنسطنطين .

كان ما أوردناه ضروريا على سبيل المقدمة ؛ وما دما قد رأينا أن الحكومة الشرقية كانت أوتوقراطية ، فأمامنا سؤالان يواجهاننا في وقت واحد : ما هو مصدر قوة الحاكم الأوتوقراطي ؟ وما هي القوى التي جعلت ممارستها أمراً ممكناً ؟

لقد ظل حق الإمبراطور في العرش يخضع للانتخاب طيلة تاريخ الإمبراطورية . وكان السناتو والجيش ينتخبان الحاكم ، فقد كان الجيش يمارس حقوقه الوراثة في تنصيب الملوك ؛ وكان الشعب يؤيد ذلك . فكان في استطاعة مجلس الشيوخ أو الجيش (وكان جزء منه بالفعل يمثل مجموع قوى روما العسكرية) أن يتقدم أحدهما فيعين مرشحاً ، ثم يزيه الطرف الآخر : أي

أن انتخاب الإمبراطور كان يمر بالأدوار التالية : (١) ينادى مجلس الشيوخ أو الجيش بوضع المرشح « في وضع دستوري يجعله في مكان الإمبراطور المنتظر ، على أن يكون من الجائز بعدئذ تثبيت ذلك أو إلغاؤه » . (٢) أن يوافق الطرف الآخر على ذلك ، لأنه يملك الحق ذاته في الترشيح . (٣) التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الروماني الذي يجتمع عادة في الهبدمون *Hebdomon*^(١) . (٤) تتويجه بالتاج على يد البطريق الأعلى قائماً بتمثيل المنتخبين لا الكنيسة . وقد جرت العادة بذلك وإن لم يكن شرطاً أساسياً .

تلك هي الإجراءات التي كان ينص عليها التقليد الدستوري في منح السلطان لأحد من الناس . لكنها لا تكفل له سوى لقب بشري . بيد أن عرش الإمبراطور كان يقوم على أسس أكثر رسوخاً ؛ فالإمبراطور صني الإله ، وقد وقع عليه الاختيار منذ ولادته لتحقيق إرادة السماء . وإذا فالمرشح الناجح هو بالضرورة من اختارته مشيئة الله ، بغض النظر عن الطريقة التي

(١) كان تتويج الأباطرة منذ القرن السابع يجري في كنيسة أياصوفيا ، ويحضره أعضاء مجلس الشيوخ (السناو) وممثلون عن الجيش والشعب الذي كان يهتف للإمبراطور داخل الكنيسة وخارجها . وكان التتويج قبل القرن السابع يجري في الهبدمون *Hebdomon* خارج المدينة .

اكتسب بها هذا النصر ؛ فنجاحه هو المبرر الوحيد ؛ فتطمس صفحة ماضيه . وهذا النجاح هو الأساس الذى يلزم الناس بطاعته . وإذا فمن الجلى أن الأوتوقراطية كهانة^(١) ملكية ، وما الإمبراطور إلا أحد رجال الدين ، حتى إذا قدم ما تلزمه العادة بتقديمه ، استطاع أن يدخل المعبد المقدس ، ويقرب من المذبح حيث لا يسمح لأحد من العلمانيين بالمرور . وفى مكنته أن يُقبل ستار المذبح ، وأن يتناول بيده الخبز المقدس . وعهدت له العناية الإلهية — كما عهدت لبطرس من قبل فى رعاية أتباع المسيح . — والى يظهر هذا الجانب من كهانة الإمبراطور فى وضوح أكثر ، أضيف منذ القرن التاسع — على ما يظن — عمل آخر رمزى فى حفل التتويج — ألا وهو أن يقوم البطريق بمسح الإمبراطور بالزيت المقدس ؛ ولم يكن يُعبّر بذلك عن إرادة الدولة بل عن المشيئة الإلهية .

غير أن هذه النظرية [الإلهية] فى أصل الملكية كانت تحمل فى طياتها نتيجة أبعد مدى : فمن ياترى ذلك الإنسان الذى يحقق مشيئة الإله ؟ لقد اصطفى إله الحرب داود من حظيرة

(١) يصف المؤلف هنا كيف تحول الحاكم الرومانى من حاكم مدنى صرف إلى حاكم مدنى يعتمد على الدين فى تأييد نفوذه . والمعروف أن أباطرة بيزنطة جميعهم كانوا يزعمون لأنفسهم قداسة رجال الدين .

الغنم ، من السير وراء التقطيع ليحكم شعبه إسرائيل : وكان الروماني الشرق ، وقارئ الأناشيد العبري ، يدرك أن مصدر الرفعة لا يكون من الشرق ولا من الغرب ولا من الجنوب ، بل إن الحكم لله ، يرفع من يشاء ويذل من يشاء — وإذا فالعرش الإمبراطوري مباح للجميع ، فلاحهم ونبيلهم ، جاهلهم وعالمهم على السواء . غير أنه اشترط في الإمبراطور أن يكون مسيحياً — وأضيف بعد ذلك أن يكون مسيحياً أرثوذكسياً . وفيما عدا ذلك يمكن لأحد الناس أن يقع عليه اختيار الله عظيماً كان أم حقيراً ، غنياً أم فقيراً . بيد أنه لم يكن هناك من سبيل دستوري لإسقاط الإمبراطور بعد انتخابه سوى ثورة ناجحة . وهنا أيضاً لا يحول اختيار العناية الإلهية له دون أن يعتبر مجرد غاصب في حالة فشله ؛ فقد ما تحول يهوفا^(١) عن شاول ، وخص داود بحبه — أي أنه كف عن مناصرته للحاكم . وإذا فالثورة تصبح مشروعة ، بل وجزءاً من الدستور المعمول به ، فيقول مومسن *Mommsen*^(٢) :

(١) يهوفا *Jehova* : هو الاسم العبري لإله اليهود .

(٢) مومسن *Mommsen* (١٨١٧ — ١٩٠٣) مؤرخ نقادة ، ومن أعظم من أنجبته ألمانيا في الدراسات التاريخية الكلاسيكية . وهو مؤلف كتاب « تاريخ روما » .

« كانت الحكومة الرومانية أوتوقراطية يخفف من حدتها حق الثورة المشروع » .

بيد أن اختيار الحكام بطريق الانتخاب وحده لم يكن ليضمن للناس سير الأمور سيراً حسناً مادام اغتصاب العرش مباحاً في هذه الدولة ولا يعتبره الناس خيانة إلا في حالة الفشل ، ثم إننا لا ينبغي أن ننسى أن هذا الاغتصاب كان يدعم القوة الإمبراطورية في بعض الأحيان . ومن ثم عدلت النظرية الرومانية القديمة [فيما يتصل بطريقة اختيار الحاكم الأعلى للدولة] كما يلي : إن تفويض أمور الحكم للإمبراطور يحوله حق تتويج خلف له أثناء حياته . ويظل مستبداً وحده بالسلطان طالما بقي في قيد الحياة رغم وجود خليفة إلى جواره ، فإذا توفي انتقل السلطان إلى خليفته من تلقاء نفسه ؛ وهكذا فقد المنتخبون حق الانتخاب . ولم يبق أمامهم إلا أن يحموا الحاكم الجديد [قائلين] « مات الملك ، يحيا الملك ! »

وتعجلى في الواقع قوة الشعور بالولاء للبيت المالكي في فترات منتظمة من التاريخ البيزنطي ، فهي جليلة فيما يكتبه المداحون في بيت قسطنطين ؛ وتعود للظهور في القرن السابع فتبدو في الولاء لبيت هرقل ، وتتجدد مرة أخرى في مناصرة سلاسل باسيل ،

وفي التأييد الذي اقيه آل كومنين . وقد أتاح هذا الشعور بالولاء للنساء أن يتربعن على العرش الإمبراطوري ، لأن قوانين الدولة البيزنطية لم تكن تنص على ذكررة الحاكم كما هو الحال في القانون السالي^(١) *Salic law* .

ومما تهمنا ملاحظته حقاً أن شعور الناس هذا بالولاء ، لم يمنعهم من أن يتخذوا من الاحتياطات ما هو كفيل بصيانة سلامة الدولة . فحينما ارتقى قنسطنطين السابع إلى العرش ، وكان إمبراطوراً عالمياً في عصر الملوك الباسيليين ، عُيِّن جندي شريكاً له ليخوض معارك الإمبراطورية . فقد ظلت روما الجديدة دولة عسكرية ، ولم يكن أباطرتها العظام إلا جنوداً عظاماً .

وكان اللقب اليوناني الأوتوكراتور *Autocrator* (الحاكم المطلق) ، في نهاية القرن الرابع ، كما قال سينيسيوس *Synesius*^(٢)

(١) القانون السالي : هو قانون الفرنجة الساليين — *the Salians* وهم فرع الفرنجة الذي أقام الدولتين الميروفنجية والكارولنجية وقد جمع هذا القانون الملك كلوفس (٤٨١ — ٥١١) وكان ينص فيه على ألا يتولى العرش غير الرجال .

(٢) سينيسيوس *Synesius* : فيلسوف يوناني عاش في القرن الرابع وأوائل الخامس الميلاديين ، وأصبح أسقفاً لمدينة بتوليميس *Ptolemais* وتوفي سنة ٤٣٠ م . وله رسائل ومقالات وأدعية ترجمها فينرجيرالد للإنجليزية .

يمثل اللقب اللاتيني *imperator* ، قائد الجيوش ^(١) الإمبراطورية .
وكان مكان الإمبراطور الحقيقي لا يزال بين جنده . وبالرغم من
إصرار الهيئة الحاكمة على أن من واجب الإمبراطور البقاء في
عاصمته لا أن يعرض نفسه للخطر في ميدان الحرب الدائرة ، فإن
الإمبراطور القوى كان يهمل هذا التحذير دائماً ، ويتقدم جيوشه
إلى ساحة القتال . ولئن أصغى موريس في القرن السادس
لنصائحه ، فقد استجاب الجيش الروماني لهرقل ، ووجد الأخير فيه
قوة تبعته بمحض إرادتها إلى قلب فارس . ولم يكن نصيب
الإمبراطور حين سمح لرئيس دير أن يُملئ عليه سياسته العسكرية ،
إلا أن أسقطه ليوا الأرمني . فلا مُشاحة في أن ما يميز حكام
الإمبراطورية الشرقية العسكريين هو كفاءتهم كقواد للجيوش .

رأينا إذاً أن الحكومة كانت أوتوقراطية — أى أن جميع
السلطة النافذة داخل حدود الإمبراطورية الرومانية جُمعت في
شخص الإمبراطور ، وهو مصدرها الأوحد — إلا أن هذه
العبارة لا تعبر تعبيراً كاملاً عن رأى الروماني في الإمبراطور :
فلم يكن الإمبراطور — الملك ، الباسيليوس *Basileus* كما كان

(١) وقد اكتسبت مؤخراً معنى خاصاً ، فتستعمل للدلالة على سعة
نفوذ سيد على مساعديه الأقل منه مركزاً .

يسمى رسمياً بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية ، التي كان حاكمها
المنازع الوحيد له على هذا اللقب — مجرد حاكم للولايات الخاضعة
لروما . فكما قال المسيح انه وارث هذا العالم ، فعلى نائبه أن يدعى
إدخال العالم في دائرة ملكه . أليس هو الآخر مخلصاً للعالم !
أليست قوته هي المدبرة له ! إذا ، فهو الحاكم الأعلى ، وله الحق في
السيادة على العالم جميعه . وإذا جاز أن يحكم هذه الأراضى أمير
ألماني أو أن يخضع تلك كافر ، فالألماني ليس إلا ممثلاً لروما .
وليس احتلال الكافر لها إلا إلى زمن ، وستعود في النهاية
لمالكها الحقيقي .

ولم يكن الأمر يقف عند هذا الحد ، فإنه لما كانت مملكة
الأرض مصاغة على مثال مملكة السماء ، إذا فهي ليست عالمية
فحسب ، بل خالدة أيضاً ؛ وليس في استطاعة بشر أن يقوض
دعائمها . أما الأباطرة الفاسدون فليسوا إلا عقاباً إلهياً للناس ، حتى
إذا انتهت مدة عقاب البشر ، وتاب أهل البلاد عن خطاياهم ،
أشرقت شمس رحمة الله مرة أخرى . وهكذا تصبح الديانة
المسيحية مصدراً دائماً لبعث جديد . ذلك ما وعده جو پتر^(١) الرومان

(١) جو پتر *Jupiter* : وهو رب الأرباب في الميثولوجيا الرومانية .
وكان له معبد على تل الكابيتول في روما . وهو يقابل زيوس *Zeus* في
الميثولوجيا اليونانية .

إني لا أضع هؤلاء زمناً ولا مخاوف
لقد أعطيتهم الحكم إلى ما لا نهاية .

ونقد أيد ذلك مَنْ هو أعظم من جوبيتر؛ وما كان في أول
الأمر طموحاً سياسياً فحسب ، استحال الآن إلى عقيدة دينية .
وإذا كان الأمر كذلك ، فما هي القيود العملية والنظرية
التي تحد من ادعاء الأباطرة السيطرة على الكون ؟

لنبدأ بالحقيقة التالية : بالرغم من أن الإمبراطور هو المشرع
الأعلى ، وبالرغم من أنه لا يسأل عما يفعل ، فقد كان عليه لهذا
السبب ذاته أن يلزم نفسه بمراعاة القوانين ، وذلك ما نصح به
أجاييتوسُ الشماس لجستينيان ؛ وقبل باسيل الأول هذا الإلزام .
ولا ننسى أولئك الذين كانوا يحيطون بالإمبراطور ، فهم رجال
فقهوا التقاليد المحافظة — تقاليد هيئة الحكم الشديدة التعقيد :
وقد أصبح السناتو — إذا استثنينا ممارسته لسلطته القديمة في
تنصيب الملوك — مجلس حكام يفضلون السبل المطروقة . وحينما
وُفق بروكلوس *Proclus* إلى صرف الإمبراطور أناس-تاسيوس
عن تبني ابن الملك الفارسي بدأ نصحه قائلاً : « لم يسبق لي أن
تعلمت كيف أروض نفسي على قبول البدع ، بل أخافها أكثر
مما أخاف أي شيء آخر ، فإني على يقين تام من أن السلامة
لا تتحقق إذا أقر الناس المبتدعات الجديدة » . ومن المؤكد أن

التاريخ البيزنطى لم يعدم كثيرين مثل بروكلوس ، وجد الأباطرة من الحكمة أن يأخذوا بنصحهم .

وقد كان سكان العاصمة أيضا إلى جانب حرس المدينة الرسمى ، حتى القرن السابع على الأقل ، يكونون قوة فعالة . وكانوا على استعداد للاخلال بالأمن إذا ما فقدوا سيطرتهم على أنفسهم ، وعلى استعداد لتقديم مرشح آخر ينافس صاحب العرش ، ونشر الفوضى عن طريق الحرق والقتل . والظاهر أنه حين خمدت المقاومة الشعبية المنظمة لإدارة الإمبراطور زمن بيت هرقل ، أقام الرهبان أنفسهم نواباً (tribunes) للشعب وحملوا لواء المقاومة ضد الأباطرة ، واستطاعوا أن يعتمدوا على مؤازرة الأتقياء ، وأثبتوا أنهم خصوم أشد خطورة على الإمبراطور من البطريق الذى كان بإمكان الأول أن يعزله . واستطاع الجيش أيضا أن يوقف بعنف أية إجراءات لا يرى تنفيذها اعتماداً منه على قوته : وذلك ما حدث لموريس فى القرن السادس ، إذ كلفه نظامه العسكرى القاسى عرشه وحياته .

إلا أن هناك قيماً آخر أعمق مما ذكرناه ؛ ذلك هو تأثير خفى

لتقليد يفترض فى الحكام « حب الإنسانية » *Philanthropia*

وهو تعبير عسير الترجمة ، ولكنه يعبر عن فكرة الناس طيلة

قرن من الزمن عما كان يتحتم على الإمبراطور من إسداء خدمات إنسانية جلى لشعبه — وهى فكرة لم تزل تحمل رأى الرومانى فى معنى الوظيفة ، فهو يفرض على صاحبها حقوقاً أدبية للشعب ، ولا ينظر إليها كما لو كانت مركزاً يمنح صاحبه امتيازاً شخصياً . وإذا اقتصرنا على ذكر ثيمستىوس (القرن الرابع) وأجابتوس (القرن السادس) وجورج اليزيدى (القرن السابع) نلاحظ هناك تشدداً فيما كان يجب على الإمبراطور من إبداء الحب الإنسانى لشعبه . ولقد كان هذا المثل الأعلى ، فى الواقع ، قوة تكبح جماح الإمبراطور .

وأخيراً ، كان المنتخبون ، قبل أن يوافقوا على منح أحد السلطة الإمبراطورية ، يستخلصون منه وعداً صريحاً بمراعاة ذلك . فقد طالب مجلس الشيوخ أناستاسيوس الأول أن يقسم على أن يستوحى أحكامه فى الإمبراطورية من ضميره ، وألا يقتص من أحد سبق له أن خاصمه ، وأن يوقع قسماً كتابياً — إذا طلب إليه البطريق ذلك فى حالة الاشتباه بأرثوذكسيته — يعد فيه ألا يدخل بدعة جديدة فى الكنيسة . ومع مضى الزمن ، ولا ندرى التاريخ الحقيقى ، أخذ الإمبراطور عند تنويعه يقسم قسماً رسمياً ، يبدأ بالاعتراف بالعقيدة الأرثوذكسية ، ويتضمن

توكيداً منه لمنشورات بطارقة العالم السبعة ومجالس محلية أخرى ،
وحقوق الكنيسة وامتيازاتها ، ثم يتقدم الإمبراطور ، وبعد أن
يظل خادماً مخلصاً للكنيسة المقدسة ، وابناً باراً بها وحامياً لها .
ويأخذ عهداً على نفسه بأن يظل إنسانياً في حكمه لشعبه ، عادلاً
بينهم . وأن يتجنب توقيع عقوبات التنكيل بالناس أو الحكم
بالإعدام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وصيغة القسم من الأهمية
بحيث توقفنا على ما كان يتطلبه البيزنطيون من حاكمهم .

بيد أن الإمبراطور كان محاطاً بهيئة بلاط ضخمة ، وكانت
أعماله داخل قصره تخضع في توجيهها لطقوس البلاط الصارمة .
وبما أن لأئمة هذه الطقوس كانت جزءاً من سياسة الحكومة
البيزنطية ، فلنختتم هذا الفصل يبحث مختصر في الديبلوماسية
البيزنطية .

ليس في أيدينا بحث بيزنطي نموذجي يضارع مقال المراسم
"De Cermoniis" الذي بسط فيه قنسطنطين پورفيروجينيتوس
لولده أسرار قواعد اللياقة في البلاط الروماني الشرقي . وإنما لنجد
فيه وصفاً دقيقاً مفصلاً للأدوار التي تقوم بها كل طبقة من الهيئة
الحاكمة الإمبراطورية في سلسلة الاستقبالات والاحتفالات التي
كانت تكون « السنة المسيحية » البيزنطية . فيها ذكر مفصل

الملابس والحركات ومواضعها وأوقاتها ، والكلمات الرسمية التي جعلتها العادة مع مرور الزمن مقدسة . وتقرأ فيها كيف كانوا يلعبون (الألعاب القوطية) في عيد الميلاد ، فيروحون ويغدون في رقصهم المجيب وهم مقنعون ، يحملون القروس والرماح وسط جماعات من رجال أحزاب الملاعب مقبلين من كل ناحية ، ويتفوهون بكلمات غامضة لا تزال تحير علماء اللغة .

وفي استطاعتنا أن نقنع هذه المشاهد المرححة المتواصلة في أيام الإمبراطور في عيد برومانيا — وهو من بقايا الزمن الوثني — حيث كان يحتفل بالعيد في أيام متتالية ، لسبب حرف من أحرف الهجاء فيها يوم ، وينتخب الضيوف بحسب الحروف الأولى من أسمائهم ، وتوزع عليهم هدايا الإمبراطور الجميلة ؛ وكذلك في حفلات الزواج والميلاد والتعميد والقتوبج والنصر والدفن وحداد البلاط ، وفي إقامة طقوس الكنيسة والمواكب العامة .

ولنتصور زعيماً برياً من أحد السهول أو الصحارى وصل إلى البلاط البيزنطي ، ونزل في ضيافة القصر ، وشاهد عجائب العاصمة في رعاية موظفي الإمبراطور ؛ كان عليه أن يمثل بين يدي الإمبراطور : تراه يمر في متاهة من الدهاليز الرخامية ، وغرف

غنية بالفينفساء والأردية الذهبية ، و بين صفوف حرس القصر الذين يرتدون زياً أبيض واحداً ، يحف به النبلاء والأساقفة والقادة وأعضاء مجلس الشيوخ بينما يعزف أرغن الكنيسة ، تصاحبه فرق المغنين بالكنيسة والخصيان ؛ ثم أخيراً يسجد مأخوذاً بهذه الفخامة التي لا تنتهى ، فى حضرة الصامت الوقور ، سيد روما الجديدة ، ووريث قنسطنطين ، وهو متربع على عرش القياصرة : وقبل أن يُسمح له بالنهوض ، يرى الإمبراطور والعرش وقد تغيرت حلته التي رآها حين نظر إليه آخر مرة ؛ يراه وهو ينظر إليه كما ينظر الإله إلى أحد البشر . ترى من ذا الذى يسمع زئير الأسود الذهبية حول العرش ، وتغريد الأطيار ، ثم يستطيع بعد ذلك أن يرفض أوامر الإمبراطور ؟ ! إنه لن يملك طويلاً حتى يشرد ذهنه مفكراً فيما يبعث الزئير من أفواه هذه الأسود الذهبية وفيما يجمل الطيور تغرد ؛ فإذا شرد ذهنه لم يكدر يستطيع الإجابة على أسئلة رئيس الديوان المتكلم بالنيابة عن الإمبراطور . إذا فقد ربحه الإمبراطور إلى جانبه ، وسوف يحارب من أجل المسيح الرومانى وامبراطوريته . وسوف تغدق عليه الامتيازات والهبات والمدايا من أجل وعده بالدفاع عن الحدود ، وربما منح مركزاً رسمياً فى الحكومة فيصبح نبيلاً أو قائداً فى

الجيش ، وربما حالفه الحظ فتكون مساعدته ذات قيمة كبيرة للإمبراطورية ، فيوعد عندئذ بتزويجه من أميرة بيزنطية ، كما فعل هرقل مع زعيم الخزر ، فيعتقد المسيحية . وسيقوم الإمبراطور نفسه بدور الإشبين عند الحوض المقدس ؛ ومن ثم ينتدب أحد الأساقفة من أتباع بطريق القسطنطينية للإشراف على مصالح الرومان في بلاده . وفي حالة قيام شعبه وإسقاطهم له ، يسمح له بالالتجاء للإمبراطورية ، ومن ثم قد يعاد إلى مركزه بحراب الرومان . وفي هذه الحالة لا يبقى عند رجال الدولة ريب في إخلاصه .

ومع أنه لم يكن للإمبراطورية ممثلون دائمون لدى الحكومات الأجنبية ، إلا أن بعثاتها كانت تتوالى فتحفظ تقاريرها في ديوان الرسائل الإمبراطورية . وهكذا كانت التقارير الواردة مباشرة عن الموارد والأحوال الداخلية للممالك البربرية المجاورة توجه السياسة الرومانية الشرقية ؛ فكل منها توقف الأخرى عند حدها ؛ فترى الخزر يحاربون معارك هرقل ضد الفرس ؛ وفي السنين التالية تراهم يوقفون البشناق عند حدهم ، بينما تواصل الإمبراطورية إمداد الخزر عن طريق مدينة خرسون ، بل يبلغ بها الأمر أن تبثني لهم ثغر « ساركل » الحربى على بحر آزوف .

وإذا تمرد الخزر فإن قبائل الآلان المقيمة في القوقاز على استعداد لمهاجمة أرضهم حين يأمر الإمبراطور . وقد قهر اللومبارد والآفار في القرن السادس الجيبيديس ، كما دُعي الروس والبشناق بعد ذلك لمهاجمة البلغار ، ووقفوا في ذلك توفيقا بعيدا . وهكذا حفظت روما التوازن في القوى بين هذه الشعوب المتاخمة لها من كل جانب .

حقا لقد سقطت روما الشرقية ، غير أن شعارها ما زالت حية : لقد أخذ القسيس مكان الحاكم المدني : و بينما ينحني الراهب اليوناني صاغرا أمام بطريق القسطنطينية كما كان يفعل الرجال مع الإمبراطور ، ورث بابا روما هذا المشهد الذي كان يحيط بالحاكم المطلق « الشبيه بالرسول » .

الفصل الخامس

الكنيسة الأرثوذكسية

إن أيدينا عاجزة عن تغيير الحدود التي رسمها آباؤنا : إنما نحن نحافظ على تقاليدنا الموروثة .

ومن أجل هذا ، نسأل عباد الله المؤمنين أن يحافظوا على التقاليد الروحية . فإن فقداننا ما أعطيناه بالتدرج من شأنه أن يقوض الدعائم الأساسية ، وهو آت على البناء بأمله في وقت ليس بالقصير .

القديس يوحنا الدمشقي : « عن الصور المقدسة »

لم تكتب الحياة لطقوس روما الشرقية فحسب ، بل احتفظت الكنيسة حتى يومنا هذا بطبيعتها التي اكتسبتها زمن الأباطرة المسيحيين : فأراء هذه الكنيسة في اللاهوت ، وشعائرها ، وصيغها التي كانت تلقى أثناء المراسم الدينية ، ولون حياة الرهبنة والتقشف ، وقديسوها وأعيادها ، ذلك كله تراث من أيام البيزنطيين ، لا زالت تبقى على سلامته روح المحافظة التي لا تلين . ونحن نرى في هذا المقام ، بصورة واضحة جدا ، أن دراسة المسيحية في عهودها الأولى أكبر معاون لنا على تفهم أحوال عصرنا الدينية .

رأينا أن الكنيسة التي انتصرت في عصر قسطنطين هي الكنيسة التي كانت تقيم طقوسها الدينية قبل ذلك في الخرائب *Catacombs* وبقايا الأبنية القديمة . ورأينا كذلك أن عاصمة العالم الروماني ، إذ ذاك ، أصبحت مدينة مسيحية . إلا أن القسطنطينية ظلت فيما يختص بحق التشريع الكنسي تخضع لأسقف^(١) هراقلية ، ونجد أن التاريخ الداخلي للكنيسة بعد أن اعترف بها مجلس الشيوخ يكاد يكون سردا لجهاد أسقف القسطنطينية في سبيل الظفر باستقلاله عن مطران هراقلية من جهة ، وفي سبيل سيطرته على منافسه في الاسكندرية من جهة أخرى . ولقد خرج بطريق روما الجديدة منتصرا ، وشاركه الإمبراطور هذا النصر : فقد رأس جستنيان الكنيسة كملك كاهن ، وأصبحت عاصمته مركز حياة الكنيسة وتنظيمها ، ومن الضروري أن نجمل هذا التطور .

تركز في القسطنطينية ، التي قامت على طراز روما القديمة

(١) إن تأسيس العاصمة الجديدة على يد قسطنطين أحدث انقلابا في الإدارة الكنسية لا يقل عن الانقلاب الذي أحدثته في الإدارة المدنية : فقد كانت بيزنطة حتى ذلك الحين اسقفية صغرى تخضع فيما يتعلق بالتشريع الكنسي لمطران هراقلية ؛ ومن الواضح أن مكانة بيزنطة هذه ، لا تليق بعاصمة العالم المسيحية الجديدة [القسطنطينية] .

وأخذت عنها مجلس الشيوخ ، ومحافظ المدينة (منذ ٣٥٩) ،
حكم الإمبراطورية المدنى . ووضع نظام الكنيسة فى الولايات
الشرقية على غرار نظم الحكم المدنى فيها . واختار القديس
بولس ، بعين القائد الماهر ، عواصم فى الولايات لتكون مراكز
استراتيجية لغزو العالم باسم المسيح . وكانت هذه هى القلاع التى
يجب غزوها بأى ثمن : وهنا التقت الكنيسة على وجه الخصوص
وجها لوجه مع مذهب عبادة الإمبراطور ، الذى كان موضع
سخط الكنيسة ومقتها . فهنا كان عرش الشيطان . وهكذا كان
من الطبيعى أن تنظر جماعات أهل المدن إلى أسقف المدينة كرئيس
لها حينما انتشرت الديانة الجديدة . وعند ما غير دقلديانوس^(١)
تنظيم الولايات المدنى ، عدل النظام الكنسى أيضاً بما يوافق
التغيير الجديد . وبذلك توحدت نظم الحكم فى الكنيسة
والحكومة فى الشرق .

(١) كانت الكنائس الكبرى فى العالم المسيحى قبل أن غير
دقلديانوس تنظيم الولايات المدنى هى كنائس عواصم البلاد الواقعة على البحر
الأبيض المتوسط الثلاث : وهى روما والاسكندرية وانطاكية ؛ وكان للمدن
الأخرى أساقفة ورجال دين تتوقف مكانتهم على أهمية بلدانهم من الناحية
المدنية . وحين غير دقلديانوس النظام المدنى ، سارت الكنيسة على النهج
الجديد فى نظامها .

وإذا رغبت إحدى الأسقفيات في تقديم نفسها على غيرها من مثيلاتها نظر القاس فيما إذا كانت قد أُسِّست على يد أحد الرسل . وكان هذا هو المقياس المعترف به في تقديم الكنائس بعضها على بعض . أما الشرق فقد حاول أن يجد تبريراً لهذا النظام الذي نشأ عن تطور تاريخي طويل ، وانتهى إلى النظرية القائلة بأن أسبقية المدينة في الميدان الكنسي لا بد أن تقوم على أسبقيتها في الميدان المدني : وسعت بيزنطة بعد ذلك إلى الانتصار على روما بحجة أخذتها من منطقتها (أى منطق روما) الذي يقول بالأسبقية : فإذا كانت روما تقول بأن القديس بطرس هو مؤسسها ، فقد اكتشفت روما الجديدة أن في مكنيتها باعتمادها على تزوير وقتي ، أن تدعى أن القديس أندرياس *Andrew* هو مؤسسها ، وأندرياس هو الذي أحضر بطرس إلى المسيح لأول مرة . غير أن قساوسة الجمع الديني^(١) العالمى الثانى ، الذى عقد في

(١) الجمع الديني العالمى *Œcumenical Council* مجمع يرأسه الامبراطور ويدعو الأساقفة من جميع أنحاء العالم التى توجد بها جماعات مسيحية ، أو من ينوب عنهم من رجال الدين ، للاجتماع . وكانت قراراته نافذة في العالم المسيحي . وقد عقدت سبعة مجامع دينية عالمية : عقد الأول بدعوة من الامبراطور قنسطنطين في نيقية سنة ٣٢٥ م ، والثانى هو مجمع القسطنطينية ٣٨١ م ، والثالث مجمع افسس سنة ٤٣١ م ، والرابع مجمع خلقيدونية ٤٥١ م . والخامس مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣ م ، والسادس =

القسطنطينية ٣٨١ م ، اعترفوا بالنظرية القديمة اعترافاً صريحاً ،
وحكموا لأسقفية العاصمة بالمكان الأول في الكنيسة الشرقية بعد
السدة الرسولية في روما ، « لأن القسطنطينية هي روما الجديدة »
وربما تأخر اعتراف روما بادعاء السدة الرسولية^(١) الجديدة
(بيزنطة) حتى أيام أنست الثاثة (١١٩٨ - ١٢١٦) ،
إلا أن ذلك الاعتراف قرر الأمر إلى الأبد ، ونحرت مدينة
الأباطرة من سيطرة هراقلية . وقد طُبِق نفس المبدأ في القرن
التاسع ، وتقررت مسألة ولاء بلغاريا للبابا أو البطريق ، (انظر
الفصل الرابع عشر)

وقد نشأت الخصومات التالية داخل الكنيسة نتيجة لتصميم
أساقفة الإسكندرية على أن يستخدما تأثيرهم وسيطرتهم في
مقاومة قوة القسطنطينية الناشئة .

وكانت مصر منذ أيام يوايوس قيصر تحتل مكانة شاذة في
الإمبراطورية ، ولم يسبق لها أن كانت عضوا عاملا في إدارة

= مجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ ، والسابع مجمع نيقية سنة ٧٨٧ م .

انظر RUNCIMAN, *Greek Civilization*, pp. 114 — 115.

EDWYN BEVAN, *Christianity*, pp. 82 sqq.

(١) لم تقر روما ادعاء القسطنطينية هذا لأنها كانت لا تأمن نتائجها .
وقد اعترفت بذلك أثناء احتلال اللاتين للقسطنطينية لأن كنيسة القسطنطينية
أصبحت تحت سيطرتها .

الولايات . وكانت الإسكندرية مركزها التجارى والثقافى الوحيد .
وكان مطرانها لا ينازعه أحد ، أما معاونو الأساقفة ورجال الدين
فقد كانوا لا يتمتعون باستقلال حقيقى . وكانت مصر لا تزال
أمة ؛ أما ملكيتها القديمة فقد أصابها تغير فقط ، وهو أن
البطريق ، وهو فرعون روى ، أصبح وكأنه ملك العاصمة . فهو
يمثل الشعب ، والكلمته فبهم قوة القانون تراه يدعو جيوشه من
الشعب والمتنسكين والرهبان فيهرعون من الصحراء العاصرة بالنسك
حاملين عصيهم ، فهم على استعداد لتلبية أوامره . وكانت
الإسكندرية تحارب معركة فى جهتين . كانت تحاول أن تتحرر
من ساطان روما القديمة على التبر ، وروما الجديدة على البسفور ،
مع العلم بأن السياسة كانت تلزمها أحياناً بمخالفة أحد الخصمين .
ولو إلى زمن ، لتكفل لنفسها النصر على الآخر . ولا مندوحة
لنا من تصوير هذا النزاع تصويراً موجزاً .

قام جاه الإسكندرية فى القرن الرابع على دفاعها عن العقيدة
الحقة ضد الأريوسيين الهرطقة . ولما كانت الغاية تبرر الوسطة ،
فقد كان المعاصرون على استعداد لأن يغفروا لأثناسيوس ، إذا دعت
الحاجة ، كل شئ ، فى نظير تصديه للدفاع عن العقيدة الأساسية
(الأرثوذكسية Orthodoxy) فعند ما خول الجمع فى ٣٨١

لبطريق القسطنطينية حق السيادة ، لم تتوان الإسكندرية في
تحدى ذلك القرار .

لكن القسطنطينية عملت على فوز مصر إلى زمن ؛ ومع أن
يوتروبيوس *Eutropius* — حاجب اركاديوس الخصى — حل
على بطريق الإسكندرية بالرغم من انتخاب كريستوم
Chrysostom أسقفاً لروما الجديدة سنة ٣٩٧ ، فإن نقد هذا
الرجل الأخلاقى العظيم الصريح أساء إلى الإمبراطورة إيدوكسيا
والبلاط ؛ ونجح ثيوفيلوس (تاوفيلوس) بطريق مصر في نفي
منافسه . وذهبت احتجاجات الغرب سدى .

وحينما نشبت المعركة الثانية أصبح كيرلس المنتصر أسقفاً
للاسكندرية ، بينما صار نسطوريوس الخبير بأساليب مدرسة
انطاكية في التاريخ والنقد ، بطريقاً للقسطنطينية (انتخب ٤٢٨) .
واتهم نسطوريوس بتقسيم شخصية المسيح إلى الكلمة المقدسة
والمسيح الإنسان . فنجح كيرلس ، مندوب البابا ، في إدانته وخلعه
في الجمع الدينى الثالث فى افيسوس سنة ٤٣١ . وخضع الإمبراطور
ثيودوسيوس الثانى ، بعد تردد ، لشخصية أسقف الإسكندرية
الأمرة ، فكان هذا نصراً ثانياً للاسكندرية^(١) .

(١) لقد حاولت الاسكندرية خلال القرن الخامس أن تحافظ على =

غير أن هذا أزعج روما ، وطلب ليو الأول من خليفة
كيرلس وهو ديوسقوروس *Dioscorus* ، أن يخضع لسلطة خليفة
بطرس : وكان في هذا الادعاء تحديد لسياسة البطريق الذي سعى
في عصر لاهوتى ، متذرعاً بالنصر فى أهم حقل — فى مملكة
العقيدة — إلى أن يفوز باستقلال كنسى ، وسيادة سياسية فى
وقت واحد .

وكان الراهب يوتيجيوس *Eutyches* فى مهاجمته نسطوريوس
يقول بأن المسيح لم يكن ذا شخصيّة واحدة فقط ، بل طبيعة
واحدة أيضاً ، ولهذا اتهم بالهرطقة . ونجح ديوسقوروس فى
مجمع افسسوس سنة ٤٤٩ م ، المسمى بمجمع اللصوص ، فى إدانة
فلاقيان بطريق القسطنطينية ، حامل لواء الاتهام ضد يوتيجيوس
وذلك أمام الملا . وخلف اناتاليوس ، أحد مشايخ ديوسقوروس

= ذلك النصر الذى أحرزته ، وذلك بفرض لاهوتها الخاص على العالم المسيحى .
وقد واثتها الفرصة حين قسم نسطوريوس بطريق القسطنطينية المسيح إلى
قسمين : مقدس وبشرى . وكانت هذه خطوة غير مستعجلة ، إذ يترتب
عليها منطقياً أن تهاجم حامية القسطنطينية المحبوبة ، صريح العذراء من جهة ،
وتتطوى من جهة أخرى على تهديد بضياغ لقبها « أم الإله » . وعلى هذا
فقد اتخذت الإسكندرية وروما مع الشعب البيزنطى ضده ، فأدانته المجمع الدينى
العالمى الثالث ، وهو مجمع افسسوس ٤٣١ م . فكان هذا نصراً ثانياً
للاسكندرية على يد بطريقتها القوي كيرلس .

انظر BAYNES and MOSS, *Byzantium*, pp. 59 sqq.

RUNCIMAN, *Op. Cit.* pp. 115 — 116.

فلافيان . وعبثا احتج البابا والإمبراطورية الغربية لثيودوسيوس .
وإذا فقد انتصرت الإسكندرية ، وأصبح بطريقتها الأقوى .

وإذا ، ما هي العوامل التي أدت بعد ذلك بسنين في مجمع
خلقيدونية سنة ٤٥١ م إلى إدانة مذهب يوتيكسوس ، وإلى نفي
ديوسقوروس ، والحد من نفوذ الاسكندرية ؟ لا صرية في أنه
بالرغم من أن أهل العاصمة المصرية ظلوا على ولائهم لبطريقتهم ،
فقد سئم من والوه من رجال الدين ذلك الاستبداد الذي لقوه
على يديه ، في الوقت الذي رفضت فيه الكنائس الأخرى
الاعتراف بسيادته .

فكان موت ثيودوسيوس الثاني (٤٥٠ ب . م) [عاملا]
أهم من ذلك [في إضعاف كنيسة الإسكندرية] فلم يعد في
مكانة خليفته الذي انتخب بتأثير بولس كيريا أن يدافع عن ادعاءات
الإسكندرية . إذ صمم هو وامراته العذراء على تدعيم سلطة
العرش ، وسعيا سعيا جديا في سبيل التوفيق الديني بين كنائس
الشرق . وكان مارقيان (*Marcianus*) ، كما يظهر ، على استعداد
للاتفاق مع ديوسقوروس ، إلا أنه أصر على أن يدعن الأخير ،
فرفض البطريق ذلك : فإما أن تغوز الإسكندرية بنصر مطلق ،
وإما أن يعتزل النزاع ويكسب تاج الشهيد .

وعرض باسيل ، أسقف سلوقية ، القضية على مجمع خلقيدونية بوضوح فقال : « يفضل ديوسقوروس أن يذهب جميع الأساقفة إلى المنفى بسببه . ويدعى هذا القديس بأنه ينافح عن العقيدة الأساسية ، غير أنه يعتبر شخصه فوق الله ، وفوق رسل روما والقسطنطينية وانطاكية ، وجميع الأساقفة الآخرين . فإذا هزمت الإسكندرية ، وقضى ديوسقوروس نجمه ، فلن يظل العالم بلا أسقف » . لقد صمم البابا والإمبراطور على تحطيم كبرياء مصر : لكن البطريق لن يذعن ، ولذا فقد جالب على نفسه خلعه ونفيه ، وكان هدف مجمع خلقيدونية انتصار القسطنطينية ، والانحياز الكلى للكنيسة الشرقية .

وأجاز المجمع الصيغة الغربية التي نقحها ليو الكبير وأوردها في رسالته العقيدية المسماة (Tomos) حيث قال : هناك طبيعتان يجب تمييزهما في المسيح حتى بعد تجسده ، وهما الإلهية والإنسانية . وقد ظل الاختلاف بينهما باقياً بالرغم من وحدة الشخصية . وكانت وجهة النظر اللاهوتية عند الإسكندرانيين تتجه دائماً إلى الصوفية والرمز ، وتؤكد طبيعة المسيح المقدسة ، حتى إنها تهمل طبيعته البشرية : وهكذا ابتاعت الناحية المقدسة الجانب البشرى ، وبذلك وصلت الكنيسة المصرية إلى اعتقادها بطبيعة مقدسة

واحدة تسمى المونوفيزية . وهكذا وقفت الفئة التي أسست الكنيسة القائلة بالطبيعة الواحدة صفاً واحداً في مقاومة التعريف الذي انتهى إليه مجمع ٤٥١ م وفي نبذ عقيدة ليو الكبير . وعلى هذا فقد انتهى بالناس إلى الحرب لا إلى الصلح . وقد سبق أن واجهت أباطرة الرومان المشكلة السياسية التالية : كيف ينسني لهم إتحاد مقاومة سوريا ومصر اللتين انحازتا بحماس للهراطقة ، والاتحاد مع الغرب الأرثوذكسي في الوقت ذاته ! ؟

لقد وحد منشور زينون المسمى بالهينوتيكون *Zeno's Henoticon* بين الكنائس الشرقية سنة ٤٨٢ م إلا أن ثمن ذلك كان الانشقاق عن روما سنة ٤٨٤ م . ولم يعمل أناستاسيوس (وهو مونوفيزي في قلبه) على إزالة سبب هذا الشقاق . واستأنف جوستين اتحاد مع الغرب ، لكن يعقوب البردي *Jacobus Baradaeos* أسس الكنيسة اليعقوبية المستقلة في حكم جستنيان . وسعى بيت هرقل مرة أخرى لإيجاد اتحاد مع المونوفيزيين ، غير أن عقيدة القوة الناشئة عن طبيعة واحدة أو إرادة واحدة في المسيح المتجسد لم يكن في استطاعتها الصمود طويلاً ؛ ولم تكف هذه المعضلة عن إزعاج سياستي الإمبراطورية إلا حين استولى المسلمون على سوريا ومصر ، موئل الهراطقة ، واستطاعت

الإمبراطورية الآن أن تكون أرثوذكسية ؛ وهكذا استطاع
جستنيان الثاني أن يعقد الصلح مع روما .

وعندما أصبحت البطريركيات الرومانية الشرقية اسقفيات
في بلاد الكفار بقي بطريق القسطنطينية بلا منازع . وأصبح
تشريعه يسرى على الإمبراطورية . إلا أن بطريق العاصمة عاش
في ظل القصر الإمبراطوري ، وكان قنسطنطين الإمبراطور المسيحي
الأول ، ومعيد سيادة الدولة الرومانية . وكان فشل أساقفة الغرب
عندما جاء إلى القسطنطينية ، قد علمه كيف يحل المعضلة الدونانية^(١)
ذلك أنه لم يعد يستطيع أن يترك للسلطات الكنسية حكومة
الكنيسة الغير المنظمة . فقد أبان الإمبراطور ، الذي دعا مجمع نيقية
ووجهه لخلقائه ، الطريق بحيث لم يعد في مقدور أى بطريق لروما
الجديدة أن يقاوم الإرادة الإمبراطورية أو أن يحتجب أوامرها .
وهكذا كان انتصار الأرثوذكسية الخلقيدونية ، وانتصار فكرة
توحيد الكنيسة ختاماً للنزاع الذي قام من أجل السيادة في داخل
الكنيسة الشرقية .

(١) الدونانية : فرقة نصرانية ظهرت في افريقية في العصر البيزنطى
وهي منسوبة إلى أسقف يسمى دوناتوس عارض أسقف قرطاجنة والتف
حول طائفة من القساوسة ، وتكونت منهم فرقة دينية ظلت تناوى كنيسة
قرطاجنة حتى أيام جستنيان .

E. F. GAUTIER, *Le Passé de l'Afrique du nord*, : انظر
pp. 260 sqq.

وشهد القرن السادس آخر هجوم شُن على الوثنية الباقية في الإمبراطورية . وتوالت التشريعات في محاربة الهرطقة من جهة والوثنيين من جهة أخرى خلال أكثر من مائتي سنة . واستعمل قسطنطين العنف في القضاء على الدوناتيين الأفريقيين بحجة أنهم مهددون للأمن أكثر منهم مارقين على العقيدة . وحاول قسطنطينوس وفالنس فرض الأريوسية بالقوة . وترك ثيودوسيوس الأول أمر اتخاذ إجراءات حاسمة في ذلك الموضوع ، ففتحته الكنيسة المتحمسة من أجل ذلك لقب « العظيم » . وحيل بين الهرطقة وبين الاشتراك في وظائف الكنيسة ، ونفوا من القسطنطينية ، وحُرِّم على اليونوميين والمانويين [أتباع مذهب ماني] حق الوراثة والتوريث . وعمم ثيودوسيوس الثاني هذا الحرمان على الجميع . فكان اليونوميون زمن ثيودوسيوس الكبير محرومين من دخول وظائف البلاط والجيش ، بينما جرد ثيودوسيوس الأصغر الهرطقة من حق دخول الخدمة العسكرية بمنشور علني . وكان جستنيان أكثر قسوة منه ، ويمكن تلخيص آرائه عن الحكومة في العبارة الموجزة : حكومة واحدة ، وقانون واحد ، وكنيسة واحدة . وبالرغم من أن الهرطقة كانوا يؤدون ما يقع على المواطنين من أعباء ، فقد حُرِّم عليهم التمتع

بامتيازاتهم . وحرّمت عليهم قوانينه الاشتغال بالمهن الحرة ، بل
تقرر هدم كنائسهم وأغلقت دونهم الاجتماعات العامة ، وأصبحت
شهاداتهم القانونية ضد الأرثوذكسيين غير مقبولة ، وأضحت
وصاياهم لاغية ، وفقدوا ما يخوّلهم حق الوراثة ولو بوصيّة اختيارية ،
وحق وراثة شخص توفي دون أن يوصى . فأصبح المنشق عن
الكنيسة منبوذ المجتمع ؛ وكانت سياسة جستنيان فيما يختص
بالمناويين سياسة إبادة : فخصائص الروح فوق خصائص الجسد ،
وإذا يجب القضاء التام على كل ما من شأنه أن يسبب العدوى .

وقد صدرت سلسلة أخرى من القوانين ضد الوثنية . ومن
الثابت أن قنسطنطين أذاع منشوراً يحرم القرايين العامة والخاصة
على السواء ، وأمر بالآل يعاد بناء المعابد المتهدمة ؛ وأمر قنسطنطيوس
بإغلاق المعابد (مخافة أن تكون المعابد المدرسة مصدراً للخطيئة) .
ومنع ثيودوسيوس الكبير أى عابد من دخول المعبد ، واعتبر
مقدم القرايين والخائن على قدم المساواة سنة ٣٩٢ م ، وعلى هذا
حقّ للدولة أن تصادر أمواله . حتى لقد أذيع أن عبادة لاريس^(١)

(١) لاريس *Lares* : وهي أرواح الأجداد الموتى ، التي تحمى
الأسرة . وهناك لاريس برايستيتيس *Lares Praestites* التي تحمى
المدينة جميعها .

Lares و بناتيس ^(١) *Penates* — وهى عبادات كانت تمارس فى البيوت — غير قانونية . وأبعد ثيودوسيوس الثانى سنة ٤١٦ م جميع الوثنيين من الخدمة المدنية والعسكرية فى الإمبراطورية . واستطاع الحاكم المطلق أن يؤكد فى أحد نصريحاته السامية بعد بضع سنين بقوله « لم تعد هناك وثنية فيما نعتقد » . ولا شك فى أن هذا التفكير كان وليد الرغبة لأن يوحنا الافيسوسى كان قد أدخل خلال القرن السادس ألوفا فى المسيحية قسراً (دون أن يعتنقوها فعلاً) .

لم يتمتع سكان الرها عن الاحتفال بعيدهم الليلي بالمشاعل فى سنة ٤٩٦ إلا بعد وقوع معجزتين مفرعتين — وعلى القارىء أن يرجع إلى ما كتبه « يوشع العمودى » عن هذه الأعياد الوثنية (ترجمة رايت صفحة ١٨ — ٢١) ، ولكن الحال فى العاصمة تغير بعد ثمانين سنة ، إذ أنه عندما اتهم أناثاليوس الانطاكى بالاشتراك فى تقديم قربان ، خشى الناس أن ينجو من العقاب بتأثير أصدقائه ، فهاجوا وماجوا ، وأخذوا يصيحون : إن الأسقف والإمبراطور يخونان العقيدة ؛ ولم يكن هناك سبيل

(١) بناتيس *Penates* : وهى آلهة الأسرة الرومانية ، منها ما هو خاص بالأسرة وما هو تابع للدولة . وقد أشار أقدم المؤلفين إلى أن اينياس هو الذى جلب هذه الآلهة *Penates* من طروادة إلى إيطاليا .

لإعادة النظام سوى إلقاء المجرم في الملعب لتمزقه الوحوش ، ثم صلبه ، وإلقائه في النهاية طعمة للذئاب . وكان هذا العقاب المثالي نهاية الوثنية في القسطنطينية ، بينما كان إغلاق جستنيان لجامعة أثينا بمثابة اللحن الجنائزى للفلسفة الوثنية .

ونتيجة عن هذا التشريع دخول كثيرين في المسيحية . بيد أن الغالب أن هؤلاء المتنصرين الجدد كانت رهبتهم للإله المسيح ناتجة عن خوف من الناس ، في حين ظلت قلوبهم في واد آخر ، وظلت على ولائها للعقيدة القديمة . وقد عرف ذلك العصر كثيرين من طراز أسقف براى الذين مكنت لهم عقيدتهم المرنة بأن يظلوا في ضياء لطف الإمبراطور سواء أكان سيدهم مسيحياً أرثوذكسياً ، أم ملحداً متعصباً ، أم وثنياً متشدداً كيوليان المرتد . وهكذا انحطت المقاييس الأخلاقية والدينية داخل الكنيسة . وشعر الناس أن الحياة المسيحية أخذت تفقد مثلها العليا المتشدة . فأخذوا يجاهدون في سبيل الإفلات من عالم لا يحتمل في نظرهم . وامتلاّت جنبات صحارى مصر بطالبي العزلة الذين يبتغون الوصول إلى الله . غير أنهم لم ينفصلوا عن الكنيسة المنظمة انفصالا فعلياً كما فعل المونتانيون أو البيوريثان الأول . لكنهم كفّوا أنفسهم بأنفسهم ، وكانوا في غنى عن حظيرة

الكنيسة . وهكذا قامت الرهبنة منفصلةً عن الكنيسة : وكانت من ناحية احتجاجاً فردياً على نظام قام بأكبر نصيب في تأييد الدولة . ولما كانت الكنيسة تسعى لتركيز سلطاتها في حكومتها الداخلية ، فقد قررت أن تحول دون بقاء أية حركة دينية خارجة عنها . ولا مفر لأى لون من ألوان التدين من أن يؤيد قضيتها . وإذا كان لا بد من تكييف الحركة الجديدة بما يلائم أغراض الكنيسة ، فإنها — أى الكنيسة — كانت مستعدة لترتيب معونة مالية مؤقتة توصلها إلى أغراضها . فإذا خضع الميل الجديد إلى التقشف لإدارتها أصبح من اللازم عليها تخطيطه . وأصبح لزاماً على الزاهد أن يتصل بأوائلئك الذين يشاركونه الاعتقاد بمثله العليا . إذ أن ذلك يفسح المجال أمامه لممارسة فضائل المسيحية . وذلك ما فعله يوستاثيوس السبسطى وباسيل الكبير . فقد سعى الأخير إلى إقامة الرهبنة على أساس روحى : فالراهب هو من سار طبق تعاليم الإنجيل « فأدى واجباته ووضع الكمال نصب عينيه ، وراض نفسه عن طريق الوحدة وإنكار الذات والقناعة على الوصول إلى الهدف الأسمى ، ألا وهو الاتحاد مع الله » فحياة الراهب فى نظر باسيل خاملة غير مجدية ، فما العمل الزراعى وممارسة الحرف فى نظره إلا جزء من حياة المتعبد ؛ وكانت قواعده

نموذجاً نسج على منواله القديس بندكت حين وضع نظم الرهبنة في الغرب .

ومهما يكن من أمر ، فإن مساكنهم التي اتخذوها لتنسكهم في الكهوف المنزلة أو جعلوها معلقة فوق صخور الجبال هو الذي أيقظ الشعور بالإجلال والرغبة والحماس العاطفي في نفوس عامة الشعب ؛ فخرج الحجاج من الشرق والغرب لإلقاء نظرة على القديس العمودي الذي قضى سنين طويلة على عموده حتى فقد القدرة على الوقوف ، وأصبح لا يعينه على الوقوف سوى الرباط الذي كان يمسكه بعموده^(١) .

وسعت الكنيسة مرة أخرى لتحويل هذا التنسك المحبب الشائع لخدمة أغراضها . فاضطر باسيليوس المتعصب أن يهجر الهرطقة حين رأى دانيال مؤرم القدمين يترنح في خطوه قادمة عليه من عموده الذي لم يدفعه إلى تركه إلا ما شعر به من تهديد هذه الهرطقة للعقيدة . وما حدث الأسقف الذي انتظر في قيظ المهجير ذات يوم صائف طويل يتوسل إلى القديس العمودي أن ينزل سلمه لكي يرسمه ، ورسمه على رغبته وبدون أن يلمس رأسه كما

(١) إن الدافع الأصلي لهذا النوع من التقشف — على ما يرجح —

هو أن يجعل الراهب عاجزاً عن القيام بأية حركة . ولا عمل للظن بأن لهذا أية علاقة بأشكال التقشف الوثني القديم .



القديس سيمعان (سيميون) العمودي جالساً على عموده
عن أحد مؤلفات باسيل الثاني

تفصى طقوس الترسيم ، إلا صورة لما كانت الكنيسة تدعيه من أن كل الحركات تابعة لها ، وأن في إمكانها أن تحتضن كل شيء ذى أثر ، من شأنه أن يقوى سلطانها على حياة الإمبراطورية والفكر فيها .

وقد رأينا (ص ٣٣) أن الحاج (إلى الأماكن المقدسة) كان يعود حاملا معه تمثالا أو صورة للقديس ، وربما كانت هذه العادة من العوامل التى أعانت على تقوية عبادة الصور التى نشأ عنها نزاع اللاصورية الذى طال أمده .

وكان قلب الإمبراطورية فى القرن التاسع إنما يوجد فى آسيا وأرمينية ، حيث كان سلطان الحركة التقشفية لا يزال قويا ؛ فهنا كان موئل البولسيين (Paulicians)^(١) ، الذين كانوا يمتنون الرهبنة ؛ وهم الذين احتجوا على خزعبلات الكنيسة وشعائرها الخرافية . ومن هنا نشأ الأباطرة اللاصوريون ، وناصرهم الجيش الذى كان يُجمع على الأغلب من آسيا الصغرى وأرمينية ،

(١) البولسيون *Paulicians* : هم إحدى الطوائف التى تقول بالثنائية وكانت تحاول فيما بين ٦٦٨ ، ٨٧٥ نشر عقيدتها بين الأرمنيين وخاصة فى منطقتى بنطس والفرات . وقد قاومهم باسيل الأول فى القرن التاسع وأسكنهم على تخوم بلغاريا .

انظر : BAYNES and MOSS : *Byzantium*, p. 131, 353.

RUNCIMAN : *op. cit.* p. 118.

وكثير من رجال الخدمة المدنية والأساقفة . ووقفت بلاد اليونان الأوروبية مع الأديرة تذود عن الصور .

وقد ضاعت ، اسوء الحظ ، كتابات اللاصوريين ، ونستطيع أن نبني أسس مهاجنتهم لعبادة التماثيل مما كتبه خصومهم . ومما يقيسرننا ملاحظته على الأقل أن محطى الصور لم يكونوا من أنصار المذهب العقلى كما صوروهم أحيانا ، بل كانوا مصلحين دينيين ؛ فكانوا ينظرون إلى شعور الناس بالاحترام نحو الصور نظرتهم إلى عبادة الأصنام أو نوع من أنواع الانحطاط . والواقع أن شيوع تقديس الصور وتوقيرها كان حريا أن يذهب إلى مدى بعيد (لو أنه ترك دون مقاومة) ، فقد بلغ الأمر أن كان الناس يختارون صورة لتكون أب العمودية لطفل . أما الحزب الامبراطورى فقد اعتبر محاولة تصوير الإلهى فى صورة بشرية ، وتصوير أسرار الروح تصويرا ماديا من قبيل الزيغ والاجتراء . ألم يكن من المصادقات الغريبة أن تكون غزوات العرب ، أعداء الصور ، عقابا أنزلته السماء المغضبة ؟

ولم يكن عباد الصور أقل إخلاصا لمبدئهم : فالواقع أن كثيرين منهم نظروا للنزاع على أنه جهاد للبقاء . فشعر صناع الصور المجيدون من أهل افيسوس أن الخطر يتهدد مورد رزقهم لأنهم

كانوا يعيشون من رسم الصور المقدسة . وكان الخطر يتهدد نتائج أخرى أبعد من هذه في نظر الآخرين . وظل بعض أنصار الصور يناخون عن مبدئهم بحجة كان الشرق يقول بها في وقت مبكر منذ القرن الرابع ، وأخذها الغرب فيما بعد ، ألا وهي أن الصور المقدسة إنجيلُ الجاهل ، فالصور ما هي إلا مذكر ، وهي للنظر بمثابة الكلمات للأذن ، مهمتها الإيضاح والتقريب .

وكان أنصار عبادة الصور يدافعون عنها بحجج أعمق من القول بأنها كانت مجرد وسيلة لتعليم الناس وبعث الحمية في نفوسهم . فقد كانوا يقولون ان اتجاه العقل الإنسانى إلى التماس المعاونة من قوى وراء الصور المتجسدة أمر طبيعى لا يحتاج إلى مناقشة . فمحاولة القضاء على الصور المقدسة مصيرها الفشل منذ البداية ، لأن الناس حاولوا منذ بدء الخليقة أن يصوروا تلك الأشياء غير المنظورة التى تتعلق بالله — بالصور . فلكل شىء مغزىان : مادى وروحى . والروح تستتر وراء حجاب الجسد . وفى استطاعتنا أن نصغى للكلمات المادية عن طريق الأذن الجسدية ، وعن هذا الطريق نفهم الحقائق الروحية . والتعميد لا يتم إلا بعملية مزدوجة — مادية بالماء وروحية — وهكذا دخول الإنسان فى زمرة المؤمنين والصلاة والترتيل . وكان

اللاصوريون في الواقع يقولون إن كراهيتهم للصور ناشئة عن وجهة نظرهم إلى المادة ، فقد كانوا يعتقدون أن المادة شر . لكن هذا يضم في ثناياه ثنائية مانوية مستحيلة . فالمسيح باستحالته إلى لحم قدس المادة . وإذا أنكرنا إمكان تصوير المسيح تصويراً مادياً كان معنى ذلك أننا نفكر التجسد ، أى أننا نصوب ضربة إلى المركز الذي نعتقد حوله آمال المسيحيين . فنحن لا نعبد المادة ، وإنما نعبد إله المادة ، الذي أصبح مادة من أجلنا ، فاتخذها مسكناً له ، وأخذ يعمل وهو في قيدها . لا ، إن المادة لا تُحتقر ، فليس لنا أن نحقر شيئاً مصدره الله ، ولا يُحتقر إلا ما ابتدعه الإنسان - ألا وهو الخطيئة . فالدعاء لأولئك الذين تحملهم الصورة ينفخ المادة قوة مقدسة : والمادة كمادة فقط ليست بذات قيمة ، إلا أن الشخص الممثل في الصورة إذا كان على جانب من جلال الورع ، فإن العابدين يشاركونه ورعه على قدر إيمانهم به . وكما كتب القديس باسيل يقول : « إن تكريم الصور يوصلنا إلى أصحابها » . ومجمل القول إن أنصار الصور يؤكدون أنك إذا لم تعبد الصورة فأنت لا تعبد ابن الإله ، الصورة الحية للإله غير المنظور .

وقد انتصر عبادة الصور ، وعاشت الصور المقدسة . وقد

درجنا على القول بأن التماثيل أبعدت من بيت الله نتيجة لهذا النزاع . وقد نتساءل أحياناً عما إذا كان لدينا دليل مقنع على ذبوع استعمال التماثيل في كنائس الإمبراطورية الشرقية حتى النزاع حول اللاصورية .

غير أن معركة اللاصورية اكتسبت في مرحلتها الثانية طابعاً سياسياً ؛ وقد رأى البعض أن الاضطهاد في هذه الفترة الأخيرة كان مقصوراً على القسطنطينية لأن الإمبراطور ربما سعى عن هذا السبيل لأن يكون سيد العاصمة . ولم يكن الرهبان مجرد مدافعين عن الصور ، فيزدودون عن تقليد كنسى فحسب ، بل كانوا ثوريين على طريقته الخاصة . لقد كانوا ينافحون عن حرية جديدة ، ويجاهدون في سبيل تحطيم العلاقة بين الكنيسة والدولة ، تلك العلاقة التي توطدت منذ زمن طويل في العالم البيزنطى ؛ لأن امبراطور روما الشرقية لم يكن حامى الدين فحسب بل كان رئيس الكنيسة ، وورث قسطنطين الكبير . وكان في مقدوره وحده أن يدعو المجمع الكنسى — برلمان الإمبراطور الدينى — حيث كانت الإجراءات صـورة عن شبهاتها في السناتو الديوى ، وحيث اتخذ الإنجيل مكان هيكل النصرالوثنى . وكان مندوبوه العلمانيون يرأسون اجتماعات المجمع ؛

وكانت قراراته التي يتخذها لا تفوز بالصبغة التنفيذية حتى يوافق الإمبراطور على جعلها سارية المفعول . وحتى هذه المجامع بدت بعد مدة ديموقراطية إلى درجة خطيرة . واستطاع الإمبراطور الأوتوقراطي أن يحدد عقائد الكنيسة بمنشورات امبراطورية . وكان الإمبراطور في الحقيقة يعين أسقف البلاط الذي كان في مقدوره أن ينفذ إرادته في المسائل الدينية عن طريق عزل البطارقة العاصين . ولقد نادى رعايا جستنيان به ملكا — كاهنا ، وأوضح أسقفه النظرية القيصرية بقوله : « يجب ألا يحدث شيء في الكنيسة ضد رغبة الإمبراطور »

وهذه النظرية عن علاقة الكنيسة بالدولة هي التي هاجمها ثيودور (من رجال دير ستودايوس) وأحد أنصار عبّاد الصور المتأخرين . فقد كان هؤلاء الآخرون لا يمانعون في إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله . ويوضح القديس يوحنا الدمشقي وجهة نظر هؤلاء الرهبان في قوله : « نحن نطيع الإمبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية أى في الولاء والضيريبة ، وما يحق له علينا من الجبايات . أما في الحكومة الكنسية فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب المقدس ، وشارحو القوانين الكنسية . فالتقدم السياسي من اختصاص الإمبراطور ، أما التنظيم الكنسي

فهو من اختصاص القسيسين والمعلمين ، وليس تجريدهم منه إلا من قبيل اللصوصية »

وهنا عجز أنصار عبادة الصور عن تحقيق هدفهم هذا . فقد ظلت النظرية القديمة سارية باختلاف واحد ، وهو أن الأباطرة كفوا عن السعى في تغيير العقيدة المسيحية عن طريق المنشورات الإمبراطورية ، لأن الكنيسة حين خرجت من النزاع حول اللاصورية أصبحت كنيسة أرثوذكسية بصورة أوفى من أى يوم مضى . وتوقف تطورها اللاهوتى . نعم إنها ظلت على أصدق الولاء لعقيدة الآباء ، لكن هذا الإخلاص القلبي ذاته هو الذى جعل من الصعب عليها أن تعبد الله بكل تفكيرها . وبدان ليسوا من أتباعها ، ممن كانوا يعجبون بولائها الذى لا يتطرق إليه الوهن لتراثها العظيم ، أن أعمالها تتصف بالجن ، لأنها لم تجرؤ على السير فى الطريق الذى تعمده روح الحق لى تفضى بنفسها إلى الحقيقة الكاملة حتى تستطيع أن تتحرر تحرراً حقيقياً^(١) .

(١) عبارة المؤلف هنا تصور مجموعة من التطورات الهامة التى مرت بها الكنيسة الشرقية خلال النزاع حول عبادة الصور وبعده ، ولكنها موجزة إيجازاً لا يستسيغه إلا من ألم بتفاصيل تاريخ هذه الكنيسة . ونفسر هذه التطورات فى النقاط التالية :

=

و بقی هناك موضوع الخصومة مع روما ؛ فيجب ألا ندعه بدون تعليق مختصر . فقد اتسمت الهوة بين الشرق والغرب مع السنين .

== ١ — إن أنصار عبادة الصور كانوا يسعون للتغلب على معارضة الأباطرة اللايقونيين بالقول بأنهم يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وما داموا يوفون القيصر حقه من الولاء وأداء الضرائب ، فمن حقهم أن يطالبوا الأباطرة بتركهم يعبدون الله ويوفونه حقه كما يتراءى لهم . ومن أكبر القائلين بهذه الدعوى يوحنا الدمشقي .

٢ — ولكنهم لم يوفقوا في إقناع الأباطرة بضرورة الانصراف عن التدخل في شئون العقيدة ، فضى الأباطرة اللايقونيون يقودون الحرب ضد عباد الصور ويتدخلون في شئون الكنيسة .

٣ — ولكن تدخلهم في هذه الفترة كان يختلف عن تدخلهم في شئون الكنيسة البيزنطية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، فقد كان تدخل الأباطرة إذ ذاك عنيفاً شاملاً لأن الدولة كان فيها أرثوذكسيون وغير أرثوذكسيين ؛ فلما انفصلت مصر والشام والعراق عن جسد الدولة لم يبق فيها إلا الولايات الأرثوذكسية . ولم يمد هناك مجال لأن يتدخل الأباطرة تدخلاً مستمراً عنيفاً كما كان الحال في أيام جوستين الأول وجستنيان مثلاً .

٤ — ثم إن النزاع حول عبادة الصور نهض بالتفكير اللاهوتي في الدولة البيزنطية نهضة كبرى ، وأوضح معاني الأرثوذكسية وحدودها أيضاً كاملاً ، وهذا هو ما يشير إليه المؤلف بقوله : إن الكنيسة الأرثوذكسية خرجت من نزاع اللايقونية أرثوذكسية أكثر من أي يوم مضى .

٥ — وقد صرف هذا الصراع الكنيسة ورجالها عن العبادة الحقة ، وتركز همها في الدفاع عن الصور وعبادتها ، وتمسكت تمسكاً جامداً بعقيدة الآباء الأول . ومن ثم لم يعد في استطاعتها أن تعبد الله في حرية وتفكير صرف .

٦ — فلما صالح الأباطرة أنصار عبادة الصور قنعوا بذلك وكفوا عن السير في كفاحهم لتحرير العقيدة من سيطرة الأباطرة . ومن هنا رماهم أعداؤهم بالجهن والوقوف في منتصف الطريق .

حتى لقد انقطعت أواصر الصلة بين البلاطين الغربي والشرقي في أوائل القرن الخامس إلا أن يكون بعض ما كان يشور بينهما من نزاع سبباً في اتصال أحدهما بالآخر اتصال عداء . فكانت مشاكل الغرب والشرق في هذا العصر اللاهوتي مختلفة : إذ أن نزاعات قواد الغرب كانت عملية تدور حول علاقة الإنسان بالله — فكانت مسائلهم تختص بتخليص الإنسان أو تحريره من إرادته الإنسانية ، ونحت تأثير أوغسطين كانوا ينشئون لعقيدتهم نظاماً خاصاً مقنعاً . أما النزاع في الشرق فكان ميثافيزيقياً يدور حول علاقة أفراد الثالوث المقدس بعضهم ببعض ، ودار فيما بعد حول الطبيعة المزدوجة لابن الإله المتجسد . وكانت روما هي الملجأ الأخير الذي تطلب عونه كل طائفة قليلة مغلوطة على أمرها في الكنيسة الشرقية . وكان تدخل الغرب على ذلك في نظر الأكرثية تدخلا تنظيمياً من شأنه أن يقوم هرطقات الشرق . فلم تكن كنيسة روما على وفاق مع كنيسة القسطنطينية لمدة نصف القرون الخمسة التي تقع بين وصول قسطنطين للعرش والجمع الديني العالمي السابع (٧٨٧) .

وكان اختلاف اللغة بين الكنيستين أهم من ذلك كله :
فبينما كانت روما الجديدة تقوم في وسط يتكلم اليونانية ، كانت

إيطاليا في القرن الرابع قد كفت عن استعمال لغتين . ولم تنل هذه الحقيقة إيضاحاً كافياً ، إلا أنها حقيقة ثابتة . ففي القرن الخامس حينما اشتد النزاع بين نسطوريوس وكيرلس الإسكندري التجأ الطرفان إلى البابا ليفصل بينهما . وكان كيرلس حكيماً حين بعث ترجمة لاتينية مع شماسه بوسيدونيوس الذي كان يعرف اللغة الغربية . وكان البابا كويلاستين *Coelestin* حتى وصول هذا الشماس عاجزاً عن إجابة نسطوريوس لأنه عجز عن قراءة خطابه . ويتضح من هذا أنه لم يكن في روما حينذاك من يعرف اليونانية . وكذلك كانت رسائل البابوات للمجامع الدينية الشرقية تقرأ أولاً باللاتينية ثم تترجم إلى اليونانية لكي يتسنى لرجال الدين الشرقيين فهمها ؛ وكثيراً ما كانت تترجم ترجمة خاطئة . وقد شكّا من ذلك أيو الكبير . وكان يمثل روما عادة في المجامع أسقف شرقي ، وكان مندوبوها يلوذون بالصمت . حتى جريمحوري الكبير لم يستطع فهم اليونانية على الرغم من أنه كان ممثلاً للبابا في بلاط القسطنطينية سنين عديدة ؛ ولقد رفض أن يجيب سيده لاتينية كتبت إليه باليونانية . وحدث ذات مرة أن مات أمين السر اليوناني لإكزرك رافنا في القرن السابع فاستولى عليه اليأس . وبلغ جهل العالمين كل بلغة الآخر أقصى حده حينما وصف

إمبراطور روماني في ٨٦٧ اللاتينية بأنها « لغة بربرية » . وكان يقال من قبيل الرثاء : إن الشرق والغرب لم يستطيعا التفاهم لأن كلا منهما يجهل لغة الآخر . بل بلغ من اتساع الهوة بينهما أنها ظلت على حالها على رغم نشوء جالية في روما تتكون من الهاربين من اضطهاد اللاصوريين في الشرق ، وعلى رغم رحلات حجاج الغرب إلى الأراضي المقدسة ، وعودة جنوبي إيطاليا إلى حضيرة الدولة البيزنطية .

ولم يكن كبار البطارقة البيزنطيين في الحقيقة على استعداد لإطاعة ما تمليه روما ؛ فانهزوا بشوق فرصة اكتسابهم محبة الشعب ، وهاجموا مزاعم البابوية . ولما كان البطريق والبابا شخصيتين بارزتين في الوقت نفسه ، فقد نتج عن ذلك الانشقاق الديني : ومن أمثلة ذلك ما وقع من الانشقاق بين الاثنين نتيجة لتصادم فوتيوس ونيقولا الأول (٨٥٨—٨٦٧) . وفي سنة ١٠٥٤ اختلف البطريق كيrolاربوس المتطلع إلى السيادة مع ليو التاسع الذي كان مشجعاً بأراء المصلحين الكلونييين *Cluniac Reformers* العليا . ونتج عن ذلك أن أصبح النزاع مستمرا . وكانت روما كثيراً ما تلقن القسطنطينية درسا في موضوع الأرثوذكسية . ولكن بيزنطة حرصت على أرثوذكسيتها الخاصة بها ، واستطاعت

أن تدافع عنها في وجه الغرب . وكانت خصائص الطقوس التي صاغتها الكنيسة الشرقية في قرارات مجمع سنة ٦٩٢ قد اعتبرت لها المجاز كرتا لاستقلالها الكندي : وأضاف بوثيوس إلى هذا ، الاختلاف في العقيدة حول مسألة موكب الروح المقدس . وقاد قضية بيزنطة ضد روما قيادة مكنتها من الثبات إلى الأبد . وكانت إعادة الوحدة بعد سنة ١٠٥٤ هي مصدر إغراء الأباطرة للحصول على مساعدة عسكرية من الغرب . ومهما كان فهم رجل مثل أربان الثاني للوحدة ، فإنها لم تكن بالنسبة لآل كومنين سوى جزء من السياسة الإمبراطورية . وحين تمكن آل باليولوجوس من إيجاد صلح فعلى مع روما ، هاج شعور الشعب . فلم تزل الكنيسة الأرثوذكسية حتى اليوم كنيسة الجامع العالمية السبعة — كما كانت في أيام فوتيوس .

وقد حان الوقت لتقنين مقدار القوة والضعف في الكنيسة الأرثوذكسية . إن تدينها ينفردنا حين نقرأ أديها اليوم . إذ أنها علقت أكبر قيمة على فضيلة البكاء مدفوعة إلى ذلك بشعور متجدد بالخوف من الخطيئة ؛ وفيض الدمع في نظرنا نحن أهل الغرب — إنما هو نزوع خاص ينحصر بشكل رئيسي في الترتيل العاطفي . وإن الإنسان يشعر أن كرم رجل الكنيسة البيزنطي

إنما كان صادراً عن الأمل في الجزاء في العالم الآخر :

«هما نقرضك يا إلهنا
سوف يرد إلينا مضاعفا ألف مرة
ولهذا نعطيك عن طيب خاطر
يا من تهب الجميع .

وهذا تعبير رائع عن وجهة نظر الروماني الشرقي . ولنضف
إلى ذلك أن الكنيسة الشرقية أخذت تشك في الإنسانية ،
وتسعى لكبتها : فقد اعتبرت الأدب الكلاسيكي القديم خطراً .
وكان تلميذ افلاطون يعتبر في عداد الهرطقة ، وكان يعد في رأى
(محبي الآباء) خائناً . وكانت الكنيسة بالإضافة إلى ذلك
اغريقية . وفرضت اللغة الإغريقية على عابديها . وهكذا قضى
على لهجات آسيا الصغرى الوطنية . وقد انقذت الامبراطورية
الرومانية ، ومالت في آخر الأمر إلى السعى للتوفيق بين رغباتها
ورغبات الدولة . ولم تكن تفرض على الداخل في مذهبها أعباء
كثيرة ؛ فكانت تبدى تسامحاً كبيراً نحوه فيما يختص بعقيدته
وعبادته السابقة .

بيد أننا ينبغي أن نقرر أشياء أخرى كثيرة في كفة حسناتها ؛
فقد كانت الكنيسة اليونانية هي التي حددت للعالم المسيحي
معاني العقيدة العظيمة . وإذا كانت كنيسة تابعة للدولة إلى حد

كبير ، فقد كانت منشعبة بروح تبشيرية : فقد جاهدت في سبيل
إفهام العالم البربرى المقيم على حدود العالم الرومانى كلمة الحق
وأدخلته في رحابها ، وأقامت على ذلك في إصرار لا يكل .
ويرجع لها الفضل في إدخال الشعوب الصقلية في رحاب
المسيحية . وناصرت الدولة في جهادها لحماية إخوانها في الدين ممن
تعرضوا للاضطهاد ؛ فنقد قامت بسبب مساعدتها للمسيحيين
الأرمن أكثر من حرب واحدة مع الفرس . وإذا سلمنا بأنها
كانت كنيسة إغريقية ، فإننا نجد أنها بالرغم من ذلك على استعداد
حين تلتقى بأمة ما ، لأن تجيز اغتها الوطنية . وقد خلق إبحاؤها
الأدبين السورى والأرمنى ؛ وهى التى قدمت إلى هذه اللغات
المادة ، وغذت الحياة الجديدة التى بعثها إلى الوجود فى كيانها .
ومنحت القسطنطينية الصقلية الطقوس بلغتهم التى أنكرتها
عليهم روما . وإذا كانت تعادى فكرة الإنسانية فإن الفنون
وجدت مكانها فى كنائسها ؛ ونجد جميع الفنون البيزنطية التى
كتب لها البقاء ذات طابع كنسى . وإذا كانت قد خضعت
أحياناً للدولة فإن من أشياءها من عانى التشريد والعذاب والتنكيل
من أجل العقيدة . وإذا غلت أحياناً فى النزول لمستوى خزعبلات
عابديها الوضيعين ، فقد أهلتها هذه الحقيقة لتكون أقرب جداً

إلى أفراد الشعب الرومانى الشرقى . لقد عاشت بينهم وألهبت
وطنتهم ، وأضحت مركز الحياة القومية عندهم ؛ وكما يقول السير
وليم رامسى :

« لقد حركت رجال الشعب بقوة لم تكن لتبلغ مداها أى
عقيدة أخرى أكثر تساميا . وتبعاً لذلك كانت الكنيسة
الأرثوذكسية أوفق ما تكون لروح الامبراطورية وحياتها ، وأقدر
على أن تحفظ للامبراطورية وحدتها ، وأن توجه كل تعبير عن
العزة القومية ، وتعطيه شكله » .

وقد احتفظت الكنيسة — فى القرون المظلمة التى سيطر
عليها الضغط التركى — بجذوة الهيلينية المومضة تحت الرماد حية ،
ولا تزال تلك الكنيسة نفسها حتى اليوم على ولائها لأهدافها
التي وضعتها منذ قرون .

الفصل السادس

ملكية الأرض والضرائب

« لا شيء في حكم اليقين سوى الموت والضرائب »
بنيامين فرانكلين

لا يصعب علينا أهل إنجلترا في القرن العشرين ، أن نربط بين ملكية الأرض والضرائب ؛ وليس هذا بالنسبة لمن يتوفر على دراسة الإمبراطورية البيزنطية بالميزة القليلة . فهناك كما هي الحال في كل مكان ، يعتبر المشرعون والحكام الأرض مورداً رئيسياً لخزانة الدولة . فسكانت حاجة الخزانة المال تقرر التشريعات الخاصة بالزراعة . ولا يقضى لنا أن ندرس ملكية الأرض والضرائب دراسة توفى بالغرض مالم نتناولهما معاً (ويمكنك الرجوع إلى الفصل السابع للاطلاع على المالية البيزنطية بصورة عامة) .

كانت الأرض بالضرورة أسلم أنواع الاستثمار المالى قبل أن يتأسس نظام مالى واسع ، قومي أو دولي ، في عصرنا الحاضر ، لأن الأرض شيء ثابت لا يتخرب . فوضع صاحب رأس المال

ماله فى الأرض ، وكذلك فعلت الدولة لأن الأرض كانت أضمن
موارد دخلها . وكان الكيان المالى ، تبعاً لذلك ، يستند فى الدولة
البيزنطية على دعامة رئيسية وهى ضريبة الأرض التى كانت تجبى
فى كل مكان بشدة وفى غير لين .

وعندما تطور نظام الضريبة الجديد زمن دقلديانوس
انحطت قيمة العملة فى الإمبراطورية ، وأصبحت قيمتها تبعاً
لذلك عرضة للتقلبات حتى إن دفع المال للحكومة بعملتها لم
يكن يجر عليها سوى الإفلاس . وتحتّم إذاً إيجاد حل آخر
يستعاض به عن الضريبة المالية القديمة ، الثابتة القيمة ، التى
كانت تجبى من الولايات .

ويبدو أنه من العسير أن يتجاهل المرء حقيقة واقعة ، وهى
أن مصر كانت مصدر حلول كثيرة لسانة الإمبراطورية . غير
أن مصر جرت منذ زمن بعيد على أن تقدم ما عليها للإمبراطور
عيناً ؛ وتعودت الأفواه الجائعة فى روما الشعب من قبح مصر ،
وهكذا كانت ضريبة الأرض التى فرضها دقلديانوس تجمع
على شكل جزء من محصول الأرض . ولما كان من الضرورى
تموين فرق الجيش الجديدة ، وتلك الأعداد الضخمة التى زيدت
من الموظفين المدنيين ، وكذلك تموين أهل العاصمة الشرقية ،

ولما كان الأباطرة أيضاً لا يرغبون في أن ينفقوا ما لديهم من العملة المعدنية الثمينة في هذه المؤن من اللحم والقمح والزيت ، فقد كان على الولايات أن تقدم من ضرائبها الجرايات التي لم يكن الإمبراطور على استعداد لشراؤها .

ولقد كان الأباطرة قبل دقلديانوس يحملون الولايات أعباء غير عادية في الظروف التي مست الحاجة فيها إلى كميات ضخمة من المواد الغذائية في حالات الطوارئ النازلة . أما الآن ، وقد سقطت قيمة الضريبة المالية ، أصبح ما تحصله الدولة عن طريق الجبايات الشاذة هو دخلها المعتاد . لكن هذه الضرائب العينية ظلت على طابعها الأول ، أى أنها لم تكن ثابتة القيمة ، كالضريبة المالية ؛ وظلت كما كانت في الظروف السابقة جباية تقررها الحاجة الطارئة ، ويحدد قيمتها الأباطرة ومستشاروهم . فكان يصدر مرسوم يسمى « التفويض الإلهى » تقدر فيه نفقات الإمبراطورية ، ومقدار ما ينبغى على الفرد دفعه في العام النالى . ويعترضنا في هذا المقام السؤال الآتى : كيف كان كل فرد يعرف مقدار ما كان ينبغى عليه دفعه من هذه السكينة الضخمة المقررة ؟ يظهر لنا أن مصر مصدر الإجابة على هذا السؤال . فالزراعة هناك كانت تتوقف على فيضان النيل ؛ وإذا فالظروف

التي فرضتها الطبيعة على الزراعة كما يبدو لا تتغير . وجعل هذا الثبات النسبي في الزراعة المصرية من الممكن أن تُقسَّم الأرض إلى طبقات ، روعي في تقسيمها قدرة تربتها على الإنتاج : فهناك الصحراء التي لا يبللها القطر فتعجز عن الإنبات ؛ وهناك الأرض التي لو أنفقت عليها الأموال لأصبحت قابلة للحرث والزرع ؛ وهناك أصقاع كثيرة يمنحها النيل الخصب بطميه في مواعيده المنتظمة ؛ وهناك أيضاً أراض تغمرها المياه فتحرم النمو على البذور . وتتوقف درجات الإنتاج على هذا التصنيف الواضح للأرض . وكانت الدولة تفرض حقوقها على المزارعين بعد أن تميز وتسجل هذه الاحتلاقات ، وتضع خطأ بيانها يحدد قدرة كل منهم . وأخذ دقلديانوس هذا النظام ليطبقه على ولايات الإمبراطورية بوجه عام . فاتَّخَذت قطعة أرض معينة ذات قيمة معينة واعتبرت وحدة للضرائب (سميت *jugum* ومؤخراً *Zeugarion*) وقسمت الأرض المزروعة إلى طبقات يتميز بعضها عن بعض بشكل واضح ، وأخذت من كل من هذه الطبقات وحدات متساوية فيما تدفعه من الضريبة ، وإن اختلفت في المساحة ؛ وعلى أساس هذه الوحدات جرى حساب الضرائب المقررة على قطعة أرض من أى نوع . ويمكننا من الاطلاع على القانون الروماني اننا نأخذ

في ولاية سوريا أن نرى أن الوحدة المكونة من ٥ أفدنة من الكرم كانت تساوى ٢٠ فدانا من الأرض المحروثة ، وتساوى ٢٢٥ شجرة زيتون (أو ٤٥٠ شجرة زيتون إذا كانت الأرض تلالا) . وكانت هناك ثلاثة أنواع من الأرض المفلوحة ، جعلت الوحدة منها بين ٢٠ ، ٤٠ ، ٦٠ فدانا . وهكذا قسمت الأراضي المنتجة إلى وحدات ضرائبية تقدر على الأغلب بناء على شهادة أصحاب الأرض في فترات منظمة . لكن هذه الضريبة كانت تجبى على الأرض المفلوحة . وربما بدا لنا أن الوحدة الضريبية التي كانت تسمى (يوجوم) أريد بها أن تكون مساوية لقطعة من الأرض تقيم أودّ زارع واحد - رأس واحدة (*Caput*) . وإذا فنى مكنننا أن ننظر إلى هذه الوحدة من ناحيتين : فتراها من الناحية المادية تمثل قطعة من الأرض المفلوحة ، ومن الناحية البشرية تمثل الرجل الذى يفلحها . وهكذا فإن *iugatio* و *Capitatio* مظهران للضريبة نفسها^(١) . ومن الواضح أن نظاما كهذا لم يكن ليستطاع تطبيقه بنجاح إلا إذا احتفظ بالتعادل بين وحدات الأراضي ووحدات العمل التي كانت

(١) انظر A. PIGANIOL : *L'Impot de Capitation Sous*

le Bas-Empire Romain. Chambéry. 1916.

مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً . وكانت المحافظة على هذا التعادل مصدر قلق المالك والحاكم الروماني في عصر كان أهله في تناقص مستمر . واستطيع أن نقول انه كان من نتائج هذا القلق الدائم تصميم الحكومة على ربط الفلاح الحر — معبر الأرض *Colonus* — بالأرض التي يحرثها .

وبناء على ذلك ، حين يقرر « التفويض الإلهي » حاجة الإمبراطورية لإدارتها في السنة المقبلة توزع هذه السكينة الضخمة على أنوية (*Praefecturae = Praefectures*) الإمبراطورية ، ويقوم حاكم اللواء (*Praefectus Praetorius*) (*Practorian Praefect*) بتوزيعها بين الولايات التي ينقسم إليها لوائه . ثم يعهد الحاكم الولاية بتوزيع هذا الحمل بين بلديات الولاية ، ويعهد لأعضاء البلديات تقرير ما تدفعه كل من القرى الواقعة في محيط بلدهم ؛ وأخيراً يقوم موظفو القرية بتقرير المبلغ الذي يخص كل وحدة ضريبية في نواحيهم .

وكان هناك ميل قوى خلال القرن الرابع لاستبدال الضريبة العينية بما يعادلها من المال ؛ وانتهى الأمر بتعميم هذا الاستبدال ، وجعل إجباريا . وأصبح « التفويض الإلهي » يقرر الضريبة المالية المعادلة لها في نفس الوقت .

وكان الحاكم المطلق يضع نصب عينيه دائما أن يهيئ لرعاياه ،
بأى ثمن ، الوسيلة لحراثة الأرض وتوفير الأيدي العاملة لها . ولهذا
كان رجال الدولة الرومانية ينظرون إلى ما كان يعتمد إليه
الفلاحون الأحرار من بيع عملهم بالتعاقد في الأسواق مع من
يعطيهم أكبر أجر ممكن ، على أنه خطر اقتصادى ، شأنهم فى
ذلك شأن رجال القانون فى إنجلترا فى العصور الوسطى . وقد كان
من شأن نقص السكان فى الإمبراطورية الرومانية ، كما فى إنجلترا
فى العصور الوسطى ، أن رفع قيمة العامل ؛ ولهذا اشتمل دستور
الإمبراطورية فى القرن الرابع على قوانين تشبه قوانين العمال .
وكما أن دقلديانوس حاول أن ينقذ العالم الرومانى بالإبقاء على
وحدته عن طريق نظامه الاجتماعى الوراثى ، فقد سار خلفاؤه
فى نفس الاتجاه ، ووربطوا الفلاح بالأرض التى يشتغل عليها .
وهكذا أصبحت الطريقة التى يعمر بها الناس الأرض تقوم على
أساس تشريعى . ذلك أن مُعَمِّر الأرض كان شخصا متميزا عن
العبد ؛ وكان يُعتبر عاملا له الحق فى أن يحوز أرضا وأن يمتلكها ؛
إلا أنه أصبح مجبرا على القيام بواجبه فى زراعة قطعة معينة ثابتة
له من أرض الدولة أو الأرض الداخلة فى حدود أرض يمتلكها
مالك كبير . ولا مجال هنا للتعرض للأسئلة الشائكة التى تختص

بنظام الأراضي المعمرة إلا بكلمات ضرورية عن التطور السابق .
وقد أُلِّفت حول هذه المسألة مؤلفات كثيرة تقوم على أدب وعلم .
وفي هذا الموضوع أيضا نجد نقطة البدء في مصر . فحين
كان ملوك البطالسة يؤجرون الأراضي للفلاح الحر ، حرص
هؤلاء الملوك على إثبات بند في العقد يُلزم المستأجر أن يظل في
الأرض المؤجرة ، وأن يقوم على فلاحها بنفسه . وكان الرأسماليون
الافريقيون يقومون بمثل ذلك خلال أيام الامبراطورية الأولى ،
فحرصوا على أن يدرجوا في عقودهم مع هؤلاء المزارعين نصوصا
مشابهة لنصوص البطالسة ، والرجح أنهم نقلوها عنهم . وإذا ،
فتقوم المستعمرة هنا على أساس التعاقد . وقد ذهب بعض المؤرخين
إلى أن الالتزامات التي كانت تفرض على أسرى المتبربرين الذين
أقرهم ماركوس أوريليوس وخلفاؤه في الأرض كانت محددة
بعقود مشابهة ، ولكن هذا الحكم يدل على قلة تعمق . وحينما
وضع دقلديانوس نظامه الخاص بمنح الأرض لجنود الحدود
أخذت هذه الالتزامات صورة قانون ثابت ، وبذلك خرجت
عن دائرة العقود الفرضية ، وما شرعه دقلديانوس لجندي الحدود
أصبح في القرن الرابع قانونا عاما لفلاحي الامبراطورية كلهم .
ولم يقف الأمر عند إجبار الناس على الاستقرار في قطع

معينة من الأرض وإلزامهم بزراعتها ، بل ألزمت الجماعة بعد ذلك بضمان هذا الالتزام . وأصبح لزاما على هيئة كبراء كل بلد — الذين كانوا يكونون مجلسها — أن يلتزموا سداد الضرائب المستحقة على البلد وما يحيط به من القرى في حالة ما إذا هرب أحد الملاك ولم يخلفه في القيام بالتزاماته أحد . وما دامت المدينة تتحمل هذه المسؤولية الإجماعية فقد أصبح من الضروري أن يوضع ضمان لذلك ، ضمانا لصالح الخزانة . وعلى هذا فيجب خلقه حيث لا يوجد ؛ فكُونت مجالس جديدة لتحمل هذا العبء . وترينا سجلات العصر كيف كان هذا الحمل ثقيلا . وبينما كان الغنى يستطيع أن يرشو ليحصل على الإعفاء ، كان الفقير لا يجد من يعينه حينما وجه وجهه . وليس أمامه إلا القنوط والاستسلام أو الهرب . وإذا هجر أرضه فإن المال المقدر عليه يقع على كاهل الباقين . بينما كان كل إفلاس جديد لأحد مجالس القرية يعنى طعن الباقين بإيهاظهم . فهدد الخراب الطبقات المتوسطة . وأخذ القروى المزارع يبعث عن يحميه من مطالب الدولة : وكان المالك الكبير على استعداد للقيام بحمايته ، وحقق بذلك هدفا في نفسه ؛ فقد أصبح وليا للقرية (*Patronus*) يدين له أهلها بالولاء . وأخذت هذه العلاقة بينهم وبينه أشكالا عديدة كان أشيعها أن

يتنازل المزارع لذلك الرجل العظيم عن أرضه ، و يصبح مزارعا عنده .
وقد شهد القرن الرابع والرابع الأول من القرن الخامس
النزاع بين الدولة والمالك الكبير . غير أن خزانة الدولة لم تدب
بوضوح السبيل الحقيقي الذى يضمن لها مواردها . وكان لابد من
الاطمئنان على مواردها . وكان أعضاء مجالس القرى قد أنهكتهم
المطالب ؛ وظهر فى مناسبات كثيرة أنهم أشبه بالقصبة المشدوخة .
وكان من الواضح أن المالك الكبير يستطيع أن يستعمل سلطانه
— نائباً عن مزارعيه — فى مقاومة الدولة . بيد أن الدولة كانت
تكسب إذا هى جعلت مالك الأرض يقوم بجمع الضرائب لها ؛
إذ أنه كان فى مركز يحوله عن طريق ماله أن يقدم للدولة
الضمانات التى تريدها : وكانت الأرض كما لاحظنا آكد أنواع
الضمان : ففي ٤٣٥ م فازت وجهة النظر الأخيرة ، وخضعت الدولة
لليتروئس ، وهكذا استثنيت أصقاع شاسعة من أراضى الريف
من تلك المسؤولية الجماعية عن الضرائب التى تجمعت على كواهل
أعضاء مجالس القرى ، بينما أصبحت جماعة أهل القرية فى خلال
القرن الخامس مسؤولة مباشرة عن نصيبها من الضريبة (quota) .
وهكذا يتميز القرنان الخامس والسادس بنمو قوة الملاك الكبار ؛
وأصبح تاريخ الإمبراطورية بعد ذلك ، إذا نظرنا إليه من زاوية

معينة ، نزاعاً بين الدولة والملوك الأرستقراطيين . لأننا إذا صرفنا النظر عن الناحية المالية ، كان لابد للحكومة المركزية كما هو واضح أن تشجع المزارع الصغير وتقلل من سلطة السيد الإقطاعي الخطر . وشهد القرن السادس أفراد المواطنين يكونون عصابات مسلحة من التابعين — *Buccellarii* . وكانت هذه القوة الحربية تهديداً ماثلاً للسلام في الولايات : إذ كان الاصطياد في الماء العكر عملاً راجحاً ؛ وانا لنشهد في صفحات يوحنا النقيوسي صوراً حية للذهول الذي كانت تسببه خصومات النبلاء العظام . إذ كانوا يستطيعون بعصابتهم المنظمة تحدى السلطات المدنية . لكن غزوات الصقالبة الرحل ، والآفار في القرن السابع من الشمال ، وغزوات الفرس والعرب من الشرق والغرب ، استطاعت أن تكسر شوكتهم .

وحين استقرب النظام ثانية في زمن بيت هرقل كانت هناك فرصة جديدة للمالك الصغير ؛ بيد أن الملوك الأرستقراطيين في آسيا الصغرى مكنوا لسلطانهم خلال القرن العاشر إلى درجة مكفتهم من أن يضعوا أيديهم بعنف على الحكومة المركزية خلال القرن الحادى عشر .

وقد أصبح في استطاعتنا منذ زمن أن نتأمل حياة القرى في الدولة البيزنطية كما يصورها لنا قانون المزارعين . وينبغي علينا قبل كل شيء أن نميز بين القرية الحرة والقرية المملوكة لواحد من كبار الملاك : كان الفلاحون في كلتا القريتين مرتبطين بالأرض التي يزرعونها سواء بسواء . ولكن بينما كانت الأرض في القرية المملوكة ملكا للسيد ، وهو المسئول أمام الدولة عن جميع الضرائب بالنيابة عن عبده ممن ليس لهم الحق في امتلاك الأرض (فهي دائماً تحت تصرف سيدهم) ، كانت الأرض في القرية الحرة التي يسكنها المعمرون تخص جماعة القرية أو المزارعين أنفسهم . وكان هؤلاء أحراراً في امتلاك الأرض أو التصرف بها . ولو أننا دخلنا قرية حرة في أراضي الدولة البيزنطية لرأينا أن الأرض تشتمل على الكروم وأراضي البساتين التي كانت تزرع فيها الخضراوات ، وكذلك الأراضي المفلوحة والمراعي . وكانت الكروم والبساتين تحاط بخنادق وسياجات من الأوتاد الشائكة ، حيث كانت الماشية تتعرض للأذى إذا اقتحمتها . ولكن الأراضي غير المفلوحة لم تكن مسورة . وكانت على الأغلب ملكاً للأفراد يستطيع المزارع أن يتصرف بها كما يشاء في حدود ملكية جماعته . ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن أراضي الرعي كانت كحقول انجلترا تحرث حيناً

وترعى حيناً آخر ، وإنما كانت أراضي المراعى هى تلك الأراضي التى لم تكن صالحة للزراعة — كالأحراش التى لم تقطع أشجارها ، والأراضي الوعرة . وكانت هذه تقع على أطراف القرية بعيدة عن مركز الحياة فيها . وكانت على الأغلب ملكاً للجماعة ، ثم يملكها المزارعون قطعة قطعة . ثم تنظف وتعد للزراعة ؛ ثم تقسم وبهذا تدخل قطعة جديدة فى ملكية الأفراد . وقد تكون الأحراش ملكاً للأفراد ، فإذا أراد أحد من المزارعين أن يزرع قطعة منها ، طلب إلى صاحبها أن يأذن له بزراعتها ، ويستطيع بذلك أن يستثمرها ويحتفظ لنفسه بغلتها ثلاث سنين تعود بعدها إلى صاحبها . لكنه إذا زرعها دون إذن فقد الحق فى المطالبة بمحصولها .

وكان رعاة الماشية يسوقونها فى الصباح إلى هذه الأحراش العامة لترعى ، تصحبهم كلابهم القوية الشرهة ، حتى إذا اصطبع الأفق بحمرة الشفق عادوا بها إلى حظائرهم . وكان كل خروف أو ثور يحمل جرساً حول عنقه لئلا يضل . وإذا تجرأ لص وقطع الجرس ، وتسبب عن ذلك ضلال الحيوان وضياعه ألزم بدفع تعويض مقابل الخسارة .

وكانت دعامة ثروة جماعة القرية هو ما تملك من قطعان

الماشية بأنواعها . وكان الراعى يأخذ أجره على عمله ، فيعهد إليه المالك الصغير بثوره الخالص وخروفه فيرعاهما مع القطيع . فإذا شرد حيوان وأحدث ضرراً للأرض المزروعة أو الكروم لم يضع على الراعى أجره ، بل ألزم بتعويض الخسارة . وكانت الحيوانات المفترسة تحوم حول القرية ، كالذئاب التى كانت تترصد الخراف والحمير لتفترسها . وإذا هاجمت هذه الوحوش القطيع ليلاً ، فالويل كل الويل للصوص الذى يتضح أنه سرق كلب الحراسة ، إذ كان يلزم بدفع قيمة الخسارة ، فيدفع تعويضات عن القطيع جميعه ، والكلب . وكان يسمح للماشية بعد حصاد الأرض أن ترعى بقايا الزرع . إلا أنه لم يكن يسمح لرجل أن يطلق ماشيته فى أرضه إلا إذا فرغ كل جيرانه من حصادهم . ويمكننا تصوير الحياة اليومية للجماعات الفلاحين مما بين أيدينا من المصادر . ولا يسمح لنا المجال هنا إلا بإضافة بضع نقاط أخرى أولها يختص بمكانة المزارع : فقد يكون صاحب حصة من الأرض ، ويستطيع فى هذه الحالة أن يتصرف فيها تصرفاً مطلقاً فى حدود دائرة جماعته . وقد يكون مستأجراً للأرض ، وهو فى هذه الحالة أحد اثنين : إما مزارع لمزرعة فى حالة جيدة ، أو مستأجر لأرض لم تكن تزرع على شريطة أن يعيدها (بعد أجل معين) :

ففي الحالة الأولى يقوم المالك بتقديم المال الرئيسي لإقامة ما يلزم من الأبنية في المزرعة ، ولا تؤجر المزرعة في هذه الحالة إلا لمدة قصيرة قد تكون سنة ، فيدفع المزارع للسيد أجراً باهظاً يبلغ نصف المحصول السنوي ، وهو ما يقابل في حسابنا أكبر أجر يمكن دفعه ؛ وعلى المؤجر في الحالة الثانية أن يقدم رأس المال ، أى أنه يقوم في واقع الأمر بإنشاء مزرعة جديدة : ويكون استئجاره الأرض على هذا إما للأبد أو لعدد كبير من السنين ، ويدفع عادة أجراً يساوى عشر المحصول . وربما كان يلزم بمقتضى شروط أخرى ، أن يؤدي لصاحب الأرض خدمات ، أو أن يؤدي إليه أجزاء من المحصول . أما المزارع المالك لأرضه فقد كان حقه في حرية التصرف في أرضه خاضعاً لشرط جديد . . . وكانت روابط القرابة في الجماعات القروية متينة جداً بطبيعتها . وإذا وجدنا هناك فلاحين مشتركين في ملكية أرض ، فلا بد أن نجد أهما متصاهران في نفس الوقت غالباً . فإذا أراد أحدهما بيع نصيبه كله كان لقريبه حق الشفعة إذا دفع ثمناً مساوياً لما يدفعه أى غريب عنهما ، وحتى إذا لم يكن التجاورون أقرباء وكانوا شركاء ، تمتعوا بحق مشابه . . . وبعد فترة من الزمن أصبح هذا المبدأ يستند على أساس

جدّ فيما بعد واتسع ميدان تطبيقه ؛ فجاءة القرية كما رأينا مسئولة
معا أمام الدولة عن الضرائب . فإذا بقيت قطعة من الأرض
المنزعة بدون زراعة بسبب طارئ ، كهروب صاحبها مثلا ،
أجبرت الدولة مالكا قادرا على أن يتولى زراعة تلك الأرض ،
وألزمته بالأموال المقررة عليها ، وذلك لكي تؤمن الدخل . ولا
يشترط في هذه الحالة إلا أن تكون مساحة هذه الأرض متوسطة
إذا قورنت بأملأكه الأولى . وأخذ كل عضو من الجماعة تبعا
لذلك يهتم بايفاء دين الآخر . وأصبح حق الشفعة في النهاية من
حق كل فرد في القرية ، بل أصبح يعتمد على مصلحة المجموع
المالية لا على القرابة والمجاورة .

لكن حق المزارع الحر في التصرف لم يكن يخلو من خطر ،
فقد كان المالك الكبير دائم السعى لتوسيع ملكه ، فكان من
السهل عليه أن يضطر المالك الصغير الحر إلى التخلي عن أرضه
لجاره القوي . فحاول التشريع الإصلاحى في القرن العاشر أن
يحرّم على المالك الكبير حيازة أرض علاوة على أملاكه الأخرى
في حدود أرض القرية ، سواء أكان هذا عن طريق الهبة ،
أم لاعتبار آخر هام ، وسواء أكان المالك الكبير سيدا علمانيا
أم هيئة كنسية . والحقيقة أن تشريعات قوانين مورتمان التي
صدرت في إنجلترا خلال العصور الوسطى في القرن العاشر ، تجد

ما يماثلها في العصر الذي نتحدث عنه بالرغم من أنها وضعت من أجل هدف آخر . لكن هذا المنع لم يكن ليعيش طويلا في هيئته هذه ، ولهذا عدلت القوانين التي صدرت بعد ذلك ، وأُخِذَ بالقاعدة التي تقول بأن انتقال الملكية لا يصح إلا بين ناس من نفس الطبقة الاجتماعية ، الفقير ينقل للفقير ، والغنى للغنى ، أى كل لمن هو من طبقته في كل حالة . وتداعت القاعدة القانونية لنقل الملكية نقلا مطلقا من كل قيد أمام ما كانت السياسة ملزمة به من حماية الضعيف : وهناك تطورات مشابهة يمكن ملاحظتها بسهولة في وقتنا الحاضر (مثل قوانين تعويضات العمال وقانون النزاع التجارى) ، ذلك أن قوة الشركة المحدودة وقوة صاحب العمل الذي يستخدم العمال ، بالنسبة للعامل اليوم من حيث علو مركزه الاقتصادى ، تشبه مركز المالك الكبير القوى بالنسبة المزارع الصغير في الإمبراطورية الرومانية الشرقية . وكانت سلامته تعتبر كما هي الحال اليوم ، القاعدة التي يجب أن تنحني أمامها سائر النظريات القانونية . غير أن تشريع القرن العاشر هذا لم يكن عديم الفائدة من جهة أخرى ، فقد كانت نتيجته أن تأكد تقسيم المجتمع إلى طبقات بعضها فوق بعض ، وكان ذلك دعامة بناء المجتمع في القرن الرابع . ويمكن اعتبار هذا التأكيد نصرا نهائيا للمبدأ القائل بأن نصوص القانون فوق نصوص العقود .

الفصل السابع

الإدارة المدنية

العيوب الرئيسية للسلطان أربعة : التسويف والفساد والشدة واللين .
BACON : of Great Place.

١ - الهيئة الحاكمة

يجد من يرغب في معالجة نظم الحكم في روما الشرقية نفسه أمام أحد أمرين : إما أن يكتب كثيراً جداً أو قليلاً جداً ، لأن الموضوع على جانب كبير من التعقيد . ولما كنا مقتنعين بضرورة الإيجاز المناسب لهذا المقام ، وحرى يصين على ما فيه نفع القارئ ، فسنسلك الطريق الثانية .

كان الأساس في تنظيم دقلديانوس وقنسطنطين الإداري ، هو الفصل التام بين واجبات القائد العسكري (dux) والحاكم المدني (Praeses) . واقترن هذا بانقاص حجم الولايات بوجه عام حتى لا ينفرد القائد أو الحاكم بسلطة ربما تخلق منه منافساً خطراً للعرش . وتحتّم جمع السلطة في يد الإمبراطور . فتكونت لهذا الغرض هيئة حاكمة منظمة . وأصبح الحاكم المطلق مصدر

التشريع . وحرص هذا الحاكم على أن يهيمن على التشريع من جهة أخرى ، فجعل للناس الحق في استئناف القضايا إليه إذا لم تعجبهم الأحكام . فكان الإمبراطور مصدر السلطة والقانون على السواء ، يفسر هذا القانون ، ويضع حدود هذه السلطة التي منحت له .

وحينما تطور نظام إدارة الإمبراطورية كما نراها مثلاً زمن ثيودوسيوس الأول ، حوالى نهاية القرن الرابع ، نجدتها مقسمة إلى أربعة أقسام يسمى كل منها لواء (*Praefectura*) ، وعلى رأس كل منها أمير لواء إمبراطورى (*Praefectus Praetorius*) ، وينقسم كل من هذه الأربعة بدوره إلى عدد من الأقسام الإدارية *dioceses* يشرف على كل منها نائب أمير لواء (*Vicarius*) ، وكل قسم إدارى من هذه الأخيرة ينقسم إلى عدد من الولايات *provinces* على كل منها وال يخضع عادة لنائب أمير اللواء ، وهذا الأخير يخضع لأمر اللواء . وكان أمير اللواء مسئولاً أمام الإمبراطور . وهكذا أصبح أمير اللواء الآن جزءاً من الهيئة الحاكمة المدنية ، وهذه هي نهاية الطريق الذى تطورت خلاله هذه الوظيفة فى القرنين الثانى والثالث تطوراً متزايداً اكتسبت به طبيعتها القضائية والمدنية بالتدريج .

أما علاقته الوحيدة بالأمور العسكرية فقد نشأت في ذلك الحين من واجبه في الإشراف على تسجيل الأمداد للجيش ، وعلى توفير جرايات الجند . وكان من الطبيعي أيضاً أن يستشار فيما يختص بحركات الفرق العسكرية داخل لوائه . وكان الإمبراطور يوجه إليه القوانين التي يطلب منه تنفيذها في الولايات التي يديرها ، وله الحق في إصدار منشورات على شريطة ألا تتعارض مع القوانين ؛ فيقرر مقدار ما يجب تحصيله من الضرائب في كل سنة مع العلم بأن موافقة الإمبراطور كانت ضرورية عند زيادة الضرائب أو تخفيضها . وكان يشرف على الولاية عن طريق نوابه . بيد أنه من المهم أن ندرك أن النائب في نفسه الإداري لم يكن مجرد وكيل لأمير اللواء ، فقد كان في مقدوره أن يرفع تقاريره للإمبراطور مباشرة ، لأن الأخير هو الذي كان يعينه .

وهكذا نرى قيام نظام محكم متقن يمنع كل عنصر فيه العناصر الأخرى من الجموح . فقد كان الإمبراطور يرسل مبعوثين خصوصيين يتفقدون الإدارة المحلية ، وكان كل من الموظفين ينظر بعين الحسد إلى أعمال زميله . وكان الإمبراطور يستطيع في الوقت نفسه أن يتصل بالنائب ، حاكم القسم الإداري ،

عن طريق أمير اللواء الإمبراطوري حيناً ، ومباشرة حيناً آخر .
ومن هنا نرى أن الحاكم لم يعد تلك القوة الوحيدة في القسم
الإداري ، إذ كان إلى جانبه قائد عسكري يمارس سلطة كسلطة
الحاكم ، لكنه مستقل عنه في الوقت ذاته .

وكان كبير الوزراء في العاصمة رئيس الإدارات كلها
[*Magister Officiorum*] ، فكان حرس القصر يخضعون
لإشرافه ؛ وكذلك كانت تخضع له دور الصناعة . وكانت
جميع المراسلات مع حكام الولايات بين يديه ، وكان يشرف
على الدواوين الأربعة التي كانت تهيمن على المراسلات
الإمبراطورية . ولما كان كبير الوزراء هذا يشرف على تقديم
السفراء ، فقد كان في مقدوره أن يحدث أثراً كبيراً في السياسة
الخارجية ؛ فكان أيضاً يراقب نظام البريد الذي كان يجعل البلاط
على اتصال دائم بالحكام . وإذا فقد كان سلطان وظيفته يزداد
باستمرار على حساب أمير اللواء . وكان وزيراً المالية الكبيران هما
الكوند^(١) *Count* المشرف على الهبات المقدسة ، والكوند المشرف
على الأملاك الإمبراطورية [*Comes Rerum Privatarum*]

(١) قد سمي *Comes Sacrarum Largitionum* نسبة إلى الهبات
largitiones التي كان الإمبراطور يوزعها بين الجند في مختلف المناسبات .

ولم يكن الأول ، كما يمكن أن يوحى اسمه ، مجرد موزع أعلى لصدقات الإمبراطور ، فقد أصبحت مالية الإمبراطور الآن خزانة الدولة ، وأضحى رئيس الهبات المقدسة مسئولاً عن مالية الإمبراطورية بوجه عام . وأما رئيس الأملاك الإمبراطورية فقد كان يدير أملاك الإمبراطور الشاسعة التي تضخمت على حساب المحاكم السابقين الذين صودرت أملاكهم . وكان لأمراء الألوية بيوت ماله الخاصة التي كانوا ينفقون منها على مطالب الجيش . وكان زمام العاصمة في يد محافظ المدينة^(١) ، بينما كانت تقوم جماعات منظمة من فرق الملعب بدور الشرط .

وقد نشأت الحاجة إلى هيئة إدارية إمبراطورية واسعة لها أنظمتها الثابتة وطبقاتها المتميزة عن تقسيم الولايات إلى وحدات أصغر ، وضرورة وجود هيئة حاكمة جديدة من الموظفين . وقد استتبع قيام نظام الإدارات المركب بعضها فوق بعض نشوء سلسلة من الألقاب الرنانة بعضها فوق بعض . وكانت الغاية التي كان يهدف إليها فصل السالكين المدني والعسكري ، هي تركيز السلطة

(١) كانت وظيفة محافظ المدينة تأتي في الدرجة الثانية بعد وظيفة أمير اللواء الإمبراطوري *Praetorian Prefect* . وكان محافظ المدينة يشرف على النظام والأمن في العاصمة ، وكان مسئولاً عن المؤن والتقانات *Collegia* .

انظر : BAYNES and MOSS : *Byzantium*, p. 282 .
RUNCIMAN : *op. cit.* p. 85.

وزيادة صلاحية القائمين بأمرها . ونشأ عنه في الوقت ذاته تقليد إدارى ثابت . وكانت متانة هذا السلطان المسرف في المحافظة تقوم وكأنها أداة تمنع السير في التجديد بعجلة . وربما ناصر الإمبراطور أساليب جديدة أو غير بعض أسس الحكم ، لكنه كان إنسانا كغيره من الناس . أما عمر النظام الإدارى فكان طويلا . ولهذا كان الناس يعودون إلى السبل القديمة المطروقة . وكانت أية بدعة تصدر عن أى إمبراطور لا بد وأن تتلاشى أمام قوة ذلك الحشد من موظفى الدولة الراسخة ؛ إلا أننا نجد من ناحية أخرى أن هذه السطوة التقليدية الثقيلة حطمت أمل كثير من المصلحين وإرادتهم . وإت قراءة منشورات جستنيان تزيح النقاب عن النهاية الأليمة التى كانت تترصد النوايا الحسنة التى كانت تخامر الأباطرة .

ولقد تداعى نظام الإدارة « المقدس » ، تحت ضغط الهجمات التى توالى على الإمبراطورية خلال القرن السابع . وحينما أعيد بناء النظام من جديد ، جعل أساسه التناسق بين الموظفين بدلا من إتباع بعضهم لبعض كما كان الحال قبلا . فبقى نظام الرتب المتتابعة قائما بل زاد إحكاما ، واختفى نظام الوظائف السابق . فأصبحت الولايات أقساما عسكرية يحكمها قائد عسكرى (انظر

الفصل الثامن) لكنه كان يتلقى الأوامر من الإمبراطور وحده ، واختفى رؤساء الجند وأمرأء الألوية الإمبراطورية . فكانت نتيجة ذلك أن زادت وظيفة محافظ المدينة أهمية . وانهدمت الوزارات المركزية الكبيرة : وهي رئاسة الدواوين ، « وكونتية الهبات المقدسة » و « كونتية الأملاك المقدسة » وما كان ينبع كلا منها من إدارات ، وحل محلها عدد عظيم من الدواوين يكمل كل منها عمل الآخر ، وخص كل منها بعمل خاص ؛ بينما ظهر إلى الوجود وزير وحيد المالية *Sacellarius* ، الذى أصبح فى القرن التاسع يشرف على الوظائف التى تتعلق بالمالية أو إدارة موارد الدخل إشرافا عاما ومنظما . وقد خفف هذا إلى حد ما من أثر النقص الذى نتج عن عدم وجود ديوان مالى وحيد مركزى . وعلى الرغم من أن سلطة بعض الوظائف فى السنين الأخيرة (مثل وظيفة محافظ المدينة) قد اضمحلت وخلقت وظائف جديدة ، فقد بقيت الخطوط الرئيسية لهذا النظام حتى سقوط القسطنطينية فى ١٢٠٤ : ولو نظرنا إلى تاريخ القرن الثانى عشر من زاوية معينة لرأينا أنه كان فى الواقع صراعا على السلطان بين موظفى الدولة والارستقراطية العسكرية فى آسيا الصغرى . ولقد عاش التقليد الإدارى رغم الصعوبات المالية ورغم الأخطار الكثيرة .

وكانت حكومة روما الشرقية أداة فعالة للحكم ، ومنظمة تنظيمياً علمياً على الرغم مما كانت تتكاف من نفقات باهظة ، وعلى رغم ما كان يشوبها من الفساد وبطء حركتها وقلة مرونتها أثناء العمل : وجعلت هذه الحكومة قيام تلك الحياة الاجتماعية المؤسسة على حكم القانون أمراً ممكناً . وذلك هو ما كانت تتمنازبه الإمبراطورية عن البلاد الواقعة خلف حدودها .

٢ — إدارة القضاء

ومن الطبيعي في هذا المقام أن نعالج موضوع القضاء في العالم الروماني الشرقي باختصار . كان الحاكم المطلق كما رأينا المرجع الأخير في تفسير القوانين التي يذيعها . وكان في الإمكان استئناف أحكام جميع الحاكم للإمبراطور ، إلا إذا كان الحكم — كما كان الحال في الفترة الأولى — صادراً عن محكمة « أمير اللواء الإمبراطوري كممثل للإمبراطور » ، فكان الحكم الصادر عنه حكماً نهائياً . وكان في استطاعة الإنسان إذا ظن نفسه مظلوماً أن يقدم شكواه إلى وزارة الالتماسات ، فإذا لم ينصف ، كان في استطاعته أن يلجأ للإمبراطور نفسه : ولهذا كان ثيوفيلوس يستمع بانتظام ، أثناء مرور موكب الأسبوعي خلال

العاصمة إلى كنيسة العذراء في بُلخَرْنَاي *Bulchernaie* ، إلى ظلامات المتظلمين . وقد رأس القضاء ، بعد أن أُلغيت وظيفة أمير اللواء ، محافظ العاصمة بإساعده الإ. كوستر ، مع أن حق المحافظ في مباشرة القضاء انتقل منذ منتصف القرن الحادى عشر إلى الأميرال الأعلى (*Great Drungarius*) .

وكانت في القسطنطينية أيضاً محكمة عليا تتألف من اثنى عشر قاضياً كان الإمبراطور يحيل إليها قضايا قانونية هامة لتفصل فيها ؛ وكانت تحال القضايا الأقل أهمية إلى المحاكم الدنيا التي لا نعرف عنها إلا القليل . أما خارج العاصمة فقد كان يقوم على القضاء قضاة الولايات الذين كانت أحكامهم عرضة للاستئناف . وكان للمحاكم الكنسية إذا كان المدعى عليه رجلاً دينياً تشريع خاص ، بينما كان في إمكان المتخاصمين أن يحيلوا قضاياهم للمحاكم الكنسية إذا اتفقوا فيما بينهم على ذلك . وقد أمر الكسبوس كومنينوس أن تحكم المحاكم الكنسية في المسائل المتعلقة بالزواج ، أو المؤسسات الدينية التي أوقفها واهبوها على الخير تزكية لأرواحهم (١٠٨٦ ب . م) ؛ وكانت هذه المحاكم الكنسية تفصل في جميع القضايا المدنية عموماً إذا ما كان المدعى عليه من رجال الدين . ولقد تلاشت الفوارق الواضحة بين المحاكم

الكنسية والمدنية في القرون الأخيرة من الإمبراطورية الثانية .
ولم يتضح تأثير رجال الدين القائلين في القضاء إلا بعد غزو الأتراك .
وكان أهم مميز لقانون الجنايات البيزنطى كثرة استخدام
عقوبات قطع الأعضاء . وكان الأباطرة اللايقونيون هم الذين
أدخلوا هذا الأمر كبداً عام ، وربما رجع في أصله إلى إجراء
جرت به العادة — وربما قيل في الدفاع عن ذلك أنه كان
يكتفى بقطع عضو من أعضاء الإنسان في الحالات التي كانت
عقوبتها الموت أيام جستنيان ؛ وربما قيل أيضاً إن عقوبة الإعدام
في الحقيقة قد أخذت لهذا تختفى ، إلا أننا يجب أن نعترف بأن
هذه الحجة لا تنطبق على حالات كثيرة حيث كان القانون
الجنائى الأخير يحكم على المذنب بأن تشمل عيناه ، أو أن يجمع
أنفه ، أو أن ينحسر يده أو لسانه . وقد تطور هذا القانون الموروث
على يد الأتراك بعد سقوط القسطنطينية . حقاً ، لقد كان « حق
الالتجاء » يخفف من قسوة المشرع في هذه الناحية إلى حد
كبير — ذلك الحق الذى كان يبيح لرجال الدين أن يُجبروا المتهم
طيلة وجوده في أفنية الكنيسة ؛ ولكن هذا الحق لم يكن
يسرى على طبقات كثيرة من المذنبين . وكانت مصادرة الأموال
— بالإضافة إلى قطع الأعضاء — أسلوباً من أساليب العقاب

الشائعة الاستعمال ، بعكس السجن الذي لم يكن حتى القرن
الثاني عشر — على الأقل — يُحكم به إلا ليعول دون هرب المجرم
قبل المحاكمة^(١) . وقد لاحظ زكريا فون لينجنثال *Zachariae*
von Lingenthal منذ زمن طويل أن الرجل البيزنطى كان يعتبر
تمضية أيامه دون أن يعمل شيئاً أمراً لطيفاً لا مشقة فيه .

لقد جاهد الأباطرة المتعاقبون في سبيل تمهيد الطريق للشعب
لإثبات حقوقهم . وقد كانت هناك محاولة لمساعدة المتظلمين
من الأموال العامة ، أثناء إقامتهم في العاصمة ، ما دامت قضاياهم
معلقة . غير أن دارس التاريخ البيزنطى ينبغى عليه أن يشك فيما
إذا كان الخصوم قد عمدوا إلى الذهب المغرى يدسونه في أيدي
القضاة لعلهم أن القضاء أعمى .

٣ — المالية

لا يشعر مؤرخ الدولة البيزنطية بضيق الحدود التى يحبسها
فيها صمت مراجعته ، بقدر ما يشعر به عند ما يبحث المسائل المالية ؛
ويود لو أنه استطاع أن يستبدل بالتفاصيل التى يوردها إليه أحد

(١) وكان عزل المذنب عزلاً إجبارياً في دير يستعمل في حالة ما إذا
كان مذنباً في حق الدولة .

الرواة عن إحدى حروب الحدود ، شيئاً يعينه على تبين الطريقة التي كان العمل يسير عليها في هذا النظام المالي ، الذي يرجع إليه وحده الفضل في تمكين الأباطرة من القيام بمطالب الجيش بصورة دائمة . وعلينا أن نقر آسفين بأننا عاجزون عن إعادة تركيب الميزانية البيزنطية : وكل ما في استطاعتنا دراسته بصفة عامة هو العناصر الرئيسية للإنفاق ، والموارد الرئيسية للدخل .

كان أول واجبات الإنفاق في الدولة هو الإنفاق على الدفاع ، أى تكاليف الجيش والأسطول والحصون التي على الحدود والموانئ وذخائر الحرب وعطاءات الجنود المرتزقة . وقد اكتشف أكثر من امبراطور واحد ، كما فعل جستنيان ، أن خططه فيما يتعلق بالتوسع الحربى غير عملية ، لأنها تفوق بكثير موارد الإمبراطورية . وكانت هناك نفقات البلاط التي لم يكن هناك سبيل لتقليلها مع أنها كانت باهظة ، إذ أن نظرية الدولة البيزنطية في الحكم لم تكن تعتبر أبهة البلاط شيئاً مظهرياً بل عنصراً هاماً من عناصر السياسة الإمبراطورية . وكان يبررها تصورهم للحكم المطلق الذى كان فى أساسه دينياً : فعلى الإمبراطورية الزمنية أن تكون مرآة للآبهة الإمبراطورية السماوية ، وهكذا كانت الأعياد الدينية ، والدنيوية ، والمواكب والاستقبالات وسفريات ورحلات رجال

البلاط ، تحمل الخزينة ما لا طاقة لها به . وكانت العادة بالإضافة إلى هذا تحتم في مناسبات مثل هذه تقديم هدايا للموظفين الكبار ورجال الدين ، بينما كان فقراء العاصمة يحظون بنصيب من المنح الإمبراطورية . وكان وجود الإمبراطور كفيلا بالتخفيف من آلام المصابين حين تنزل الكوارث بإحدى الولايات ، كأن يشور بركان مثلا . وكانت الدولة تعمل على إعادة بناء المدن المهتمة ، أو كانت تقوم بإعفاء عام من الضريبة لعدة سنين إذا دعت الضرورة لذلك .

ولقد استنزفت المباني العامة التي بناها الأباطرة مبالغ ضخمة ، بينما كانت الدولة تنفق مبالغ طائلة في القرون الأولى على توزيع الخبز واللحم والخمر والزيت على سكان العاصمة . وقد اضطر الإمبراطور بسبب الأزمة المالية في السنوات العشر الأولى من حكم هرقل إلى أن يكف عن هذا التوزيع ، وليس هناك دليل ظاهر على استثنائه فيما بعد . وكان القمح لا يزال يخزن في الدولة العامة ، إلا أن ذلك على ما يظهر كان يعد لمواجهة حاجات الجيش .

بيد أنه كان من الواجب المحافظة على المنشآت العامة في الإمبراطورية ، مثل القناطر التي يجري عليها الماء ، والصهاريج والطرق والقناطر — بينما كانت تُجبي ضريبة خاصة لإصلاح

أسوار العاصمة ؛ ولا تزال النقوش دليلاً على العناية المتواصلة التي كان يبذلها الأباطرة المتعاقبون المحافظة على هذه التحصينات الرئيسية .

ويجب ألا ننسى في النهاية المطالب الدينية : ويشمل هذا الباب مساعدة اليتامى ، والمستشفيات ، والضعفاء الذين قعدت أيديهم عن الرزق ، وبيوت العناية بالأطفال ، وملاجئ الساقطات من النساء . وكان الأباطرة أنفسهم بيزنطيين ، فشعروا شعوراً قوياً كرعايهم بحاجات تدين الرهبان ، والحاجة للتزود بما يخلص أرواحهم ؛ وهكذا كانت المؤسسات الكنسية تستنفد مبالغ ضخمة ؛ فإذا صاحب هذه الهدايا منح جزء من الأرض الإمبراطورية ، أصاب دخل الدولة من ذلك ضرر بسبب الإعفاء من الضرائب الذي كان يُمنح إلى الدير أو المؤسسة التي وهبت الأرض لها .

وإن أى محاولة لتقدير إرادات الدولة البيزنطية لا يمكن أن تكون إلا رجماً . وايس في أيدينا إلا عبارتان نستطيع أن نبني على أساسهما فرضنا . فقد كتب بنيامين الثطيلي Benjamin de Tudela أن الدولة جبت في القرن الثاني عشر من القسطنطينية وحدها ٣٠٠.٠٠٠ ر ٧ نوميًا ، بينما وعد الصليبيون بلدوين ،

الحاكم اللاتيني للقسطنطينية ، بدخل يومى قدره ٣٠٠٠٠ نومسما (وهى تساوى ١٢ شلن أى ستين قرشا تقريبا) . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك تأكيد يوحنا برومبتون *John Brompton* أن كورفو دفعت للدولة فى سنة ١١٩٠ ، ١٥٠٠ لترا *litrai* أى ما يساوى ٦٤ر٨٠٠ جنيه من المعدن (وهو لا يُعَيَّن قيمتها الشرائية) . وإنه لمن العبث أن نحاول أن نقدر دخل الدولة الرومانية الشرقية السنوى بناء على هذه المعلومات غير الدقيقة .

ماهى موارد الدخل التى كانت الدولة تنفق منها على مطالبها؟ كانت هذه الموارد : (١) عقارات الأفراد التى تنتقل للخزينة عند موت صاحبها دون أن يترك وصية ، ودون أن يترك أطفالا أو أقارب . (٢) الهدايا التى كان يقدمها أفراد الرعية بصورة مباشرة (٣) ما يدفعه المرشحون لوظائف البلاط أو الخدمة المدنية (٤) دخل الأملاك الامبراطورية فى آسيا . وأخيرا (٥) الضريبة المباشرة وغير المباشرة ، العادية وغير العادية .

أما عن المورد الأول فإن القانون البيزنطى لا يفصل بين الأملاك العينية والأمتعة المنقولة فيما يتصل بالتركات التى يخلفها أصحابها دون وصية . وحين يفشل المطالبون بالاشتراك فى التركة (فى دعواهم) تنتقل جميع أملاك المتوفى إلى الدولة كخيرات

لا صاحب لها . وقد أدخل قنسطنطين بوزفروجينتوس في القرن العاشر تعديلا أصبح ثلث التركة ينتقل بموجبه في مثل هذه الحالات للكنيسة تزكية لروح المتوفى ، وثلثان فقط إلى الخزانة . أما عن المورد الثالث ، فقد جرت العادة في الدولة المتأخرة أن يطالب المرشح لوظيفة ما ، بمبلغ من المال ؛ وكان مرتبه في هذه الحالة يعتبر دفعة سنوية شبيهة بالربح في طبيعتها . صحيح أن الموظف كان يستطيع عند تعيينه أن يزيد دخله بقبول مبالغ من المال كان الناس يفرمونها له ، وهدايا وأشياء أخرى أقل شرعية ، بيد أن القاعدة هي أن مرتبه لم يكن في الواقع إلا ربحا مقدرا على رأس ماله ، ولم تكن نسبته لتزيد في العادة على ٣ ٪ إلا نادرا^(١) .

بيد أن الدولة كانت تعتمد على الضرائب للحصول على الدخل بصفة رئيسية ، وهنا كانت ضريبة الأرض مفتاح المالية البيزنطية . وقد درسنا هذه الناحية فيما يتصل بالأراضي المزروعة . أما ضريبة الإيركون التي فرضت أيام جستنيان ، فربما كانت

(١) وكانت الوظائف في غالب الأحيان لا تخرج عن مناصب في البلاط لا يعمل أصحابها شيئا ، إلا أنها كانت تجعل لصاحبها الحق في مكان بين طبقات المحاكم . انظر ، A. ANDRÉADES in *Nouvelle Revue historique de droit français*. XLV: (1921)

ضريبة مشابهة فرضت على أراضي البناء . وربما كانت هذه الضريبة على أراضي المدن تقابل الضريبة على أراضي الريف . ومن الجائز أن تكون ضريبة الموقد التي وجدت في أيام آل كومنين هي التي حلت محل ضريبة القرن السادس المسماة إيركون .

ويظهر أن الضريبة التي كانت مفروضة على التراكات وقدرها ٥ .٪ قد تجددت بالرغم من أن جستنيان ألغاها . وقد أعفى تشريع القرن الرابع عشر أعضاء مجلس الشيوخ من الضرائب البلدية ، لكنهم كانوا يخضعون لضريبة الأملاك الخاصة الـ *Gleba* . وكانوا يدفعون كذلك ضريبة غير نظامية تسمى *Aurum Oblaticium* — وهي عبارة عن مال يؤدي للإمبراطور في أعياد جلوسه السنوية على العرش ، أو بمناسبة نصر ما . وأخيراً كانت هناك ضريبة على أصحاب الحرف سواء كان صاحب الحرفة بائناً متجولاً ، أو إسكافاً ، أو خبازاً أو موسماً . وكان لابد لأهل المدينة عندما يتقدمون لبيع بضائعهم أو أجسادهم ، من أن يدفعوا هذه الضريبة . وبالرغم من أن هذه الضريبة كانت تجمع نظرياً في كل خمس سنين عند الاحتفال

بعيد الإمبراطور الخامس ، إلا أنها كانت في الواقع تجبي في مناسبات أكثر من هذه . وفي أول الأمر كان الفلاحون يعفون من هذه الضريبة حين يجلبون بضائعهم للسوق . وبالرغم من أن أناستاسيوس ألغى هذه الضريبة المقيمة ، فقد حلت محلها ، كما يظهر ، ضريبة أخرى مشابهة بعد وقت قصير . وقد كسبت الإمبراطورة ايريني محبة الشعب حين ألغتها .

وكان دخل الدولة كبيراً من ضرائب أخرى غير مباشرة ، وذلك من المكوس الموضوعة على التجارة في محطات : مثل *Jotabe* ^(١) (أى على التجارة الشرقية الآتية عن طريق الخليج العربي) وأبيدوس . بينما كانت الدولة تضع العراقيل في طريق الاتجار بالأشياء المحرمة ، وذلك بأن تبذل أموالاً للمخبرين عنها . وكانت هذه الجمارك تراثاً من أيام الإمبراطورية الأولى ، وتعيننا فقرة من القانون ترجع إلى عصر الانطونيين على وضع قائمة بأهم المواد التي كانت تدفع الضريبة . ويمكننا أن نذكر منها البهارات

(١) جوتاب *Jotabe* محطة تجارية تقع على طرق شبه جزيرة سيناء . وكانت تحصل فيها المكوس على التجارة الآتية من الشرق ، وقد كانت تابعة للإمبراطورية الشرقية .

انظر : J.B. BURY, *Later Roman Empire*, Vol. ii p. 8.,
RUNCIMAN, *op. cit.*, p. 165 .

والقطن الخام والجلود الغالية من بابل (العراق) وفارس ، والعاج والأحجار الكريمة والأصبغة والأصواف الشرقية . وكذلك كانت تحصل مكوس على العبيد والغلمان والخصيان .

وقد ضاعفت خزانة الدولة مواردها بتحصيل المكوس في الثغور ، والرسوم من الأسواق ومن أرباح احتكارات الدولة كصناعة الحرير . وكان للحاكم المطلق أن يسخر الشعب في المحافظة على المحطات وتموين خيل البريد الإمبراطورى ، وإضافة السفراء ، وموظفين غيرهم في رحلاتهم في الولايات . ويمكننا ذكر الضرائب المفروضة على الحاكم كآخر مورد للدخل ، بينما كانت مصادرة أملاك أحد الرعايا ، كنوع من أنواع العقاب ، بمثابة طريقة مغرية للخلاص من الارتباكات المالية .

وحين ندرس نظام المالية البيزنطية نلاحظ اتجاهها المتزايد إلى استبدال الدفع عيناً بالنقد ؛ وكان لهذه الثروة الذهبية التي كان يملكها الإمبراطور الرومانى الشرقى أهمية لم يدركها الناس دائماً تمام الإدراك . ولم يكن هناك ضريبة مباشرة على الأرض في الدولة الجرمانية الغربية . فكان الملك مضطراً إلى أن يتكل على مدخوله من أراضي الملكية الخاصة ليقوم بمصاريف البلاط : ولم تكن رواتب موظفى التاج تؤدى نقداً ، بل على صورة منح

من الأرض . ولم يكن مثل هؤلاء يدفعون الضريبة المباشرة التي كانت تفرض لتواجه حاجات الدولة أولاً بأول ؛ لكنهم كانوا يجبرون فقط على القيام بخدمات معينة تحدد تحديداً دقيقاً .

إلا أن تعويض الموظفين عن أعمالهم بمنح من الأرض أوجد علاقة دائمة بين الأرض ومن منحت له ، وكانت النتيجة الطبيعية أن أصبحت الحقوق التي كان يمارسها الموظف المقتطع في الأرض وراثية . وبما أن الملك لم يكن يستطيع زيادة أراضيه حسب إرادته فقد أخذ يفتقر تدريجاً : وكان عليه إذا أراد أن يزيد في أمواله أن يصادر إقطاعية تابعه ، أو يسعى لتوسيع رقعة أراضيه . ومن هنا نستطيع أن نفسر كثيراً من اعتداءات حكام الغرب في العصور الوسطى الأولى ، وخاصة في خططهم لغزو إيطاليا : غير أن هذه العملية كانت تطبق في الأراضي المفتوحة ؛ فإذا ضعفت الدولة المركزية ، كف التابع عن تأييد الحاكم المطلق ، وربط نفسه بمصالح إقليمه المحلية ، ولم يكن هناك سبيل لإعادة السلطة الإمبراطورية سوى التدخل العسكري . وهكذا أصبحت أية دولة غربية أعجز من أن تعد جيشاً أو أسطولاً : وكانت جيوشها تجمع من أجل حملة حربية (وقتية) لا لمدة الحرب بطولها : وكان نشاطها الحربي على ذلك متقطعاً غير مستمر .

فإذا وجهنا نظرنا نحو الدولة الشرقية وجدنا الفرق واضحاً :
فهنا كان القواد يتقاضون رواتبهم بالنقد لا بالمنح من الأرض ،
فاحتفظت الدولة المركزية بسيطرتها . وكان نقدها المتوفر أيضاً
قابلاً للزيادة ، لأن ممالك الأرض يخضعون لضرائب تتغير قيمتها .
وهكذا لم تكن زيادة ثروة التاج تعنى ضرورة مصادرة الأملاك
أو الغزو الخارجى ؛ وعلى هذا فقد أمكن قيام جيش أو أسطول
امبراطورى ، وأصبح فى الإمكان إيجاد جيش تطول مدة الخدمة
فيه ، فيتدرب أفرادُه تبعاً لذلك ، وينظم تنظيمًا فنيًا . وبذلك
أصبح من الممكن استمرار الضغط على العدو ، بحيث لا يتعرض
هذا الضغط للتقطع والتراخى .

ويمكننا إيجاز ذلك إذا قلنا إن جهد الدولة كان مستمرًا ،
لا مجرد تشنج وقتى تدفع إليه الظروف . وهنا نجد سر نجاح روما
الشرقية . وإذا كان بعض الأباطرة مسرفين ، إلا أن النظام
المالى ظل قائمًا ، وكان يتبع فترات الإسراف فترات تعويض .
وكان أعجب ما فى المالية البيزنطية استمرارها الذى ارتكز إلى حد
بعيد على نقاء عملتها الذهبية : ويقول جلزر *Gelzer* ، « لم تجد
الحكومة الرومانية من دقليديانوس إلى الكسيسيوس كومنينوس
فى فترة مدتها ٨٠٠ سنة نفسها فى وضع يضطرها إلى إعلان

إفلاسها ، أو التوقف عن الدفع . وإن نجد في العالم القديم أو الحاضر شيئاً يشبه هذه الظاهرة . لقد ضمن هذا الاستقرار العجيب في السياسة المالية الرومانية « للبيزنطى » عملته العالمية ، فقد كانت مقبولة عند جميع الأمم المجاورة بسبب وزنها المضبوط كأساس ثابت للتعامل . واستطاعت بيزنطة أن تسيطر بتقودها على كلا العالمين المتحضر والبربرى .

الفصل الثامن

الجيش والأسطول

« لا بد للدولة إذا كانت تحرم على المجد والسلطان من أن تكون الحرب مناط شرفها وموضع دراستها وعملها »
يكون « عن الممالك »

١ - الجيش

ليس تاريخ روما إلا تاريخ الجيش الروماني ؛ ولا يصدق اعتبار بيزنطة وريثة روما في شيء بقدر ما يصدق فيما يختص بسياساتها العسكرية . لقد بنيت الإمبراطورية وأمنت بفضل كتائبها . وكان المشاة أساس قوة الكتائب . وإن أبرز ظاهرة في تاريخ الجيش الروماني في أدواره الأخيرة هي أن سلاح الفرسان أخذ يتفوق بالتدريج . أما فرق المشاة القليلة الباقية فقد أخذت مكانة ثانوية بالنسبة له . وكانت تلحق بالفرقة المجندة من المواطنين الرومان في الأصل جماعة من الفرسان يجند أفرادها من حلفاء روما (auxilia) ، ويرجع الفضل لبعد نظر جاليانوس الذكي السبيء الحظ ، في إدراك حاجة الإمبراطورية الماسة إلى فرق

متنقلة من الفرسان تكون وحدات منفصلة ومستقلة عن الفرق . وكانت قوة الفرسان الجديدة المتحصنة بدروع الزرد ، على نهج النظام الفارسي المسماة « كاتافراكتي » *Cataphracti* ماثاردهشة كتاب القرن الرابع ؛ وكان الصراع الخفيف بين قنسطنطيوس ومنافسه الإمبراطور ماجننتيوس أول معركة عظيمة خاضها الفرسان ، وهي معركة مورسا . وتتجلى أهمية الفرسان في كل موضع في كتابات أميانوس مارسيلينوس *Ammianus Marcellinus* في الحروب مع فارس في القرن الرابع . ثم جاءت هزيمة الرومان في موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ م فأكدت أهمية هذا السلاح ، لأن القوط كسبوا المعركة بهجمة رائعة قام بها فرسانهم . وكثيراً ما نقرأ في كلام بروكوبيوس عن حروب جستنيان أن بعض جيوشه كان مؤلفاً من الفرسان فقط . ولما أعيد تنظيم الجيش في عصر البيت الهرقلي ، وأدخلت إصلاحات حربية أيام الأباطرة الايسوريين ، تأكد تفوق الفرسان نهائياً . وقد كسب المقدونيون انتصاراتهم باعتمادهم الرئيسي على الفرسان .

ولابد أن تتبع تاريخ تنظيم الجيش الروماني باختصار . إن النظام الذي أدخله دقلديانوس وقنسطنطين على الجيش كان يقوم كما نعلم على فصل السلطتين المدنية والعسكرية . وكان هدفه أن

بعد العدة للدفاع عن الحدود ، وأن يوجد إلى جانب حراس الحدود قوة متنقلة يمكنها أن تتوجه لنجدة أية ولاية يهددها خطر الغزو . وقد أنفى الحرس البرايتورى [الامبراطورى] وتكون حرس جديد يسمى « كوميتاتنسيس » ^(١) *Comitatenses* ، وهم أولئك الذين يباحقون بالحلقة ، أى حاشية الإمبراطور . وذهبت مع أمس الدابر الأيام السيئة التى كان الحرس الامبراطورى يصنع الملوك فى إبابها . ومنحت قوة الحدود *limitanei* هبات من الأرض يمكن نقلها إلى الغير . وكان الابن ملزماً بالوراثة بأن يأخذ مكان أبيه .

وأصبحت فرق الرُدفاء ^(٢) *Comitatenses* ، والفرق التى جندت فيما بعد ، وأطلق عليها ذلك الاسم الغريب *Psuedo Comitatus* (أى الشبيهة بفرق الردفاء) الجيش الإمبراطورى ، وأخذت فرق جديدة للبلاط ، تسمى تارة بالحُمَاة *Protectores* وتارة بجنود القصر *Domestici* ، بدورها مكانها كحرس للبلاط .

(١) نسبة إلى *Comitatus* ، وهى جماعة رفقاء الامبراطور .

(٢) « ردفاء » جمع « رديف » ، وقد ترجمنا به لفظ *Comitus* وهو الواحد من حلقة المحاربين التى كانت تحيط بالزعيم المتبربر أو بالإمبراطور وعلى هذا يمكننا ترجمة *Comitatus* وهى جماعة المحاربين المتنفة حول الإمبراطور أو الملك المتبربر بلفظ « ردافة » .

وكان يقود قوة الحدود في كل ولاية قائد (*Dux*) . وكان الجيش الإمبراطوري تحت إمرة رؤساء المشاة والفرسان يسمون *Magistri* : وقد جمع بين المشاة والفرسان فيما بعد تحت قيادة واحدة يقوم بها رئيس المشاة ، أو رئيس الفرسان ، أو رئيس في سلاحى الفرسان والمشاة معاً في نفس الوقت . وقد ظل هذا النظام في جوهره ثابتاً زمن جستنيان ، مع أن عدد البرابرة المشتغلين في فرق مستقلة تحت إمرة قواد من جنسهم قد ازداد زيادة كبيرة منذ أن كون ثيودوسيوس الكبير فرقاً من بين القوط ، حلفاء الرومان . هذا بينما ازداد المنصر المتبربر في الجيش النظامى زيادة مستمرة . وكانت أخطر بدعة ، على كل حال ، هى إدخال نظام شبيه بالنظام الذى كان معمولاً به في الغرب ، حيث يلتحق الرجال بخدمة قائد معين يلتفون حوله أكثر مما يلتفون حول الدولة . ومن الجلى أن الجند « الذين كانوا يخدمون مقابل جراياتهم » (ويسمون *Buccellarii* نسبة إلى *buccellum* ، أى خبز الجنود الجاف) قد أخذوا يميلون ميلاً ظاهراً إلى التراخى في اتباع نظام الجيش ، وصفحات بروكوبيوس مليئة بأمثلة على تمرد الفرق الرومانية — وذلك نقص في النظام كان له ما يبرره في الغالب ؛ فقد كان دفع أعطيات الجند يتأخر عن مواعده باستمرار ،

وكانت حاجياتهم غير كافية بشكل لا يشرف . ومع هذا فإن بروكوبيوس يصف رامى السهام من على ظهور الخيل فى عصره بفخر لا نعيبه عليه .

خالف جستنيان فى حالات عدة المبدأ الأساسى الذى جرى عليه دقلديانوس وقنسطنطين فى إصلاحاتهما حين جمع بين السلطتين المدنية والعسكرية . وقد أتجه موريس نفس الاتجاه فيما صنعه حينما استحدث وظيفة الأكررك ، أى القائد العسكرى الأعلى ، فى إيطاليا وإفريقية ، وجعل الحاكم المدنى أقل مكانة منه . وكان القرن السابع كما رأينا فترة حروب مستمرة ؛ وأخذ تدريجاً بتقسيم الإمبراطورية إلى ولايات ثغرية فى إبان الدولة المرقلية ؛ وتنقصنا المادة التى نستعين بها فى تتبع تاريخ هذا التطور . بيد أن هذا النظام كان يقوم على الحاجات العسكرية ؛ فالقائد العسكرى أعلى مرتبة من الحاكم المدنى . وتبدو لنا أهمية الولايات الثغرية *themes* فى آسيا الصغرى ، أثناء تكوين هذا النظام الجديد ، فى الحقيقة التالية : وهى أنه كانت لقواد الولايات الثغرية الشرقية الأسبقية فى البلاط ، وكانوا يتقاضون رواتب أعلى . وقد عمل الحكام الإيسوريون على إتمام هذا التنظيم فى الإمبراطورية ، فأصبح القائد العسكرى يجمع بين السلطة العسكرية والمدنية .

وهكذا عادت روما إلى ما كانت عليه زمن الجمهورية : كان الحاكم المدني عندئذ قائداً أيضاً إذا دعت الحاجة ، وأصبح القائد الآن حاكماً مدنياً أيضاً . وامتدّس هنا ما يقوله الأستاذ بيورى Bury الذى ساهم بنصيب مشكور فى توضيح تفاصيل التنظيم البيزنطى العسكرى فيقول : « كان تحت إمرة قائد الولاية الثغرية الواسعة (الاستراتيجيةوس) جيش قوامه عشرة آلاف جندى . وكان لنظام الفصائل والقيادات التابعة شبه ملحوظ بتنظيم بعض الجيوش الأوروبية الحديث . ولم تكن الخطة المدونة ، كما يظن ، واحدة فى جميع الولايات الثغرية ، ولم تثبت على حال كذلك بتغير الأزمان . وكان الفيلىق ، ثيما *Thema* ، يتألف من فرقتين ، تسمى كل منهما تورما *turma* يقودها قائد فيلق ، يسمى تورما أرخارى *turmarchai* — وكانت التورما مؤلفة من خمس فرق (*banda*) كل منها تحت إمرة ضابط (= كولونيل *drungarius*) . وكانت الفرقة المكونة من خمس فرق خماسية *Pentarkhiai* تحت إمرة قائد يسمى *Komites* . وكانت الفرقة الخماسية *Pentarkhia* (= بنتارخيا) تضم مائتى رجل ، وتنقسم إلى خمس فصائل كل منها تحت إمرة ضابط يسمى (*pentekontarchia* = لفتنانت) . وكانت هناك وحدة من

عشرة رجال تحت إمرة جاويش (يسمى *dekarches*) . وكان مجموع الجيوش في القرن التاسع مئة وعشرين ألف رجل ؛ ويقدر في زمن جستنيان بمائة وخمسين ألفاً .

وإذا تأمل الإنسان هذه الأرقام على ضوء ما نعرفه من اعداد جيوش الدول الحاضرة ، التي تحكم الآن تلك الأراضي التي خضعت مرة للإمبراطورية الرومانية ، فإن أعمال جيوش بيزنطة الصغيرة سوف تنال بحق مزيداً من استحسانه .

وكان سكان الولايات الثغرية المختلفة يتحملون نفقات الجيوش القائمة فيها . وكانت هذه النفقات تؤدي في الولايات الثغرية نقداً للخزينة المركزية . أما في الغرب ، فكانت تدفع عيناً . وقد قيل إن هذا الفرق يعزى إلى الحقيقة التالية ، وهي أن معظم سكان الغرب كانوا زراعا صقالبة مشغولين بالزراعة ، بينما كانت المدن التي يقوم اقتصادها على النقد منتشرة في المقاطعات الإغريقية الواقعة على الساحل . وعند ما حاوت الحكومة المركزية في القرن الثاني عشر أن تدخل إلى الغرب طريقة التعامل بالنقد ، المعمول بها في الولايات الثغرية الشرقية ، ثارت بلغاريا ، وولدت الإمبراطورية البلغارية الثانية .

ومعلوماتنا عن الجيوش في الولايات غير كافية لإعطائنا

صورة وافية عن قدرها وتنظيمها . غير أنه في استطاعتنا أن نبين نظام فرق المدينة (المسماة *tagmata*) المرابطة في العاصمة ، والفصائل المرابطة في مقدونيا وتراقيا ، علاوة على جيوش الولايات الثغرية . ومنذ أيام جستنيان أعيد تنظيم هذه الفصائل التي كانت تتألف من حرس القصر كلية ، وأنقص عددها . وكانت القاعدة أن تكون كل فصيلة تحت إمرة « الدُمستق » (*Domesticus* ، أى رئيس حرس القصر) وكان أحد هؤلاء وهو « رئيس فرق حرس القصر » (*Domesticus Scholarum*) *Domesticus of the Scholae* = الذى أخذ مكان « رئيس الإدارات » قد أصبح في القرن العاشر القائد العام للجيش كله . وكانت فرق القصر هذه تشترك اشتراكاً فعلياً في الحرب إذا تولى الإمبراطور قيادة المعركة بنفسه . ولم تكن لفرقة المشاة من الجنود ، ويسمون بالنوميرى *Numeri* (ومفردها *numerus*) وهى الفرقة من الجند) التي كانت ترابط في العاصمة أيضاً ، وللجنود الذين كانوا تحت إمرة « دمستق الأسوار » (أسوار أناستاسيوس الطويلة ؟) أهمية نسبياً .

ويتضح الفرق البارز بين جيوش جستنيان والجيوش التي كانت تجمع بعد نهاية القرن السادس في الحقيقة التالية : وهى

أن المتطوعين الأجانب قد أخذوا يختفون ، وأصبح الجيش يجند من داخل الامبراطورية ، وخصوصاً من أرمينية ؛ وهذا لا ينافي أنه كان لا يزال تحت إمرة الموظف الكبير الذى كان يسمى *Hetiariarch* (أى رئيس جماعات الجند ، من *Hetaeria* باليونانية ومعناها الجماعة أو الفرقة) قوة الحرس التى كان معظمها من الأجانب . ويرجح أن هذا الحرس حل محل « جنود المحالفين *Foederati* » الذين وجدوا قبلاً فيما سلف من العصور (وفرق الجنود المحالفين هى الفرق البربرية التى كانت تجهز تبعاً لشروط معاهدة تعقد بينهم وبين الدولة) .

وكان نظام منح الأراضى فى نظير الخدمة العسكرية ، الذى طبق فى القرن الرابع على حرس الحدود ، قد ظهر ثانية واتسع نطاقه فى الولايات الثغرية . وكان لا يجوز انتقال هذه المنح لأن منحها كان يتضمن إلزاماً بالخدمة فى الجيش يرثه الابن عن أبيه .

غير أن انتصار السلجوقيين الحاسم فى معركة ملاذكرد ١٠٧١ م التى وقع فيها الإمبراطور رومانس أسيراً ، كان ضربة قاضية لهذا النظام العسكرى الذى تطور زمن حكام البيت المقدونى العسكرىين المتوقدى الذكاء .

ويعزى فى الواقع تأخر الجيش الرومانى فى القرنين الحادى

عشر والثاني عشر إلى سببين رئيسيين : فقد أ كسبت السلجوقيين غزواتهم في آسيا الصغرى مقاطعات واسعة من أرض الإمبراطورية . وأسوأ من هذا أن السلاجقة كانوا مجرد برابرة تعتمل فيهم شهوة السلب والتخريب ، فخرّبوا الأراضى حتى في المقاطعات التى ظلت رومانية من جراء هجماتهم ، بينما أجبر الفلاحون على الفرار من مزارعهم والالتجاء إلى المدن .

وتتج في الوقت ذاته عن ازدياد طبقة النبلاء العسكريين الأقوياء ، الذين كانت المقطعات الكبيرة التى يملكونها في آسيا الصغرى أساس نفوذهم ، أن انتاب الحكومة المركزية قلق كبير ، بينما سعت الإدارة المدنية إلى إضعاف روح الاستقلال الخطرة هذه بفرض ضرائب باهظة ؛ ولما كانت الدولة أعجز من أن تشن هجوماً مباشراً على امتيازات الملاك الكبار ، فقد حاولت أن تخلق طبقة مقابلة لهم ، فمنحت الجنود إقطاعات واسعة .

ولم تصلنا لسوء الحظ معلومات كافية عن هذا النظام الجديد المسمى نظام البرونيا (*Pronia* = مثونة) الذى أدخله ميخائيل السابع دوكاس ، وتطور زمن آل كومنين .

والظاهر أن هذه المنح كانت تمنح لمدى حياة الممنوح ، مثلها في ذلك مثل الإقطاعات الأولى في غرب أوروبا ، مع استثناء

واحد ، وهو أن صاحبها لم يكن له حق توريثها من بعده .
وكانت المنحة المتضمنة فيما يبدو إلزاماً بالإقامة على الأرض
تعطى فقط للجنود من ذوى الرتب العالية ؛ وكانت بوجه عام
مكافأة على خدمات سابقة . وكان الممنوح ملزماً بأن يقدم للدولة
عددًا معيناً من الجند للجيش . وكانت الدولة تتنازل له مقابل هذا
عن حق جباية ضرائب معينة داخل حدود إقطاعيته . وكان من
المحرم عليه أن يعتمد إلى زيادة الأموال التي كان المزارعون
يدفعونها . وكان يسمح له بالإضافة إلى ذلك بأن يتمتع ببعض
الامتيازات في مسائل القضاء واستخدام البوليس . ولم تكن هذه
الأراضي كما يظهر تقتطع من أملاك النبلاء ، ولا من أراضي الكنيسة ،
وإنما من المساحات التي كانت مقصورة على رجال العسكرية .
وكان جشع الأرستقراطيين للأراضي يفضي أحياناً إلى ضم كثير
من هذه الملكيات العسكرية إلى ممتلكاتهم ، مما كان يؤدي في
النهاية إلى إضعاف قوة الجيش .

وكان يواجه أباطرة القرن الثانى عشر ، بالإضافة إلى ذلك ،
هبوط خطير في أعداد الأحرار من سكان الإمبراطورية . وكانت
غارات الجر والعرب على أوروبا تعبر جنباً إلى جنب مع غارات
السلاجقة المخربة على آسيا . وقد اجتهد آل كومنين في تعويض هذه

الخسائر ، وبذلوا وسعهم في ذلك السبيل : فأسكنوا الأتراك والبشناق كمعمرين للأرض داخل الإمبراطورية ، وحرروا العبيد على حساب الدولة ، بينما أصبحت الحملات ضد الجر مجازر بشرية على نطاق واسع . وقد أصبحت جيوش الإمبراطورية نتيجة لهذا الهبوط في عدد السكان تتألف مرة أخرى من المرتزقة والأفصال (جمع فصّل ، *vassal* ، وهو التابع) الأجانب والحنفاء ؛ وكان منهم لمبارد وفرنجة وجرمان وصرّب ، بل كان فيهم فرق تابعة لأمرأ مسلمين ، بينما تألف معظم الحرس الإمبراطوري من جنود انجليز . وكان هذا التغيير في السياسة العسكرية هو الذي أعقب نتائج وخيمة زمن « الأنجليين » حين عجزت الدولة المفتقرة عن دفع مرتبات المتطوعة . وصدق عليها المثل الشائع ، « لا مال ، لا سويسريون ! »^(١) .

ولدينا لحسن الحظ كتب صغيرة عن الجندية ترجع تواريخها إلى فترات مختلفة من تاريخ الإمبراطورية الشرقية . ولا يقدر الإنسان عظمة الجيش البيزنطي حق قدرها إلا بعد دراسة هذه

(١) *Point d'argent, point de Suisses* ، وهي قالة شائعة في اللغات الأوربية ، ويرجع أصلها إلى العصور التي كان ملوك أوربا يستخدمون خلالها جنوداً مرتزقة من السويسريين في جيوشهم ، فكان الملك ، أو الأمير لا يستطيع استخدامهم إلا إذا كان لديه مال ، فإذا فرغ ماله تركوه .

الكتيبات ، ففي هذا الميدان وحده عالج أهل العصور الوسطى في أوروبا مهنة الحرب معالجة علمية متقنة ، فكان كل جيل يواجه مشاكل جديدة ويسعى إلى حلها بدراسة دقيقة متصلة . فلم يكن الفوز في هذا العصر للعدد ، بل للمهارة القائمة على التفكير ؛ فلم تكن المعركة ملحمة لا نظام لها ، بل تعاوناً منظماً بين وحدات كثيرة . فقد كان القواد البيزنطيون أفقر من أن يدفعهم الطموح إلى الإقدام على أعمال الفروسية الكيخوتية^(١) : إذ كانت المحافظة على قواهم الصغيرة عمادهم في كثير من الأشياء : وعلى هذا فقد كان واجب القائد أن يستوثق من الظروف الملائمة للحركات العسكرية الرومانية قبل أن يجازف بالاشتراك في أى اشتباك حربي : فالهرب المصطنع ، والمباغطات ، والهجمات الليلية ، والكائن ، والمفاوضات التي لا يقصد بها إلا كسب الوقت ، كل هذه وغيرها كانت وسائل مقبولة في الحرب . وكان الجندي الذي يعتمد على القوة في حيث كان الدهاء كافياً لكسب النصر لا يعتبر إلا مغفلاً . فالمراس ، والشجاعة والنظام والشعور نحو المهنة بالفخر —

(١) نسبة إلى *Don Quijota de la Mancha* بطل القصة الأسبانية الرائعة التي كتبها « ثرقاتز » . وقد رسمنا اللفظ هنا حسب نطقه في اللغة الأسبانية ، والقصود بالكيخوتية هنا : الخيالية التي لا تقوم على تبصر أو حساب .

كل هذه كانت خصائص الجندى البيزنطى ، كما هى واضحة مثلاً فى كتاب تعاليم كتبه كيكونمينوس لابنه . وكان القائد لا ينفك يذكر من تحت يده بأن كل حرب إنما هى حرب صليبية لا يأتى النصر فيها إلا من عند الله ؛ فإذا صح هذا ، لم يكن للمرء بد من القيام بواجبه حتى ينال تلك الهبة . ولا زالت السماء تمنح النصر لجيوش روما ، ما آمن الجنود بهذا التقليد الرومانى العسكرى ، وحافظوا عليه .

كان كل من الفرسان والمشاة يقسمون إلى فرق خفيفة السلاح ، وفرق ثقيلة . فكان المحارب ذو السلاح الثقيل يلبس خوذة من الفولاذ ، ودرعا من الزرد يكسوه من رقبتة إلى فخذه ، وقفازاً من الحديد ، وأحذية من الفولاذ . وكان يحمل عباءة خفيفة أو برنساً ليرتديه فوق سلاحه أيام الصيف المحرقة ، وعباءة فضفاضة من الصوف يتدثر بها لتقيه من البرد والرطوبة . وكان محاربه سيفاً عريضاً ، وخنجرأ ، ورمحاً ، وقوساً للرماية عن ظهور الخيل ، وجمعة للسهام . وإذا كان ممن يقفون فى الصفوف الأولى ويقومون بالهجوم ، جعل لخصانه دروعاً فولاذية على صدره ، وعصابات فولاذية على جبهته .

وكان الفارس ذو الأسلحة الخفيفة عادة من الرماة ؛ فيلبس

سترة من الزرد . وكان الجنود من المشاة ذوى الأسلحة الثقيلة يلبسون دروعا من الزرد تغطى أنصافهم العليا ، وخوداً فولاذية ؛ وكانت أسلحتهم السيف والرمح ، وفأساً ذات نصل قاطع من ناحية ، وسن مدببة من الناحية الأخرى . وكان جندى المشاة والسلاح الخفيف إمارامياً عن القوس ، أو قاذفاً بالحرية ؛ فكان يلبس قميصاً طويلاً من الزرد يصل إلى ركبتيه ، أو درعا خفيفاً في بعض الأحيان ، ويحمل جمعة للسهم فيها أربعون سهماً ، وفأساً في حزامه : وكان يعلق خلفه ترساً صغيراً مستديراً .

وكان نظام الجيش البيزنطى محكماً فعلاً بصورة خارقة للعادة : كانت له فرقة ملكية طبية خاصة به . وكان الفرسان (*deputati*) التابعون لقسم الخدمات الطبية يحملون الجرحى من ميدان المعركة إلى أطباء الجيش فى الخلف . وكان مهندسوه قد درسوا بالتفصيل جميع العقبات الطبيعية التى كان يجب التغلب عليها فى كل حملة من الحملات . ولما أخذ مثلاً واحداً : عندما يراد عبور نهر عريض ، حيث كانت جيوش أوروبا الغربية تضطر إلى السير حتى تصل إلى مخاضة ، كان الجيش البيزنطى يصنع جسراً من القوارب واحداً بجانب الآخر ، وكانت هذه تحمل على ظهور الدواب ، وقد عينت أجزاؤها بأرقام

مكتوبة عليها ، حتى إذا ما وصل الجيش إلى مجرى النهر ، صفوها بسرعة ، وغطوها بالألواح الخشبية . وكان فن تنظيم المعسكرات لا يزال علماً حياً ؛ وكانت له كتب خاصة به حتى القرن العاشر ، بينما أخرج الأرمن والأمر الأرستقراطية سلسلة طويلة متتابعة من القواد اللامعين .

وإذا قرأ الإنسان كتاباً عن فن الحرب عند البيزنطيين وتعاليمه المفصلة ، فيما يختص بطريقة ملاقاتة مختلف أعداء الإمبراطورية وقهرهم ، حصل على صورة رائعة واسعة المدى لكل أجناس أوروبا في أوائل العصور الوسطى . كانت القوى العسكرية كما قال بسلوس *Psellus* مصدر قوة الدولة الحقيقية . لقد نهضت روما بجيشها ، وسقطت بسببه .

٢ — الأسطول

اتجهت روما الجمهورية إلى البحر مكرهة ؛ ويصدق الحكم نفسه على الإمبراطورية البيزنطية . فقد بنى الأسطول الروماني تحت ضغط الحروب البونية ، وأبقى عليه ليقوم بمراقبة البحار . ولما أصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية في زمن الامبراطورية ، أهمل الأسطول . وخلال القرن الثالث شق

الغزاة من البرابرة طريقهم جنوب الدردنيل ، وأخذوا يجوبون البحر الإيجهى رغم أنف روما . لقد جرؤ البحار الإغريق سابقا فتحدى السيادة البحرية التي كان ينشرها الفنيقيون والقرطاجنيون على أمواه البحار ، أما روما فلم تفعل شيئا ، وظل الأسطول الإمبراطورى مهملًا حتى بعد أن تحولت العاصمة الرومانية إلى الشرق الإغريقى . نعم ، إن قنسطنطيوس وليسينيوس تحاربا على ظهور السفن ، إلا أن القرن الرابع كان خلوا من المعارك الحربية . وكان من شأن نمو المملكة الوندالية فى إفريقية وظهورها كقوة بحرية أن كشفت النقاب عن ضعف روما البالغ . فغزوا سردينية وقورسيقة ، وعاثوا فسادا فى إيطاليا ونهبوا روما . وأصبح الوندال سادة المياه الغربية . واضطر الإمبراطور ماجوريان *Majorian* أن يبدأ ثانية فى بناء أسطول ؛ وكان فشل الحملة البحرية على إفريقية ٤٦٨ م لطة قاسية لسيادة روما . وحينما قرر جستنيان استرداد الغرب وجهه ضربته الأولى إلى إفريقية ، حتى لا يُعين الأسطول الوندالى القوط الشرقيين ضد الجيوش الرومانية . إلا أن استعدادات الإمبراطورية البحرية كانت ضئيلة ، واضطر نارسيس *Narses* إلى أن يخوض بقواته مستنقعات البندقية الموبوءة ، إذ لم يكن لديه من السفن ما يكفى لنقل رجاله

العشرة آلاف أو الاثنى عشر من سالونا *Salona* على ساحل
دلماشيا إلى راقنا . ولم تبدأ روما في بناء أسطولها ثانية إلا حين
ظهرت على المسرح قوة العرب البحرية ؛ واضطرت روما بسبب
السياسة العدوانية التي انتهجها معاوية بن أبي سفيان إلى الشروع
في بناء أسطول بكل ما لديها من جد وعزيمة . ويرجع الفضل
الأول في ذلك إلى قنسطانز الثاني . فظهرت خلال القرن السابع
قيادة بحرية عليا واحدة ، وهي قيادة أميرال (*Strategos*)
الكرابيسيان *Carabisiani* ، وتخضع لقيادته منطقتان لكل
منهما أسطول يقوده نائب أميرال (*drungarius*) ، كما كانت
ولايات أخرى تجهز القوى العسكرية اللازمة للأسطول ؛ وهما
ولاية كيرهاوت *Cibyrrhæot* ، وهي الأكثر أهمية ، والثانية
منطقة البحر الإيجي ؛ وتضم الأولى پامفيليا التي كانت قديما مأوى
لصوص البحر الأقوياء وقرصانه ؛ أما الثانية ، فكانت تضم
الساحل الشمالى لآسيا الصغرى والجزر . وقد ظهرت شهرة
الأسطول ونفوذه في ذلك الوقت بسرعة ؛ لكن ليو الثالث بعد
حصار العرب للقسطنطينية ، اعتمد في قوته على جيش آسيا
الصغرى البرى ، وكذلك فعل خلفه قنسطنطين الخامس .

ويقول « جزر » إن السبب في إلغاء القيادة العليا

الموحدة ، هو أن الأسطول نادى بنائب الأميرال ، ايسمار ،
إمبراطورا في سنة ٦٩٧ م تحت اسم طيباريوس الثالث ، وأسقط
جستنيان الثاني في سنة ٧١٣ م وأناستاسيوس الثاني في سنة ٧١٦ م :
فأصبح أميرا الولايتين البحريتين نتيجة لذلك قائدين من الدرجة
الثانية ، مع أنه كان في يدهما سلطة الحكم العسكري والمدني . وكان
هذا خطأ من قيمة الأسطول . وقد لا يظهر خطر هذه السياسة
في القرن الثامن لأن الخليفة في بغداد لم يواصل النشاط البحري
لخلفاء دمشق . إلا أن القرصنة عادت وانتشرت مرة أخرى في
البحر الأبيض المتوسط خلال القرن التاسع ، حتى لقد اخترق
قطاع الطرق الاسكندناويون مضيق جبل طارق ، واضطر البابا
أن يلتجئ إلى شارلمان ليحمي قورسيقة من العرب . وفقدت
القسطنطينية السيادة على البحار الغربية . وقد أضاعت الامبراطورية
كريت وصقلية ، وهوجم جنوب إيطاليا . وبدأ ميخائيل الثالث
إصلاح الأسطول . وظل باسيل الأول يتبع سياسة بحرية هجومية .
وكانت تلك أيام القوة الرومانية البحرية العظيمة . وأنشئت
ولايات ثغرية بحرية جديدة ، مثل ولاية ساموس وعاصمتها إزمير .
وكان الأسطول الإمبراطوري يربط في القسطنطينية إلى جانب
سفن الولايات الثغرية البحرية الثلاث . وقامت منشآت بحرية

أصغر من تلك في أما كن أخرى مثل صقلية والبلو بونيز ، ومدخل البحر الأسود ، بينما كانت مقاطعة كافلانيا قاعدة للعمليات البيزنطية في الغرب . وحين كانت تشترك الأساطيل في العمل ، كانت القيادة البحرية تُجمع مرة أخرى إلى لواء أمير بحر واحد . وكان أسطول « كير هانوت » يفتخر بمكانته بين الأساطيل المحلية : فهنا كانت قاعدة الامبراطور للعمل ضد العرب ؛ وكانت تقع الاشتباكات مع أمراء أضنة وطرسوس بصورة دائمة . فإذا تقدم أمير مسلم على رأس جيشه ، قام الأسطول الروماني ، الذي كان على استعداد للإبحار في أية لحظة ، بهجوم مضاد له ، بينما تقوم القوات البرية بحركة تقصد منها تضليل العرب في حالة ما إذا حاولوا القيام بحملة بحرية . ولم يكن لدى الأمراء على ما يظهر قوى كافية للقيام بهجوم بحري وبرى على بلادهم . واستطاع نقفور فوقاس أن يعين ليوتبراند ، مبعوث الامبراطور أوتو الأول ، بأسطول مجهز . وزعم بناء على ذلك أنه هو الوحيد الذي يملك أية قوة بحرية لها خطر (إن القوة البحرية لى وحدى *Navigatium fortitudo mihi soli inest*) ، بينما تحدث قسطنطين پورفيروجينتوس في مناسبات مختلفة عن السيادة الرومانية على أمواه البحر الأبيض المتوسط ، من جبل

طارق إلى الدردنيل . ثم أخذ الأسطول يتداعى خلال القرن الحادى عشر على الرغم مما زعمه الجندى « كيكومينوس » فى هذا القرن من أن الأسطول كان إذ ذاك فخر رومانيا^(١) . ودليل ذلك أن السلاجقة وصلوا خلال العقد السابع من هذا القرن ساحل آسيا الصغرى الغربى ، وشاعت الفوضى فى الولايات التى كان يُجمع منها أكبر جانب من القوى البحرية البيزنطية . وكانت الحكومة المركزية على حق فى تخوفها من روح الاستقلال التى ظهرت بين نبلاء آسيا الصغرى : فقد أصبح رومانس ليكاپينوس بعد أن أحرز وظيفة فى الأسطول فى ولاية ساموس الثغرية ، الأميرال الأعظم . وظهر أن القيادة البحرية العليا كانت إغراء طيباً لمن يحوزها السكى يفكر فى اغتصاب السلطان ، ومن المرجح أن هذين العاملين تعاونوا على الهبوط بالقوة البحرية .

وسرعان ما ظهرت نتائج هذه السياسة القصيرة النظر واضحة للعيان . فقد انتشرت القرصنة انتشاراً واسعاً دون رادع . وكان فى استطاعة أى مقتصب فى آسيا الصغرى أن يستحوذ على السلطة

(١) *Romania* وهو اسم كان يطلق فى العصور المتأخرة على الدولة الرومانية . وبلاحظ الفرق بين رسمه ورسم *Roumania* وهى الدولة الأوروبية المعروفة بهذا الاسم .

إذا امتلك أسطولا . وكان يستطيع أن يعمل ما عمله تراخاس
Tzachas عند نهاية القرن الحادى عشر ، الذى ضرب ادراميتيوم
Adramyttium ، واتفق مع البشناق الكى يعملوا معه فى محاربة
القسطنطينية ؛ وكان الاتفاق بينهم و بينه يقضى بأن يتقدموا برّا
عبر شبه جزيرة غاليبولى ، وأن يُعينهم تراخاس بأسطوله فى مياه
الدردنيل . وأصبحت الأديرة على الجزر حصوناً تخزن فيها
الذخيرة . وعندما هاجم النورمان الإمبراطورية ، اضطرت روما
إلى أن تدفع ثمن تقصيرها فى الاستعداد ، وأن تشتري مساعدة
أسطول البندقية لها . فقد طلبت الإمبراطورية فى القرن التاسع
إلى تلك الدولة الجزرية أن تقدم سفناً لمحاربة العرب اعتماداً على
ما ابرزنطة من حق السيادة على البندقية . ولم يكن هناك سبيل
ا لضمان هذه المساعدة إلا أن تمنحها امتيازات تجارية (انظر الفصل
الثالث عشر) . وكانت نتيجة منح هذه الامتيازات أن تعرض
استقلالها الاقتصادى للخطر . ولو قد كان لروما « أسطول قائم »
لتوجهت الحملة الصليبية الرابعة إلى مصر لا إلى القسطنطينية .
وبالرغم من أنه توفر للإمبراطورية ، حينما انتعشت بعد ذلك فى
ظل آل باليولوجوس ، أسطول نشيط على صغره ، إلا أن الأيام
العظيمة ذهبت مع أمس الدابر إلى غير رجعة .

وليس في مقدورنا أن نقدّر بالتأكيّد القوة التي كان عليها أسطول بيزنطة عادة . وتدل التفاصيل التي بين أيدينا عن الحملة البحرية البيزنطية الوحيدة — التي نملك عنها تفاصيل — على أن عدد السفن كان مائة سفينة من الأسطول الإمبراطوري ، وسبعاً وسبعين من أسطول الولايات ، بينما كان عدد البحارة ٢٣٠٠٠ — ٢٤٠٠٠ من بحارة الإمبراطورية و ١٧٥٠٠ من بحارة الولايات . ويظهر أن عدد سفن الأسطول التي أمكن جمعها لحملة بحرية أيام ميخائيل الثالث (٨٥٨ — ٨٥٩) بلغ عددها ٣٠٠ مركب . وكان رجال السفن يتكوّنون من رعايا الإمبراطورية ، ومن المتبرّرين المستقرين في أرض الدولة مثل الماردائيين^(١) *Mardates* ، ومن المرتزقة الأجانب مثل الروس الذين استخدموا أول مرة في الأسطول ، كما يظهر ، زمن الأسرة المقدونية . ويبدو من كتاب *Tactica* (أي الفنون الحربية)

(١) الماردائيون : هم جماعات جبلية كانت تسكن نواحي لبنان من قديم الزمن . وكانت الدولة البيزنطية تستخدمهم في الدفاع عن حدودها الشرقية . فلما فتح المسلمون الشام تراجعوا إلى آسيا الصغرى ، وهناك أقاموا محاربون في صفوف جنود الدولة البيزنطية ، وظلوا يسبّون لحلفاء المسلمين متاعب جمة . وظل الأمر على ذلك حتى عقد عبد الملك بن مروان مع الإمبراطور جستنيان الثاني صلحاً اشترط فيه أن تنقل الدولة البيزنطية جماعات الماردائيين إلى ولايات الدولة الداخلية ، فانقطع بذلك شرهم عن المسلمين .

الذى كتبته ليو السادس ، أن رجال الأسطول كانوا بحارة وجنوداً .
ولكننا نلاحظ في حملة سنة ٩٠٢ أن جنود الأسطول كانوا شيئاً
آخر غير المجدفين . وكانت السفن المسماة دروموند^(١) تبني في
الغالب بصفين من المجاديف ، وتوضع في مقدمة السفن آلات
تقذف النيران الإغريقية الخفيفة . وكان البحارة يُجهّزون بقنابل
يدوية تحتوي على نفس تلك المادة القاتلة التي كانت تنفجر بقوة
على الرغم من أنها لم تكن تأتي بالغاية المرجوة . وتقسم سياستهم
البحرية بنفس الحذر الذي كانت تقسم به خططهم العسكرية .
كان أمير البحر في الدولة الشرقية لا يحارب إلا إذا كانت
جميع الظروف مواتية له ، أو إذا رأى أنه لا بد من الحرب لحماية
إحدى المقاطعات الرومانية . غير أنه لا سبيل إلى الشك في أن
الملاحين لا يعتمد عليهم في الغالب . وكان أهم ما يشغل بال أمير
البحر هو أن يدبر أمره في حالة ما إذا هددته الجنود بالانفضاض
من حوله .

ليس بين أيدينا سوى القليل من الكتابات عن الفن
البحري عند الرومان الشرقيين . لكن ما وصل إلينا يدل على

(١) *dromonds* : وهي السفن الكبيرة في العصور الوسطى ،
واللفظ مشتق من الكلمة اليونانية *dromos* أى السفينة .

توجيههم نفس العناية الدقيقة ، التي كانوا يوجهونها إلى علم العمليات
الحربية ، إلى مبادئ الحرب البحرية . فقد درس أمراء الحرب
البيزنطيون الأوصاف الطبيعية للساحل والجزر ، وخصائص
الرياح والمد . وأتقنوا فنا للخطط والحركات البحرية ، ووجهوا
إلى فنون الاستطلاع والإشارات ، اهتماماً يعادل اهتمام زملائهم
المحاربين في البر . وعلى الرغم من تعدد فترات النشاط البحري
فقد ظل الأسطول مجالاً للخدمة العسكرية أقل امتيازاً من غيره .
فكان الجندي البري يتقدم البحار دائماً . ولم تكن روما
الجديدة في هذه الناحية ، كما رأينا ، إلا محافظة على تقاليد العاصمة
الغربية القديمة .

الفصل التاسع

التعليم

« علينا أن نعد كل ما في طاقتنا لانتزول إلى معتك الحياة المسيحية . وينبغي علينا أن نغتنم الشعراء والمؤرخين والخطباء وجميع الرجال الذين ننظر منهم بأى عون لتثقيف أرواحنا »
(من كلام القديس باسيل^(١) للطلاب الشباب)

أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية ، ولكن ذلك لم يحدث تغييراً بعيداً في نظام التعليم . نعم ربما كان الرهبان والقسس البسطاء يرون في المعارف القديمة شرّاً من شرك الشيطان ، ولكن قادة الكنيسة المسيحية لم يروا ما يدعو إلى محاربة الثقافة الوثنية في عصرهم . وفي الوقت الذي كتب فيه باسيل إلى الشبان كتاباً عن أهمية دراسة المؤلفين الجدد ، أبدى أباطرة متلاحقون رغبة زيرة في رعاية الجامعات وترقيتها ،

(١) ولد القديس باسيل (٣٢٩ — ٣٧٩) ، ويدعى عادة باسيل الكبير ، في قيصريّة *Caesarea* . وقد درس في أثينا . وكان الإمبراطور يوليان وجريجوريوس النازيانزي زميليه في الدراسة . وقد عاد إلى قيصريّة حيث كرس نفسه للحياة الدينية ، وأصبح أسقفاً لها في سنة ٣٧٠ م .

وفي زيادة عدد المدرسين ، وفي إنشاء المكاتب وجمع مخطوطات الآداب القديمة . وقد وجه يوليان المرتد أقصى ضربة إلى الكنيسة المسيحية حين منع المسيحيين من أن يعلموا في المدارس . وقد تلقى القديس باسيل والقديس جريجوريوس^(١) النازيانزي *Gregeroy Nazianzen* كلاهما تعليماً جامعياً . وكان باسيل قبل تنصره أنجب تلاميذ ليبرانيوس^(٢) *Libanius* السفسطائي ، وخليفته المنتظر .

ولنتبع — بصورة مجملة — خطوات التعليم التي كان يتدرج فيها شاب من الطبقة العليا في القرن الرابع من ذلك العصر .

(١) ولد جريجوريوس النازيانزي بالقرب من نازيانزوس *Nazianzus* في كبادوكيا *Cappadocia* حوالي سنة ٣٢٩ ب . م . وقد درس في أثينا مدة ست سنوات ، وهنا أصبح صديقاً لباسيل . وعاد إلى بلده في سنة ٣٥٦ م ، وظل في نازيانزوس يساعد أباه الذي كان أسقفاً لها . وذهب إلى القسطنطينية سنة ٣٦٩ م وأصبح أسقفاً لها سنة ٣٨٠ ، وتوفي سنة ٣٨٩ م .

ويعد الآباء الكبادوكيون — وهم باسيل ، وأخوه جريجوريوس النيسى *Gregory of Nyssa* ، وجريجوريوس النازيانزي ، في القرن الرابع — أعظم الكتاب والمفكرين المسيحيين .

(٢) ليبرانيوس السفسطائي (حوالي ٣١٤ — ٣٩٥ م) ولد في انطاكية ، وتلقى العلم في أثينا ؛ ثم فتح مدرسة في بلده تخرج فيها كثير من العلماء والأدباء ، بينهم القديس باسيل والقديس كريسوستوم .

كان الصبي يبدأ بتعلم القراءة والكتابة في الخامسة أو السادسة من عمره . ولم يكن الوُعَاظ المسيحيون يكفون عن تذكير الآباء بأن يدركوا واجبهم الشخصي تجاه أبنائهم . وكان الناس يستسهلون إلقاء مهمة التربية كلها على المربي (*Padagogue*) . ولم يكونوا مع ذلك لبيدوا عناية كافية لاختيار شخص كفء لتلك الوظيفة المهمة . وكم ودّ كريسوستوم أن تناط تلك المهمة براهب من الرهبان . وفي سن العاشرة أو الثانية عشرة كان الولد يلتفت إلى دراسة النحو . وكان لعلم النحو مدلول أوسع مما له اليوم عندنا ؛ إذ لم يكن يقتصر على تصريح الأسماء والأفعال وقواعد تركيب الجمل ، بل كان يضم إلى جانب ذلك دراسة الآداب القديمة . فحين كانت العبارة تقرأ ، كانت تعرب وتحلل ، وتفسر كلماتها الصعبة والغريبة ، وتدرس اشتقاقاتها الصرفية ، ويُفهم معنى ما يرمى إليه الكاتب ، وتعرف قيمته الأدبية . وكانت تستعمل لهذا المعاجم والشروح والكتب المعلقة حواشيها . وكان الطالب يبدأ بهوميروس قبل أن يمضي إلى دراسة الشعراء الآخرين . ويخبرنا سينيقيوس في إحدى رسائله ، بكل إعجاب ، أن ابن أخته كان يحفظ خمسين بيتاً من هوميروس كل يوم ، ويميدها مضبوطة دون تلعثم . وقد حفظت

لنا إحدى أوراق البردى في مصر رسالة من أمّ قلقة على ابنها بطليموس ، الذي كان يتلقى العلم على يدي نحوى ، تحت إشراف مربيّه . ولكن مدرّسه اعتزل العمل ، فكتبت أمه إليه تنصحه بأن يجده مدرّساً جديداً بمساعدة مربيّه وأن لا يتخلى عن دراسة هوميروس إلا حين يبلغ الكتاب السادس .

وفي إحدى أوراق البردى التي عثر عليها في الفيوم نرى كيف كان المدرس يشرح هوميروس . فنرى مقابل كل كلمة من المتن ترجمتها إلى اللغة اليونانية الدارجة ، وهي بالضبط كتلك الثمرة التي كان تناولها محرماً علينا في أيام الطفولة — أعني تلك التفسير الحرفية المشتهاة لقطع الأدب القديم .

وكانت الروايات — من محزنة ومضحكة — تقرأ كذلك . ويخبرنا خوريكيوس *Choricus* — وكان مسيحياً — أنه لم يعترض أى أب من الآباء على الفحش الكبير الذي يرد في روايات الهزليين القدماء . وعند ابكتيتس *Epictetus*^(١) صدى حي

(١) ابكتيتس : فيلسوف رواقى ، طرده من روما دوميتيان فأقام في نيقوبوليس *Nicopolis* في ابيروس *Epirus* . ولم يترك لنا مؤلفات . والكتيب الصغير (*Enchiridion*) الذي يحمل اسمه جمعه تلميذه أريان *Arrian* من أحاديثه .

لامتحان قصير فاز صاحبه بالثناء . وجرى فيه السؤال والجواب
كما يلي :

س : من هو والد هكتور ؟

ج : فريام .

س : ما اسم أخويه ؟

ج : اسكندر وديفوبوس .

س : واسم أمه ؟

ج : هكابه .

س : كيف تعرف ذلك ؟

ج : من هوميروس ، وكذلك هيلانيكوس^(١) *Hellanicus*
وغيره كتبوا في هذا الموضوع .

وفي هذا كفاية ! لأن هذا المنظر واقعى إلى درجة بالغة .

وفي سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة كان الولد يهجر
النحو إلى البلاغة . وكان المربي لا يزال يصحب الصبي إلى
المدرسة في هذه السن ، بينما يحمل له عبد حقييته وكتبه الضخمة
الثقيلة . وحتى في القرن الرابع عشر كان الآباء يتذمرون من

(١) هيلانيكوس : مؤرخ يونانى شهير ، ولد في ميتلين وتوفي
سنة ٤١١ ق . م . وعمره خمس وثمانون سنة .

غلاء أسعار الكتب المدرسية ، وكثيرا ما أشار ليبانيوس إلى أنها كانت شيئا ضروريا جدا . وفي دراسة البلاغة كان الطالب يدرس كتب عدة مؤلفين ، وأكثرهم من كتاب النثر ، مثل ديموستين ، وهيرودتس ، وثوكديدس ، وايسقراط ، وليسياس . وكانت مؤلفات ايسقراط شائعة كثيرا ، كما كان كثير من كتابات ديموستين وثوكديدس يحفظ عن ظهر قلب . وكانت القراءة بصوت مرتفع تظهر مبلغ فهم الطالب لما يقرأ حق الفهم ، وتساعد كذلك على تقويم صوته . فقد كان الخطيب الذى يريد أن يتدفق فى كلامه فى ذلك الوقت يحرص على تنعيم خطبه أكثر مما يحرص على أداء ما يقول أداء حسنا . وكان الولد فى العمل البيتى ، وهو تحت إشراف المربي ، يؤدى قسما وافرا منه أداء جهوريا ، حتى إن ليبانيوس يقول ساخرا إن الجيران لم يكونوا ينامون ، وبعضهم مرض من جراء الضجيج . فإذا وفق الطالب بهذه الطريقة إلى معرفة أساتذة الأدب الأتيكى ، كان يبدأ التمارين الكتابية . فكان الأستاذ يقرأ أنموذجا مختارا من أسلوب إنشائى معين بصوت مرتفع ، ويطلب إلى التلامذة أن ينشئوا موضوعاتهم على مثاله . فكان الطالب ينتقل من خرافة بسيطة لأيسوب ، إلى حكاية حكاها واحد من العظماء أو المشاهير

ثم إلى الكتابة عن قول مأثور ، أو قطعة من الحكمة السائرة ، أو يتناول الشخصيات البارزة في التاريخ بالمدح أو الذم أو المقابلة . وكثيرا ما كان الطلبة ينشئون دراسات لشخصيات معروفة . وربما طلب إلى التلاميذ أن يصفوا بعض الصور المعلقة في مقر مجلس المدينة ، أو يبحثوا في مسألة عامة مثل : هل على الرجل أن يتزوج أم لا ؟ ثم يتدرج من ذلك إلى تمارين أطول وأصعب ، فينثر خطاب أحد أبطال هوميروس . وفي ذلك العصر الذي كانت الثقافة فيه تتركز في المراسلات ، كان لا بد من دراسة مفصلة لفن كتابة الرسائل . وكانت الرسائل النموذجية تقرأ بصوت مرتفع في المدرسة . إذ كان لا بد للرسالة من أن تبرز شخصية الكاتب ، وأن تكون قصيرة مصوغة في أسلوب أتيكي صاف . وكان لا بد أن تكون اللغة فيها سهلة تتخللها الأمثال كثيرا . وثمة مؤلف حديث عن الأمثال الواردة في كتابات سينيقيوس ، وقراءته تدل على مقدار حرص الناس على اتباع نصائح ديمتريوس في هذا الصدد . وكل ذلك مرده إلى حقيقة واحدة ، وهي أن الطالب كان كل شيء ، وأما الموضوع فيتفاوت كثرة وقلة . ومن هنا تبدو لنا مراسلات تلك الفترة متكلفة خالية من العنصر الإنساني ، وأنها قد تنحط في كثير من

الأحيان إلى عرض يدل على اطلاع واسع جامد .
ولم يكن الطالب في ذلك العصر مادة سهلة التكيف بالضبط
كما هي الحال اليوم . فنحن نراه يدرس على ليبيانوس في أنطاكية
وإلى جانبه مربيه والعصا في متناول يده . فأما الأستاذ فكان
يجلس على كرسي عال في حين كان الطلاب يجلسون على مقاعد
واطئة . وكان معظمهم يحىء من آسيا الصغرى وسوريا وفينيقية .
وقد تقسرب إلى التمرين كلمات انيكية ، ولا يكاد عصا الأستاذ
وسوطه يفيدان في إبعادها .

وكانت السنة المدرسية تبدأ في الخريف وتدوم دون انقطاع حتى
بداية الصيف ، ثم تتبع ذلك العطلة وتدوم أربعة أشهر في فصل
الحر . وكانت الدروس تدرس في الصباح ، كما كان بعض الطلاب
الكبار يستمعون إلى المحاضرات بعد الظهر كذلك . وفي أيام الأعياد
وميلاد الملوك وغيرها كانت المدارس تقفل أبوابها ، وتقام مصارعات
الوحوش والألعاب والروايات في دار التمثيل . حتى الأساتذة
المسيحيون لم يروا أدنى ضرر في أن يتردد التلاميذ على دار التمثيل ،
مع أن إيسيدور ^(١) Isidore البيلوسيومي ذم مثل ذلك العمل .

(١) إيسيدور البيلوسيومي : هو تلميذ كريستوستوم ، وسمى
البيلوسيومي نسبة إلى بيلوسيوم (الفرما) في مصر . وقد بقيت من رسائله
٢٠١٢ رسالة مكتوبة بالإغريقية .

ومع أنه كان من المسموح به للطلاب في غزة أن يحضروا التمثيل فقد كان من عادة أساتذتهم أن لا يحضروا . وكانت الراحة يوماً واحداً في مناسبات الأعياد الثانوية كعيد أرتميس *Artemis* ^(١) . وكان الطلاب يصيحبون طالبي إجازة يومين ، بينما كان آباؤهم يتقدمون لما في ذلك من تضيق لوقت الدرس . وكانت تفرد أيام للخطابة بين حين وآخر يلقي فيها الأكفاء من الطلاب أو الأساتذة نماذج خطابية ، ويدعى لسماعها الأصدقاء والآباء . وكان من الصعب حفظ النظام في تلك المناسبات . وكان يحدث أن يقبل الخادم ليدعو الطلبة للدخول ولكنهم كانوا يظلون في الخارج يغنون ، وكثيراً ما كانوا يتهايمسون أثناء الخطابة متحدثين عن سائقي العربات والخيول والراقصين ، أو يصفقون للأستاذ في غير موضع التصفيق . وكثيراً ما كان الطلاب — كما هم في العصور الحديثة — يستمرئون الكسل ، كما كانت المشاجرات شائعة بينهم . ولم يكن إيبانيوس يرى في ذلك حرجاً لواقصرته القذائف على الكتب ، ولم تستعمل فيها الحجارة .

(١) أرتميس : إلهة يونانية ، تسمى ديانا *Diana* عند الرومان .

وهي حسب ما تقول الروايات القديمة ابنة زيوس *Zeus* وليتو *Leto* . وولدت في جزيرة ديلوس .

ولكن الطلاب كانوا يتجاوزون الحدود حين يمددون أحد المربين على بساط ، ثم يأخذون في قذفه إلى أعلى وتلقيه . ولا ريب أن الأستاذ كان يخاف أن يسرف في الشدة على الطلاب خوفاً من أن يهجره إلى منافسه . وفي القرن الرابع نفسه كان الآباء كثيراً ما يرسلون أبنائهم إلى الفراش دون عشاء عقاباً لهم . وكان من الإجراءات التأديبية الفعالة حرمان المذنب من الذهاب إلى الحمامات العامة .

وكانت جامعة أثينا لا تزال في القرن الرابع أشهر مركز لدراسات البلاغة ؛ وإلى تلك الجامعة يعزى ما كان قد بقي لها من الأهمية . وفيما خلا ذلك لم تكن يومئذ أكثر من مدينة في ولاية . وقد تبين شيوخ المدينة أن رخاء السكان يعتمد على وجود الطلاب بهذه الجامعة ؛ ولهذا كانت البلدية تدفع راتب أستاذين للفلسفة ونحوي واحد على الأقل ، بينما كانت الحكومة تتعهد براتب أستاذ للفلسفة واحد . وكان أساتذة الفلسفة في الغالب غرباء . وكان الطلاب القادمون من نواحي الإمبراطورية المختلفة يميلون بالطبيعة إلى أن يدرسوا على أساتذة من بني جلدتهم . وكان الأساتذة أعداء بعضهم البعض في كل مكان ، حتى كان ليسانوس يرى واجباً على طلابه أن يجعلوا عيش زملائه منفصلاً

ما أمكنهم ذلك . وكان تلامذة كل أستاذ للفلسفة في أثينا يكونون جماعة متماسكة . وكانوا يرون أن الاستماع إلى أستاذ غيره إنما هو خيانة كبيرة . وكان هدفهم من ذلك أن يكثروا عدد هيئتهم ، فتزيد بذلك مواردُ أستاذهم وصيته . فإذا كانت أوائل الشتاء وأقبل الطلاب الجدد ، حرصت هذه الجماعة على مراقبة كل موانئ أتیکا ، فبثت كل منها رجالها في بيرية^(١) وسونيوم^(٢) ، وربما بعثتهم حتى كورنث ، ليقطعوا الطريق على القادمين الجدد . وكانوا يأخذونهم — شاءوا أم أبوا — ودون أن يهتموا برغباتهم ، ويبقونهم سجناء حتى يقسموا أن يسجلوا أنفسهم طلاباً لذلك الأستاذ الذي احتضن آسروهم قضيته . وقد كان ليبيانوس يرغب في أن يدرس على مواطنه إيفانيوس^(٣) *Epiphanius* ، ولكنه سجن وأجبر على أن يتخلى

(١) بيرية *Piraeus* : وهي ميناء أثينا ، وتقع في شبه الجزيرة على بعد ٥ أميال جنوب غربى أثينا . وقد اقترح ثيمستكليس *Themistocles* اتخاذ بيرية ميناء لأثينا بدل فاليروم ، مينائها الرئيسي قبل الحروب الفارسية اليونانية .

(٢) سونيوم *Sunium* : رأس مشهور يكون نهاية أتیکا من الناحية الجنوبية ، وتقوم عليه مدينة تحمل نفس الاسم فيها معبد لأثينا .

(٣) إيفانيوس : ولد في فلسطين وتثقف على أيدي رهبان مصريين فنشأ ورعاً متعصباً للدين . وقد كان أسقف قسطنطينية *Costantia* من أعمال قبرس من سنة ٣٦٧ م حتى وفاته في سنة ٤٠٣ م .

عن رغبته أمام طلاب ديوفانتس *Diophantus* ، الذين انتزعوه في عنف من جماعة أخرى من الطلاب كانوا قد ألقوا القبض عليه . فإذا كان اليوم التالي أخذ الطالب الجديد إلى الحمامات حيث يغطس في الماء ، ثم يسجل اسمه رسمياً . ويصبح لازماً عليه بعد ذلك أن يقيم مأدبة لزملائه الطلاب . وقد بلغت المنافسة بين هذه الجماعات حداً أضحت المعارك معه تنشب فيما بينها في شوارع أثينا ، وتستعمل فيها الهراوات والحجارة والسيوف . وقد ألقي الطلبة الوحل في الشارع على وجه أستاذ للفلسفة غير محبوب ، وجروا أستاذاً آخر — وكان مصرياً — من فراشه ليلاً ، وجروا به إلى نافورة ماء حيث هددوه بأن يقدفوه في مائها إن لم يقسم أنه سيفادر أثينا في الحال . وكثيراً ما كانت الدراسة تهمل لتحمس الطلاب يومئذ لألعاب الكرة كما هي الحال اليوم ، بينما كان يقع الكثيرون من الطلاب تحت عبء الدين لتبذيرهم النقود على المومسات الجميلات . ولكن كانت تنشأ بين الطلاب خلال سنوات الدراسة صداقات يطول عمرها . فكان الشيوخ منهم يحبون أن يستعيدوا ذكرى الأيام التي قضوها وهم شباب في المدينة المتوجّة بالبنفسج .

وكان الطلاب يأخذون في دراسة الفلسفة في سن الثامنة عشرة أو العشرين . وكانت هذه الدراسة تاج التعليم في القرن الرابع . وقد كانت الحكومة هي التي تقوم بالإيفاق على المعلمين في مدن مثل الاسكندرية والقسطنطينية . أما في أثينا فقد كانت موارد الأكاديمية تزداد بما يقدمه الطلاب المتخرجون من هبات ، فتكفي لتسد حاجة الأساتذة ؛ فكان هؤلاء يصبحون أحرارا نتيجة لذلك . وقد كان أرسطوطاليس يدرّس كمُدخل لدراسة أفلاطون . وكان فهم مؤلفات أفلاطون يستلزم معرفة عامة بقواعد الرياضيات والهندسة والموسيقى والفلك . وكانت بعض الكتب الدراسية التي ثبتت جودتها بالتجربة لا تزال تُستعمل — ومنها ما كان يرجع في تاريخه إلى القرن الثاني . وهكذا كان بروكلوس في القرن الخامس يحاضر عن إقليدس مع أن كثيرين كانوا يرون أن كتاب بطليموس أوفى وأكثر كفاية . وكانت كتابات أرسطوطاليس وأفلاطون تقرأ على ترتيب معين . ويبدو أن بروكلوس كان يلقي خمس محاضرات يوميا ، يقطع في كل محاضرة ما يعادل صفحة ونصفا من طبعة تويبنر *Teubner* . ولم تقتصر الدراسة على أرسطوطاليس وأفلاطون فحسب . فقد كان والد

ثيمستئوس *Themistius* يحاضر عن فيثاغورس وزينون^(١) وأبيقور^(٢). ويبدو أن الناس ما كانوا يقرأون أبيقور إلا ليتخذوه مركبا لسخريتهم . ولم يستبعد ثيمستئوس من برنامج دراسته الرواقين في القسطنطينية . وكان في متناول يد الأستاذ عدد من الشروح النافعة على أرسطوطاليس (*Ethica*) ؛ ولكن يظهر أن ثيمستئوس كان مبتدعا حينما ألف لطلابه شروحا على مؤلفات أفلاطون وأرسطوطاليس . وقد عرفنا أمر هذه الشروح عن طريق الملاحظات التي سجلها الطلاب عنها . حتى إن فيلسوفا مثل بلاكستون *Blackstone* في عصر متأخر وجد نفسه مضطرا أن ينشرها دفاعا عن نفسه . ولا يزال بعض شروحه على أرسطوطاليس موجودا .

ولكن أهم مظهر بارز في تعاليم ثيمستئوس هو إلحاحه على قيمة الفلسفة من الناحيتين الأخلاقية والعملية . وقد لقي في ذلك

(١) زينون *Zeno* (٣٣٦ — ٢٦٤ ق . م) مؤسس المذهب الرواق في الفلسفة . ولد في كيتيوم *Citium* من أعمال قبرص .
(٢) أبيقور *Epicurus* : فيلسوف يوناني ولد في سنة ٣٤١ ق . م في جزيرة ساموس ، ثم أقام في أثينا في سنة ٣٠٦ ق . م . وأسس المدرسة الفلسفية المعروفة باسمه وتوفي سنة ٢٧٠ ق . م .

انظر : *BERTRAND RUSSELL : History of Western Philosophy, pp. 263 — 74.*

عوننا من الإمبراطور . إذ كان هو نفسه سياسيا وأستاذا معاً .
وجرب أن يخرج الفلسفة من عزلتها ويجعلها قوة فعالة في التعليم
الأخلاقي للمواطنين الصالحين . حقا إن العصر كان ينظر إلى العلم
الطبيعي نظرة ملؤها الريبة ، فكان المسيحي يرى أن الكتاب
المقدس قد كشف له عن سر الخليقة ونظامها دفعة واحدة ، وكان
من السهل أن ينزلق المرء ويؤخذ في تيار آراء منحرفة عن الدين .
حتى الفلسفة اليونانية المتعلقة بما وراء الطبيعة كانت شيئا مريباً .
وقد شكّا ثيمستئوس^١ في إحدى خطبه من أنه لو شاء أحد من
الناس في القسطنطينية أن يتفرغ لدراسة أرسطوطاليس ، لم يسلم
من الجمهور الذي كان ينتبه السلطات دائماً إلى ذلك المجرم .
فإذا كتب عن الاستدلال أو الطبيعيات فقد استحق الموت
بلا ريب . وكانت تسود أهل الاسكندرية تلك الروح
التي أدت بهيباطية *Hypatia*^(١) إلى حتفها . ولذلك مال
المسيحيون والوثنيون إلى تركيز دراساتهم على أساس منطقي
حيادي . وانتزعت الاسكندرية قصب السبق من أثينا . ففيها

(١) هيباطية : من أهل الاسكندرية ، اشتهرت بجهاها وفضائلها
وسعة اطلاعها . وقد قُتلت غيلة سنة ٤١٥ ب . م .

أنشأ الفيلسوف المسيحي أوريجن ^(١) *Origen* مدرسته الوعظية .
وقد ظلت مدرسة الاسكندرية الفلسفية قائمة حتى عشية الفتح العربي .
هكذا كان على وجه الإجمال منهج التعليم الروماني في القرنين
الرابع والخامس . انتشرت المدارس خلال الشرق الروماني —
في نيقوميديا وانكيرا من آسيا الصغرى ، وفي قيصرية من
كبادوكيا ، وفي قيصرية الجديدة في ناحية بنطس . ويُشار إلى
وجود مدارس في كيليكية وپامفيلية ، وفي ساردس وبرجامون
في ناحية أيونية . وكانت الإسكندرية مركز الدراسة لأقاليم
الجنوب . وكان يؤخذ منها الأساتذة للمدارس في بيلوسيوم
(الفرما) وهرموبولس ^(٢) وأكزيرنخوس ^(٣) *Oxyrynchos*

(١) أوريجينيس *Origenes* (أو أوريجن *Origen* كما يسمى عادة)
وهو أحد الفلاسفة المسيحيين الأول . ولد في الإسكندرية في سنة ١٨٦ ب.م.
وتلمذ على كليمنت الإسكندري . وقد استشهد أبوه في سنة ٢٠٢ ب.م.
فصار مدرساً للنحو ، وعينه ديمتريوس أسقف الإسكندرية واعظاً في
سنة ٢٠٤ م . وقد زار روما وبلاد اليونان ، إلا أن الأسقف عند
رجوعه إلى الإسكندرية حظر عليه التعليم فذهب إلى قيصرية في فلسطين
حيث اشتغل معلماً ، ثم إلى قيصرية في كبادوكيا . وتوفي في سنة ٢٥٣
أو ٢٥٤ في صور .

انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٧٤ — ٢٨٤ ،

BERTRAND RUSSELL : *Op. Cit.*, pp., 346 — 8.

(٢) قرية الأشمونين : من أقدم المدن المصرية وهي على الضفة الغربية

من النيل ، وكانت أكبر مراكز لعبادة أنوبيس .

(٣) هي البهنسا الحديثة وتقع قرب الفيوم .

وكذلك لمعاهد قيصرية في فلسطين وحمص على الحدود العربية .
وفي القرن الخامس ذاع في الشرق صيت بعيد لمدرسة الخطابة
المسيحية في غزة ، بينما كانت أنطاكية وأفامية وخلقيس وحمص
في سوريا تفخر بأساتذتها المشهورين .

وفي كل هذه المدارس ظلت اللغة الإغريقية محتفظة بمكانتها .
وقد كان أعظم الأساتذة مثل ثيمستئوس وإيبانيوس ينظرون
بازدراء إلى اللسان الغربي . وقد رفض ليبانيوس عمداً أن يتعلم
كلمة واحدة من اللاتينية . وعدّ قيام مدرسة تعلم اللاتينية في
أنطاكية إهانة شخصية له . ولم تكن دراسة اللاتينية تعلم بحماس
إلا حيث كان يدرس القانون الروماني . وفي غير ذلك كانت
محاولات الأباطرة لنشرها فاشلة في الغالب . ولم يكن للفلسفيات
شأن في مدارس القانون بالإسكندرية وبيروت . ولم يكن الناس
يتعلمون فيها من البلاغة إلا ما كان ينفع المحامي أو الموظف
الإداري عملياً . وقد حاول جستنيان أن ينمّش دراسة القانون التي
كانت منذ ذلك الحين قد أصبحت وقفاً على جامعات القسطنطينية
وروما وبيروت ، فأصبح منهج هذه الدراسة في المستقبل يستغرق
خمس سنوات . فكان الطلبة يدرسون في سنتهم الأولى النظم
Institutes ، والكتب الأربعة الأولى من الموجز *Digest* .

وكانت السنوات الثلاث التالية تنفق في دراسة الموجز ، مع أن التلاميذ كانوا يعفون من الامتحان في الكتب من ٣٧ — ٥٠ : أما السنة الخامسة فكانت تكرر لدراسة القانون *Code* . وقد منع الإمبراطور بشدة ما كان شائعاً من تعذيب الطلبة الجدد والسخرية منهم . إذ كان يعتبر ذلك تقليداً كريهاً غير لائق ، ويصح للعبيد فحسب ، لا للطلبة الجادين .

وحتى في القرن الرابع نفسه — كما رأينا — كانت الثقافة القديمة تقف موقف المدافع عن نفسه ، لأن تسامح الأباطرة الأرثوذكسيين مع الفلسفة اليونانية أخذ يقل بالتدريج . وفي سنة ٥٢٩ م صادر جستنيان الموارد التي كان يُنفق منها على تعليم الفلسفة في أثينا . وأرسل أساتذة الفلسفة إلى فارس منفين . وقرر أن تُستقى ثقافة العالم الروماني الشرقي من أصول مسيحية . ويسدد بركوبيوس إلى جستنيان اتهاماً بأنه حول المال ، الذي كان ينفقه أسلافه رواتب للعلماء والحكماء ، إلى أهداف أخرى . وقد أغلق فوقاس البربري (٦٠٢ — ٦١٠) جامعة القسطنطينية ، وحلت محلها مدرسة دينية في أيام خلفه هرقل . وإلى هذه الأكاديمية الجديدة ، القائمة في قصر على مقربة من خالكوبراتيا *Chalkoprateria* ، دعا الإمبراطور الفيلسوف ستيبانوس *Stephanus* ، آخر من كان

يمثل مدرسة الإسكندرية الفلسفية . ومن ثم يظهر أن التعليم في العاصمة كان دائماً تحت إشراف البطريق .

وقد شهد القرن التاسع نهضة في تعلم الفلسفة والعلم اللذين كانا يلتقيان عونا صادقا من الأباطرة . وقد أعاد القيصر بارداس إنشاء الجامعة القديمة في القسطنطينية ، وعين لها أساتذة في الهندسة والفلك وفقه اللغة . ونستطيع أن نحيط ، من سجل كتب مكتبة فوتيوس ، بالعدد العظيم من الكتاب النائرين الذين كانت مؤلفاتهم تدرس وتحلل في حلقات القراءة ، التي كان أولئك الموسوعيون البيزنطيون يعقدونها ، ويبدلون فيها جهداً لا يعرف التعب . والواقع أن الدراسات القديمة لم ينقطع تدارسها في القسطنطينية منذ عهد فوتيوس إلى سقوط المدينة سنة ١٢٠٤ م .

غير أن الكنيسة كانت تنظر إليها بعين الريبة ، حتى إن إلكسيوس الأول كومنينوس عند ما أصلح التعليم ، وجد أنه لا بد من إحلال الكتاب المقدس المكانة الأولى في الدراسة ، مع أنه كان يشجع الذين قبسوا مبادئ أولية من فلسفة أرسطوطاليس .

ولا نسمع عن تعليم القانون إلا القليل . ولكننا نعلم أنه لم تكن توجد في القسطنطينية في القرن الحادي عشر مئونة من الدراسة القانونية . فلما أنشئت في العاصمة مدرسة جديدة أيام

قنسطنطين مُنوماخوس سنة ١٠٤٥ م ، اضطر الإمبراطور أن يعترف بأن أسلافه قد تركوا « دراسة القانون المقدسة تمضى على عواهنها من غير توجيه ، كقارب بلا دفة في لجة الحياة » . وكان المحامون قد أخذوا يزاولون المحاماة دون دراسة . وحتى الذين كانوا يرغبون في أن يدرسوا ، لم يجدوا إلا كتباً مدرسية دون أساتذة . وقد خآف لنا الإمبراطور وثيقة قانونية طريفة جداً عن تأسيس هذه المدرسة ؛ ونستطيع أن نعرف منها أنه كان لا يزال يوجد في ذلك الحين نحويون يدرسون في القسطنطينية . ويفيدنا أن نلاحظ أنه كان لا بد لرئيس مدرسة القانون الجديدة (νομοδιδάξ) من أن يكون متضلماً بالأغريقية واللاتينية معاً .

وإنه لمن سوء الحظ أن مدرسة كانت هذه بشاؤها منذ البداية لم يكتب لها عمر طويل . وحينما أقبلت أيام الفوضى في أواخر القرن الحادى عشر ، كانت خزينة الدولة لا تستطيع أن تخصص للتعليم إلا قليلاً جداً من المال . ولا شك أن الإمبراطورية ، التى لم تكن لتستطيع أن تقوم بما يتطلبه أسطولها ، كانت تمد الجامعة نوعاً من الترف لا مفر من الاستغناء عنه .

الفصل العاشر

الأدب

« نحن في حاجة إلى نوعين من التعليم : مسيحي ووثني . فنكسب من الأول فائدة للروح ، ونتعلم من الثاني سحر الكلمات »
خوربكيوس ، في خطابه الثاني عن مارقيان أسقف غزة .
(طبعة بوسونفاد ، ص ١٠٩)

تغلبت روما على الدول التي نشأت عن تفكك إمبراطورية الإسكندر الكبير الآسيوية . ولكنها لم تفلح في فرض الحضارة اللاتينية على البلاد التي تحيط بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . فقد كانت الثقافة الهلينستية واسعة الانتشار ، ثابتة الأساس فيها . وعلى الرغم من المحاولات التي بذلها دقليديانوس وخلفاؤه في تشجيع لغة الغرب ، فإن اللسان الإغريقي ظل يحفظ مكانته . وقد اقتبس هذا اللسان عدة ألفاظ من اللاتينية في مادة الشريعة والإدارة مع عدد كبير من الاصطلاحات العسكرية . ومع ذلك فإن شيئاً واحداً من ذلك كله خلف أثراً ماضياً في الأسلوب اليوناني : وهو تلك الصيغ الرسمية التي كانت تصاغ فيها

الكتب التي كانت تصدر على هيئة منشورات ومراسيم . وعلى ذلك فأدب روما الشرقية هو أدب يوناني ، حتى إن كوريبيوس^(١) *Corippus* الإفريقي ، عند ما نظم ملاحمه اللاتينية في القرن السادس ، صاغها في قوالب يونانية . وكان هذا الأدب إلى جانب ذلك تحصيلياً . فقد ورث البيزنطيون منقولات الأساتذة الهلينستين — وهم رجال لم يحاولوا أن يصوروا حياة عصرهم بقدر ما حاولوا أن يستعيدوا أفكار الماضي المجيد وأعماله — وقد صاغوا أساليبهم في قوالب أتيكية ، درسوها مستعينين بالمعاجم وكتب النحو . ومن ثم نشأت تلك الهوة — التي لا تزال موجودة — بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة في بلاد يونان . وما يصدق على تلامذة عصر البطالسة يقال في (الإسكندريين المسيحيين) — من علماء القسطنطينية . فإن مؤلفاتهم تعوزها السلاسة التي تصدر عن الطبع . وكل نهضة أدبية تنظر إلى الوراء ، وتعمل على أن تحكم الروابط التي تصل الحاضر بالماضي . ولكنها تقسم بالتقليد

(١) فلافيوس كرسكرونيوس كوريبيوس : شاعر روماني من شعراء القرن السادس الميلادي . وهو صاحب المرحمتين *Iohannis* أو *De bellis Libycis* و *In laudem Iustini minoris* وتقع هذه في أربعة كتب يتحدث فيها عن موت جستنيان ، وتروي خلفه جستنيان الثاني ، وعن الحوادث التي وقعت في أوائل حكمه .

الدقيق للأسلوب الأتيكى ، الذى كان قد أصبح حينذاك موغلا
فى القدم متكلفا . وهكذا يقف المؤلفون المسيحيون فى ذلك العصر
بعيدى عن عصرهم . وتراهم ، وهم يعيشون فى مجتمعاتهم المسيحية
ويؤلفون لها ، يتكلمون عن الطقوس المسيحية وأعيادها وكأنها
أشياء غريبة مجهولة . ويخيل إلينا ونحن نقرأهم أننا نسمع هيرودس
— مرة أخرى — يشرح لقرائه اليونان معتقدات المصريين
وطقوس عبادتهم العجيبة . وتتوارد على صفحات كتبهم أفكار
الوثنيين عن الحظ والقدر باعتبارهما القوتين الدافعتين للفعالتين
فى عالم تزدهيه الخيلاء بأرثوذكسيته الخلقيدية . وإنه لما يبعث
اليأس فى قلب دارس الأجناس الحديث أن يرى شعوباً ، لم
تعرفها يونان القديمة ، قد دخلت المسيحية تحت أسماء وضعها كبار
مؤرخى العصور القديمة . ونحن اليوم على استعداد لأن نضحى
بالكمال الشكلى إذا استطعنا أن نستبدل به عبارة صادرة عن
شخصية حقيقية من نفس العصر . أما البيزنطى القح فكان
الشكل أهم شيء عنده . وكان يحسب أنه لن يستطيع أن يهيم
لنفسه مكاناً طيباً فى محراب الأدب المخلد إلا إذا اجتهد مخلصاً
فى متابعة التقاليد القديمة . وهكذا حافظت روما الشرقية بعناية
فائقة على تراثها الذى لا يقدر ، وانفقت جهودها فى دراسته عن

طريق التعليقات والشروح . ولكن كان يعوزها تطلع الشباب الإلهي ، والرغبة في تعمق أمرار الطبيعة والوجود ، وروح البحث الحرة ، التي تبدو في مؤلفات المفكرين اليونانيين الأقدمين وكأنها نسيم الصباح . وتبدو أصالة الأدب البيزنطي في أكل صورها في اللاهوت ، وفي الشعر الديني والتاريخ . هذا وقد ظلت القصائد اللاذعة موجودة ؛ وإلى تعشق البيزنطيين لهذا اللون من الفن الأدبي يرجع الفضل في بقاء مجموعة المختارات اليونانية .

وقد رأينا أثناء دراستنا للحياة الاجتماعية والدينية في الإمبراطورية أن حكم قنسطنطين يبدأ عصرأ جديداً . ويصدق هذا إلى حد بعيد على القوالب الأدبية . إذ أن ظاهرة جديدة أخذت تظهر : فقد كان الشعر الكلاسيكي خاضعاً لقواعد أساسها الكم ، وكان تركيب عبارته يقوم على أساس من طول المقاطع . أما في لغة الكلام ، في عصرنا الذي نتحدث عنه ، فكان النبر هو ميزان الكلمات . ووضع الضغط على المقطع المنبور . وعلى هذا قصرت المقاطع غير المنبورة مهما بلغ طولها الطبيعي . وقد جرى على هذه القاعدة جريجوريوس النازيانزي الذي كتب شعراً ، اتخذ النبر وحده أساساً لصياغته . ونظمت المدائح الدينية المسيحية في شعر ميزانه عدد النبرات . واستحدثت القوافي لتكون رباطاً بين الأبيات . ولما كانت البلاغة تميل إلى إزالة

الفوارق بين الشعر والنثر بما فيها من الموسيقى الإيقاعية ، فقد تأثر النثر الفنى بالتطور الجديد . ولكن ، لما كان أدب روما الجديدة محافظاً قبل كل شيء ، فإن غلبة الشعر الذى يوزن بعدد المقاطع ظلت على ما هى عليه ، لم تهددها النزعة الجديدة بخطر جسيم . هذا ، وينبغى أن نضيف أن النبر ظل يؤثر فى بنائه بصورة متصلة . وكان له أثر جديد فى البحور الشعرية القديمة . وهذا مثل واضح جداً لقوة التقليد الأدبى .

وفى القرن الرابع كتبت مؤلفات أثناسيوس بطل الأرثوذكسية ، وباسيل مؤسس الرهبنة اليونانية ، وكذلك مؤلفات اللاهوتيين من أمثال جريجوريوس النازيانزى ، وجريجوريوس النيسى ، ويوحنا كريسوستوم مفسر الكتب الدينية . وبعد ذلك بقليل ، نشر كيرلس الإسكندرى مقالاته التى شرح فيها عقيدته ومساجلاته فى الدفاع عنها . وأولئك هم الثقات الأثبات لكل اللاهوتيين البيزنطيين ، الذين أتوا فى العصور المتأخرة . ولم يحاول أحد أن يرجع إلى ما كتب قبل هؤلاء — مثل الكتابات اليونانية الأولى التى كتبت بعيد عصر الرسل بقليل . ولم يُستثن من ذلك إلا الحارث (Arethas)^(١) القيسرانى (فى القرن

(١) الحارث القيسرانى : هو تلميذ فوتيوس ، وكان رئيس أساقفة

قيصرية (٩٠٧ — ٩٣٢ م) .

العاشر) الذى درس كتابات المدافعين عن الدين المسيحى من رجال القرنين الثانى والثالث . ولم تترك بدعته تلك أى أثر دائم على الفكر من بعده . وهنا أيضاً يعين لنا القرن الرابع مفترق الطرق . أما كبار الكتاب فى عصر الآباء ، فلم يكن من نواياهم أن يتخلصوا تماماً من تلك التقاليد القديمة التى تعلموها . ووضعوا ما درسوه من البلاغة التى تعلموها من السفسطائيين الوثنيين فى خدمة المسيحية . وكان أسلوبهم المنمق المحلى بألوان البديع إنما هو ثمرة الدراسة فى المدارس . وكما كانت عبارات رجل مثل ليانيوس تقاطع فى الفقرات المبدعة بالتصفيق من سامعيه ، فكذلك كانت مواعظ خطباء الكنائس . على أن لا يفوت انتباهنا فرق واحد ، وهو أن السفسطائى ، كان يخطب فى مواضيع جامعية (فلسفية) للأقلية المثقفة ، بينما كان الواعظ المسيحى ينشر رسالته بين الفقراء والأميين ، وهم جمهور المدن الكبيرة . وهذا الرونق اللفظى الخصب هو الذى يقع من أفئدة القراء المحدثين موقع السامة والإملاط ، لأن العبارة الأرجوانية فى الموعظة ، وإن لم تكن فنية ، تُتقبل بتساهل ؛ أما إذا أصبح نسيج الموعظة كله فسيفساء لامعة من رقع أرجوانية ، فإنه يجهد الذهن ، دون أن يصل الإنسان عن طريقه إلى الذروة الحقيقية

المبتغاة من وراء الحديث . ثم يبدو لنا ، نحن أبناء الغرب ، أن الآباء الإغريق قد نسوا أن النصف كثيراً ما يكون أعظم من الكل . إن الشرق يترخص في قبول الكلمات الكثيرة ، والمؤثرات الآسيوية بيّنة بوضوح — في هذا الأدب البيزنطى — في كثرة الأخيلة والبديع ؛ تلك الكثرة التى قد تُبهم العبارة ولا توضحها . وليس معنى هذا أننا نجارى بعض العلماء المحدثين فيما يذهبون إليه من أن المميزات الشرقية غالبية على الأدب البيزنطى فى كل مكان . فهذه نظرة فيها مبالغة فى رأى كاتب هذه السطور . وإنما يرى أن الأجدد بالعناية أن نبين بجلاء علاقات روما الجديدة الأدبية بتلك الحضارة العالمية ، التى نشأت وارتقت بعد وفاة الإسكندر على سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وخاصة فى المدينة المصرية العظيمة التى أسسها ذلك الفاتح . هذه الحضارة — بلا نزاع — امتزج بها كثير مما هو شرقى ، ولكنها بقيت فى نواتها يونانية . وهذه هى الثقافة الهلينستية التى بقيت — كما يرى المؤلف — مصدر الوحي الرئيسى للأدب البيزنطى .

وهبنا سلمنا أن نتاج آباء القرن الرابع شديد الزخرف ، قليل النظام ؛ وهبنا سلمنا أنه قد يكون من الصعب على الطالب الحديث

أن يتطلع بغير ابتسامة الرثاء إلى منظر أوروبا وهي تنشاحن حول
مسألة اندغام حرفي علة أحدهما في الآخر ؛ غير أننا إذا استطعنا
أن نتحرر مما نعرفه مُقدِّماً عن الأدب البيزنطي ، فإنه يثبت في
أذهاننا أن هذا الأدب خصب في إنسانيته ، وسنشعر حين نقرأه
مرة أخرى بذلك التحمس الملتهب إلى العدالة ، الذي استغرق
نفس كريسوستوم ؛ وبتلك الشجاعة التي بعثت الأمل في
أنطاكية اليائسة ، حين كانت كل المدينة تترقب الانتقام
الإمبراطوري بعد ساعة من الهياج الطائش . وإذا قرأنا رسائل
باسيل استطعنا أن نفهم تحت ضوء جديد ، وأن نتبين تلك
الرجولة الجريئة التي أبداها رجل سياسي ديني كان يحمل على
كاهله عبء حماية الكنائس الباهظ . وإذا غرضنا الطرف عن
صياح الفوز المحجل الذي استقبل به جريجوريوس النازياني
موت يوليان ، استطعنا أن نقرأ الأشعار التي صور فيها الأفراح
والأحزان المتشابكة في حياته المتقلبة بين حلاوة ومرارة .

بيد أننا إذا حاولنا أن نجسد هذه الإنسانية في الكتابات
اللاهوتية التي ولدتها الخصومات المونوفيزية ، لم نظفر بغير الحسرة
والأسى . وسيظل المؤرخ واللاهوتي يدرسان هذه الكتابات .
أما القارئ العام فإنه سيطلب متعته في غير ذلك الوطن . ولا

ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أنه حوالى سنة ٥٠٠ م عاش ذلك المؤلف المجهول الذى حاول أن يقنع الناس بأن مؤلفاته سطرها يراع ديونيسيوس الأريوباى تلميذ بولس . وقد وفق إلى ما طلب زمنا طويلا . ولم نتمكن من تحديد تاريخ تأليفها تحديداً لا يقبل النزاع إلا فى السنوات الأخيرة .

وكان العالمان الفكران ، اليونانى والمسيحى ، يعيشان قبل هذا العصر جنباً إلى جنب . أما فى خلاله فقد امتزجت الثقافة القديمة بالمقيدة الجديدة . وإننا لنقرأ تلك المقالات الصوفية التى أنشأها الأريوباى ، معتمداً فيها إلى حد كبير على كتابات بروكلوس أحد تلامذة الأفلاطونية الجديدة ؛ ونرى أنه استخدم الفلسفة اليونانية فى الدفاع عن المسيحية . لقد انتهى النزاع القديم . وفى القرن السابع لم يكن دفاع ماكسيموس ، بطل الأرثوذكسية ، أثناء الصراع حول المسألة المونوثيلية إلا تثبيتاً لجذور التعاليم الديونيسيوسية فى الكنيسة الشرقية . وكان قد أدخل ليونتيوس البيزنطى (القرن السادس) تحديدات أرسطوطاليس فى التفكير المسيحى .

وقد كان النزاع حول اللاصورية هو الذى حدا بيوحنا الدمشقى إلى أن يكتب دفاعه المشهور عن الصور المقدسة .

وحاول في كتابه « ينبوع المعرفة » أن ينسّق وينظم تراث آباء الكنيسة ، فهو يعترف قائلاً « إن أقول شيئاً من بنات فكرى » : ذلك لأن الأصالة كانت قد أصبحت موضع شك .

ويمكن أن يقال إن عيد الأرثوذكسيّة (٨٤٣) يرسم نهاية فترة الإبداع في اللاهوت البيزنطى ، ويبدأ فترة التقليد . إذ فقد تفكير رجال الكنيسة قدرته القديمة على الاستيعاب . ولم يعد يسمح أن تنسرب إليه أية فكرة من الفلسفة اليونانية . وهكذا أصبح الإنسانىون فى الدولة الشرقية كاهراطقة متهمين فى نظر رجال الدين . ورغم هذا فقد استمر الناس يدرسون ارسطوطاليس وأفلاطون وبروكلس ويامبليخوس ^(١) Iamblichus . وكان يوحنا بيزنطيوس ، الذى قارن أفلاطون بالمسيح ، أستاذ بسلّوس الذى رأى فى افلاطون مبشراً بالمسيحية . وكان يوحنا ايطالوس الذى عاش تحت حكم اليكسيوس الأول تلميذ بسلّوس . وقد اعتنق التناسخ وقال بنظرية المثل الأفلاطونية فأعدم لتفضيله الأفلاطونية على الأرثوذكسية . وذلك الذى ألقى نفسه من حلق

(١) يامبليخوس (٢٧٠ — ٣٣٠) : أبرز الفلاسفة الأفلاطونيين السوريين فى القرن الرابع . ولد فى خلقيس من أعمال سوريا ، ووضع كتباً فلسفية ورياضية ودينية .

انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ٢٩٨ — ٢٩٩ .

إلى البحر صائحاً « خذنى يا بوسيدون »^(١) ، هو تلميذ آخر من تلاميذ بسلّوس المتحمسين للعالم القديم . ومن ثم فليس بعجيب أن ألكسيوس الأول ، حين كان يحاول إصلاح التعليم فى العاصمة ، وجد أنه من الضرورى النص على ضرورة اختصاص الكتاب المقدس بنصيب من العناية أوفى مما يبذل على الأدب الوثنى . ومن هنا نفهم السبب الذى حدا بصاحب القطعة الساخرة المسماة « المواطن الصحيح » (المحب للآباء) إلى أن يعتبر أولئك الذين تمنوا هزيمة القوات الرومانية فى آسيا والهيومانيين البيزنطيين خونة . هذا هو التوافق الذى أشرنا إليه مراراً بين الأرثوذكسية والقوة الإمبراطورية ، بين الكنيسة والجيش .

وكان علم اللاهوت فى الدولة الرومانية الشرقية منصرفاً تمام الانصراف إلى المساجلة العظيمة مع روما ؛ فلما كف عن الانتاج فى هذه الناحية ، بدأ يكسب انتصارات جديدة فى الغرب . وفى القرن التاسع ترجم سكوتس إريجيناس^(٢) *Scotus Erigena*

(١) بوسيدون *Posidon* : إله البحر عند اليونان ، وهو نبتون عند الرومان .

(٢) جوهانيز سكوتس إريجيناس (حوالى ٨١٣ — ٨٨٠) : وهو إرلندى ، من أكبر فلاسفة القرن التاسع الميلادى ، استفد منه ملك فرنسا ، فأقام فى بلاطه وعلم فى مدرسته .

انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة فى العصر الوسيط ، ٧١ —

٧٧ ، BERTRAND RUSSELL : *Op. cit.*, pp. 421 — 27.

مؤلفات المسمى ديونيسيوس ، ومؤلفات ماكسيموس إلى اللاتينية .
واتخذ بطرس لمبارد ، أول لاهوتى منهجى فى القرون الوسطى فى
أوروبا الغربية ، كتاب « ينبوع المعرفة » ليوحنا الدمشقى ، نموذجاً
له . كما أن حامى عبادة التماثيل هذا كان له أثر لا ينكر على توماس
الأكوينى . وفى الشرق تغذت الآداب السريانية والأرمينية
بترجمات من اليونانية ، بينما كونت بلغاريا لنفسها فى زمن مبكر
مكتبة استغلتها الصرب وروسيا لفائدتهما الخاصة ، وذلك بترجمة
المؤلفات البيزنطية . أما فى ميادين الشعر غير الدينى ، فلم توفق بيزنطة
أبداً إلى شىء ممتاز من الطبقة الأولى . فقد مات (الشعر السداسى
التفاعيل Hexameter) مع نونوس Nonnus المصرى (القرنان
الرابع والخامس) . واستعمل من نم الشعر ذو الاثنى عشر مقطعاً
بانقظام ، وقد أصبح جورج البيزىدى ، عميدُ هذا الفن (القرن
السابع) ، مثالا يحتذىه الكتاب المتأخرون . ويستطيع الطالب
من قصائده ، أكثر من أى مصدر آخر ، أن يقف على معنى
السيادة البيزنطية كما كان يفهمها مواطن القسطنطينية . غير أن
الشعر البيزنطى غير الدينى لم يستطع أن ينتج أعمالاً ذات نفس
طويل . وكما أن الفن أحرز بعض انتصاراته العظيمة فى الفنون
الصغيرة — أعنى فى النقوش البارزة على العاج والفسيفساء

والمصوغات ، فكذلك كان الأمر في الشعر . فقد عالج الشعراء القصيدة الصغيرة بنجاح ظاهر . أما الشعر الغنائى فقد مات ، واستبعدت مواضيع الحب المتبادل بين المرأة والرجل إلى شعر الملاحم الشعبية . وقد نبغ الأدب الميزنطى كما نراه بين أيدينا من مصدرين : أولا : أصحاب المثل العليا من بين الرهبان والراهبات وأفكارهم عن العالم الآخر ، وهم الذين كان لا يعنيه من شئون هذه الدار العاجلة إلا العثور على فرص يرفضونها ، ويؤكدون بهذا الرفض عزوفهم عن كل ما فى هذه الدنيا . وثانياً : الواقعيون من رجال البلاط ورجال الدولة والأباطرة ورجال الإدارة . وبذلك أصبح الأدب الرومانى (أدب العاطفة المشوبة والخيال الطلق) إما آئماً أو غير لائق ، إذ لا حدود له . وكان الأدب المحافظ ينفر من أن يعترف بالجمال فى أغنية ريفية .

أما فى الشعر الدينى ، فقد أخرجت بيزنطة شاعراً واحداً ذا أصالة — على الأقل . فى أوائل القرن السادس عاش رومانس ، الذى تحول من اليهودية إلى النصرانية ، ونُصّب شماساً فى بيروت . ومن سوريا ذهب إلى القسطنطينية . وفى إحدى الأعياد الليلية فى كنيسة بلاخرناى ، أُعطيت له بنوع من المعجزة (كما تقول القصة) موهبة إنشاء المدائح اللاهوتية . ولعل رومانس كان يجد

نماذجَه ، من حيث الشكل ، في المدائح السريانية التي أنفها مواطنه إفرایم *Ephraem*^(١) . وكما أن الحوار شائع في مؤلفات إفرایم ، فكذلك أدخله رومانس في المدائح اللاهوتية التي يمكن أن يغنيها عندئذ جماعتان من المغنين ، لكل منهما صوت متميز . وقد خلد فيها عظمة القديسين والشهداء ومدائح الأسرار المسيحية . ولسوء الحظ لا يمكننا أن نحصل إلا على فكرة ناقصة عن مؤلفاته ، لأن كثيراً من هذه المدائح لا يزال غير منشور . وإن الوضوح وبساطة الأسلوب في أحسن ما نظمه من مدائح ، كانا سبباً في إهمالها أو نزعها من كتب الصلوات . وبعد القرن التاسع حل محلها « ضرب من الأناشيد الموسيقية » أكثر منها زخرفاً وتكلفاً . وانطفأت الحياة والقوة في تلك التبشير الأولى .

بيد أن تفوق الشعر الروماني المتأخر على الشعر الغربي يبدو في أجلى صورهِ في مجال التاريخ . وإذا استثنينا الفترات التي اضطُر السيف فيها أن يقوم مقام القلم ، كفترة القرن السابع مثلاً ، لاستطعنا أن نقول بأن التقليد الأدبي الكلاسيكي لم يمت .

(١) إفرایم (٣٠٦ — ٣٧٨ م) : من رجال الكنيسة وهو شاعر

وخطيب . ولد في نصيبين ، وغادرها — بعد أن احتلها الفرس سنة ٣٦٣ — إلى كهف بالقرب من الرها حيث كرس نفسه للعبادة وقراءة الكتاب المقدس .

وظلت الإمبراطورية الشرقية إلى النهاية تدرس تاريخها وتسجله
كما تدرس وتسجل تاريخ أصدقائها وأعدائها . ونحن آخذون
رويدا في تبين مقدار ديننا للإلهة التاريخ البيزنطية .

وإلى جانب الرواية الأدبية ، التي يقصها المؤرخ ، نجد تلك
السلسلة التي لا تنتهى من مدونات التاريخ العالمى ، المعروف منها
وغير المعروف ، والتي لا تقتصر على تاريخ يونان وروما وحدهما ،
بل وتاريخ العالم كله ، كما كان معروفاً منذ خلق الانسان حتى
أيام الراهب « العبد الفقير المذنب الخاطى » مصنف تلك المدونة .
وتتوقف أهمية هذه المدونات على اتساع مداها . وقد كانت فكرة
كتابة تاريخ العالم نتيجة لإيمان الناس بخلاصه (على يد المسيح) .
ولم يتكشف للناس ضيق أفق هذه المدونات إلا بعد ظهور
الكشف الأثرى . وإذا تأملنا كتابات مؤرخينا من أمثال إدوارد
ماير وماسييرو ، لوجدنا أنها أخذت عن أصحاب المدونات فى الدولة
الشرقية فكرة كتابة تاريخ البشرية كقصة متطورة متصلة ،
وحوورها بما يطابق العلم الحديث ، وما أضافته إلى علمنا اكتشافات
الأثرين المنقبين بفؤوسهم .

والمدونة التاريخية — وهى كتاب تاريخ الناس — تفضى
بنا فى النهاية إلى ذكر الأدب الشعبى للعالم البيزنطى . وهذا يتألف

على الأغلب من الأساطير الإغريقية التي أصابها التكبير والتحوير كقصة حصار طروادة ، وسيرة أعمال الإسكندر العظيم . وقد أصبحتا نموذجا للبطل المسيحي . وفيها كذلك حكايات شرقية منقولة من بعيد ؛ وقد أخفاها ثوبها المسيحي حتى تكاد أصولها أن تخفى على المعرفة . وأشهر هذه قصة برلام *Bartaam* ويوسافات *Josaphat* التي يمكن الآن قراءتها مترجمة إلى الإنكليزية . وفيها ملاحم تغنى إلى جانب نار المعسكر عند الثغور في الحروب مع العربي الوثني ، مثل ملحمة ديجينيس أكريتاس التي لم تبعث إلى الوجود إلا في القرن الماضي . ولعل ألد عناصر هذا الأدب الشعبي البيزنطي ، هي سير القديسين التي كتبها الرهبان المتواضعون للجمهور البسيط . وهي تعرض علينا أفراح رجال ونساء أغمار ، وأحزانهم ، وما أبدوه من البطولة ، مما حببهم إلى الشعب . ولم تكن أعمالهم على ذلك مما يستحق التدوين في تواريخ الإمبراطورية . من هذا الأدب الشعبي في بيزنطة يستفاد الشيء الكثير : فها هنا حقول قد أينعت وآن أوان حصادها .

الفصل الحادى عشر

الفن البيزنطى

« إن الصورة المائلة تبعث فى الذهن ذكرى أشياء سماوية »
نيلوس ، أشعار لإغريقية ، الكتاب الأول رقم ٣٣ .

هناك أسباب كثيرة وجيهة قضت بأن يكون هذا الفصل قصيراً ، غير أن واحداً منها يغنى عن البقية . ذلك أن كاتب هذه الفصول يعتقد أنه لو حاول أن يصدر حكماً مستقلاً فى المسائل الشائكة التى تواجهنا عند دراسة الفن البيزنطى ، لكان ذلك من قبيل الجرأة ، لا أقل . فدعنا نعترف صراحة ، بادئ ذى بدء ، أن مادة هذا الفصل قد استقيناه من كتب الأساتذة المعترف بهم ؛ وربما كان بالنسبة إليهم دليلاً متواضعاً ، وهو فى الحقيقة مقدمة أثبت المصادر^(١) .

لقد كان مولد الفن المسيحى فى الأطلال ؛ ولما كانت الدولة الوثنية قد اضطرتة إلى طلب بطن الأرض ، فقد كانت النتيجة أن أصبح هذا الفن فناً رمزياً . فتصاويره المرسومة على الجدران

(١) إني أقر شاكرًا مساعدة صديقى مستر ستروود ريد وتقدمه .

لم تحاول أبداً أن تمثل الحوادث التاريخية . ولكنه استطاع أن يوضح لنفسه رسالته التي تقوم على البشارة والرجاء أى « رقيته الطيبة » للخلاص ؛ وقد استعان فى ذلك بالإشارات الصوفية التي ابتدعتها المدن اليونانية فى الشرق الأدنى الذى ظهرت المسيحية فى أكنافه .

وهكذا تحولت الطائفة المنبوذة عن هذا العالم الحاضر الشرير إلى عالم الروح سعياً وراء الثقة وحفز الهممة . وأصبحت إشارات أهل الإسكندرية ، التي هى المرساة والليامة ، معان أخرى جديدة . وأصبحت صورة هرمز والكبش على كتفه رمزاً للراعى الصالح يحمل الخراف الضالة ؛ بينما فسرت صورتنا بـ *Psyche* والأوراتيز « *Orantes* = المصلون » وهم يصلون بين أزهار الفردوس رمزين للرجاء الوطيد الأكيد فى خلود الروح .

وعندما انتصر الجليليون المضطهدون فى القرن الرابع ، ظهر الفن طفرة ليتوج نصر المسيحية ، كما كانت الإلهة ديمتر تظفر من باطن الأرض فى الأساطير . وظهرت الكنائس إلى عالم الوجود بفضل عطف الملوك فى كل مكان ، كما لو كان ظهورها بفعل السحر ؛ وبدأ لمنشئها أن الرمزية القديمة أكثر سطحية

وأكثر اضطراباً من أن تصلح لتجميلها . لقد انقضى شتاء
المسيحية وأقبل ربيعها ، وكان لا بد له من رواء فخم يناسبه .
كانت روما الوثنية قد خلقت من الفن الهلينستي في القرون
الأولى من التاريخ المسيحي فناً إمبراطورياً واقعياً يتمثل في المنشآت
التذكارية . وقد طبع هذا الفن بالطابع الروماني ، وانتشر
في ولاياتها ، واتسم بالروح العالمية لإمبراطوريتها . ولما اضمحل
أمر مدنية روما في القرن الثالث ، وأعاد الشرق سيادة الدولة
الرومانية كما رأينا ، وجد هذا التقليد الإمبراطوري في الشرق
الألوان ومهارة الزخرفة التي يُضفي منها على الفخامة الإمبراطورية
لباساً من الأبهة . فأضاف الناس إلى تصاوير الحوائط فنَّ
الفسيفساء الحائطية ، وتوسَّعوا فيه ، لأنه كان أقدر على التأثير
في النفس وأوسع مجالا ، وأدق خطوطا ، ولأن رسومه تُرى واضحة
عن بعد : فن يحتاج إلى مجال واسع ، ولا بد له من عون
المهندس المعماري حتى يرقى وينمو .

بيد أن العاصمة الجديدة قامت وسط بلاد تتكلم الإغريقية .
وكانت النزعات الإنسانية الإغريقية ، والنماذج العظيمة للجمال
الإنساني التي أبدعها الخيال الهليني ، لا تزال ذات أثر عظيم إلى
جانب فنون الزخرفة والتلوين الشرقية هذه .

صحيح أن القسطنطينية ربما تكون قد طمرت طفرة واحدة دون أن تكون لها تقاليد سابقة ، لكنها ادعت لنفسها فخامة الماضي الكلاسيكي : فقد تجمعت فيها إلى جانب الخلفات المقدسة للديانة المسيحية روائع العالم الوثني ، وأصبحت روما الجديدة متحفاً ومدرسة للفن لا تُجارى . وكان للكنيسة إذ ذاك قصص عظيم تريد أن تحكيه : فقد رغبت في أن تسجل بفخر بطولة من ذهبوا من الخالصين ، وأن تسجل ثبات الشهداء في وجه التعذيب والموت : وليس في هذا الكفاية ، بل أرادت أن تصبح جدرانها كلها إنجيلاً مزيّناً بالرسوم للمتنصرين الأميين ، وتاريخاً مصوراً لقصة الفداء . وحين ظهر أن فناً خالصاً للزينة والزخرف على وشك أن ينتصر في الشرق والغرب ، نبذت المسيحية صفاتها الأولى ، وعاضدت الدولة في قبول تراث هلاس ، فحفظت للعالم ، بما كان لها من أثر ، فناً قادراً على توضيح معالم الشخصية البشرية مع عمق الشعور الديني والعاطفي .

لقد اتخذ الخالص هيئة الرجل وطبيعته ، وبذلك أضفى على الذات الإنسانية قيمة لا تقدر . ورفضت الكنيسة أن تقنع بالزينة وحدها . ففي هذا الفن الجديد المعقد ، الذي سارت به روما الجديدة للأمام ، منسجٌ في الحقيقة لكل شيء : كان فيه منسج

للعناصر التصويرية لمدرسة الاسكندرية ، وكذلك للطبيعة وما فيها من أشجار الكروم وأوراق الاكانثوس ، ولمشاهد الألعاب الوثنية والمناظر الريفية ، وللحيوانات وألعاب الأطفال العراة على شواطئ الأنهار ، ولكل صور الخيال الهلنستية : كان هناك متسع لما جرى عليه التقليد الرومانى من مشاهد الأبهة الموكبية والفخامة والقوة ؛ ومتسع للتلوين السابغ ، والفخامة النقش الفارسى الأرابسك ، ومتسع أيضاً لهذه النماذج النبيلة التى أبدعتها الروح الإنسانية اليونانية ، بينما أخذت الإمبراطورية ما استطاعت الشرق تقديمه فى فن العمارة ، ورفعته إلى طبقة جديدة ، حتى بلغ أوجه فى كنيسة أياصوفيا ، أعجوبة العالم التى بناها جستنيان .

وفى الواقع إن التعقيد الذى يتسم به هذا الفن هو سبب استعصاء ما يسمى « بمشكلة الفن البيزنطى » على الحل . لأن الطلاب إذا مضوا يبحثون عن أصوله ، أتجهوا بسهولة إلى أن يجعلوا الأهمية كلها ، فى موضوع أصل هذا الفن ، لقطر بعينه : فإما حصروها بين شرقي البحر الأبيض المتوسط أو روما ، أو بين بلاد اليونان أو الشرق . لقد استقى العالم البيزنطى من عيون كثيرة . ويظهر لدارس التاريخ فى بعض الأحيان أن نقاد الفن لم يتعرفوا إلى أي مدى كانت قدرة الإمبراطورية الشرقية على الاستيعاب متعددة

الجوانب . فقد استعارت روما الجديدة من الشعوب الأخرى من غير حرج . ومع ذلك فإن حرصها على تقاليد روما القديمة لم يبد في شيء بقدر ما بدا في هذا الميدان . ذلك أنها كانت تطبع ما تستعيره بطابعها حتى يأخذ شكلا وهيئة جديدين على يدها . وكل ما يمكن أن يعالج هنا هو تتبع المراحل التي مرّ فيها الفن البيزنطى فى تطوره .

كانت القسطنطينية فى القرنين الرابع والخامس واحداً من المراكز الكثيرة التى تؤثر فى غيرها . فكانت مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى منافسات العاصمة . وكانت أبنية قسطنطين فى بيت المقدس معرونة فى نطاق واسع ، عن طريق الحجاج الذين كانوا يتدفقون على الأرض المقدسة ، فيحملون معهم عند رجوعهم ذكريات عن تلك الأماكن المقدسة التى زاروها .

أقد نقلت أنطاكية عن طريق تجارها فنّ الزخرفة السورى إلى أقصى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، بينما نقل المماريون فى آسيا الصغرى فن بناء القباب — ربما من فارس — وحاولوا أن يجدوا الطريق لى يتطوروا بها إلى الهيئة الشرقية ، بواسطة استعمال الطوب الأحمر . وكما أن القرن الخامس شهد انتصار سياسة التركيز فى المسائل الدينية ، فقد أخذ كذلك تأثير

القسطنطينية يتزايد بالتدريج في دائرة الفن ؛ ولم يكن هذا راجعاً إلى تصدير رؤوس الأعمدة الجاهزة المصنوعة من رخام بروكونيزيا ، بقدر ما يرجع إلى حقيقتين : ذلك أن مراكز أخرى كانت تسعى وراء هبات إمبراطورية ككنائسها وأبنيتها المدنية ؛ ومن ينقد العازف أجره له حق طلب اللحن كما يقولون . والحقيقة الثابتة هو أن الأباطرة كانوا يرغبون عامدين في نشر تأثير العاصمة ، حتى أصبحت الإرادة الإمبراطورية دافعاً كافياً حمل الأساليب الآسيوية في طول الإمبراطورية وعرضها . وعلى الرغم من أن البنائين كانوا ينتمون إلى مراكز كثيرة ، فقد اتجهوا إلى تحقيق غايات واحدة ، ما داموا يخدمون سيّداً واحداً ؛ وفي زمن جستنيان لم تكن القسطنطينية تخشى أي منافس ، فقد نقل الغرب كنائس روما الجديدة ، كما كان يتبع سابقاً النموذج الذي قرره بيت المقدس من قبل .

لقد استغرق بناء أياصوفيا ، التي نذرت في سنة ٥٢٧ م ، خمس سنين ، وفرض على الإمبراطورية المساهمة في عمل جستنيان العظيم . وكان كلا المهندسين اللذين ابتنيهاها وهما ، انثيموس الترابلي وإيسيدور الميليتي ، من آسيا الصغرى . وإذا قلنا إن القسطنطينية قبست القبة ، وأسلوب الزخرفة القائم على الرخام

الكثير الألوان من الشرق ، نلحس المهارة الإغريقية في الطريقة التي استعملت فيها القباب المعلقة ، حيث كان في الإمكان إقامة القبة المستديرة على قاعدة مستطيلة ، برشاقة جعلتها تبدو كما لو كانت معلقة بالسماء . وشعر المعاصرون أن الله والإنسان اشتركا في هذا البناء العجيب ؛ لأنه إذا كانت مهارة البنائين قد استمدوها من الله ، فقد انتخب الإمبراطور هؤلاء لإقامة هذا البناء الذي تشيع الحياة في أجزائه جميعاً : لأنه لما كان الفن البيزنطى يحترق الثقل الجامد الذي توحيه الكتلة الجلامد ، فقد حاول أن يوجد نوعاً جديداً من التوازن في الأبنية عن طريق معادلة الضغوط التي تحدثها أجزاء البناء بعضها ببعض .

ففي خلال هذا العصر الذهبي الأول للفن البيزنطى ، نرى أنه إلى جانب الرمزية الجلييلة التي حلت محل تصاوير كنائس الأطلال (انظر كنيسة القديس أبوليناريوس في كلاسى *Classe* على مقربة من رافنا) أكملت الفسيفساء الفخامة لفن تاريخى واقعى جديد ، كما نرى في كنيسة القديس فيتالى في رافنا ؛ بل كان هذا الفن جريئاً إلى حد عظيم أدخل معه مواضيع جديدة ، كالآلام المسيح التي تردّد أهل العصور التي سبقتة في تصويرها . وتكونت في هذه الفترة نماذج الصور المقدسة ، كصور المسيح والعذراء

والأنبياء والرسل . هذا بينما أحيا الفن الدنيوى ، الذى عفت آثاره لسوء الحظ ، انتصارات جستنيان الإمبراطورية وقواده . ولم يكن لدى روما الشرقية فى القرن السابع وقت ولا مال توقفهما على الفن ، فقد استنزف واجب الذود عن كيائها جميع جهودها . وحينما أقبل عصر الأباطرة ، محطى الصور ، كتبت للفن حياة جديدة . بيد أننا يجب أن نذكر مرة بعد أخرى أن الأباطرة اللاتقونيين لم يكونوا أعداء للفن إلى ذلك الحد ، ولكنهم كانوا أعداء نوع معين من أنواعه .

وبينما كان الطراز التاريخى الذى شاع فى عصر جستنيان متجهاً إلى الاضمحلال ، شجع الأباطرة فناً دنيوياً وطبيعياً ، ذلك الفن الذى رجع ، إلى حد كبير ، إلى الماضى يستوحيه . فتحول الفنانون إلى الريف والحياة الحيوانية ، وإلى المدن والملاعب ، وإلى الواقعية فى تصوير الأشخاص .

ونستطيع فى الوقت ذاته أن نتلمس فيما أضافوه إلى القصر الإمبراطورى أبهة البلاط الإسلامى فى بغداد ، بينما نُرجع للشرق أصل صناعة التزيين بالمينا المقسمة إلى أقسام متحاجة *Cloisonée enamel* ^(١) .

(١) *Cloisonée enamel* : ويطلق هذا التعبير على طريقة فنية خاصة فى صناعة التزيين بالمينا . وتتلخص الطريقة فى تطبيق الرسم على اللوحة =

لقد أيقظت نيران الاضطهاد في الرهبان حماسة قوية نحو التصوير الدينى . وكسب فنانون النميات لوناً جديداً من الحرية : فقد أصبحوا هم الآخرون واقعيين ، واستطاعوا أن يستهووا أفئدة الناس عند ما حاولوا تصوير المجازات الإنجيلية بطريقة حرفية فيها دُعابة في بعض الأحيان ، وبما وفقوا إليه من مساجلة اللايقونيين مساجلة مصورة تصويراً قوياً . ولكن انتصار الرهبان والصور المقدسة كان له أثر مزدوج على الفن البيزنطى المقدس : فقد مال إلى تقديس تلك الأشكال التقليدية التى كانت هدفاً للهجوم ، وهذا أفضى به إلى تخليد نوع معين من التصوير ، وزاد في قوة تأثير الأديرة أيضاً : لقد أضفى دير ستودىوس المركز القوى للفن الدينى .

ودخلت روما الشرقية عصرأ ذهبياً ثانياً في ظلال الأمرتين المقدونية والكونينية . فقد صحب التوسع الخارجى ، والانتعاش الداخلى ، والازدهار الفكرى ، انتعاش فنى رائع . فهذا باسيل الأول يفتتح تلك النهضة بإنشاء كنيسته الجديدة . ويأخذ الطراز السائد في الهندسة المعمارية الدينية شكل صليب يونانى (متساوى

== المعدنية المطلوب تزيينها ، وهى عادة من الذهب ، فتوضع عليها أشرطة ذهبية دقيقة متعاززة ، تملأ الفراغات بينها بالمينا من مختلف الألوان .

انظر : *Ency. of the Arts, ed. by Dagobert D. Runes and Harry G. Schrickel* .

الأطراف) يحيط به بناء مربع إحاطة تامة بحيث لا تظهر أطراف أذرعه في خارج البناء كما كانت الحال في كنائس القرنين الخامس والسادس ذوات الشكل الصليبي . وكانت طريقة تزيين الكنائس بالرخام فيما قبل تقتصر على داخلها : أما الآن فأصبحت وجوه الجدران الخارجية مغطاة بزينة وافرة متعددة الألوان من الطوب الأحمر والرخام . وليس إلى الشك سبيل في أن سبب هذا التغير يرجع إلى ما هو ثابت من أن السطوح الخارجية لحوائط الأبنية البيزنطية الكبيرة كانت على اتساعها خالية على العموم من كل زينة ، أو زخرفة مشكلة في قوالب . وهكذا كانت هناك حاجة إلى شيء يجذب النظر ، يعوض النقص في النقوش البارزة . وكانت هذه الأساليب الجديدة نصراً ثانياً للفن الشرقي الغنى بالألوان . حتى في ميدان فن بناء البيوت ، اختلفت البيوت المبنية على الطراز الروماني ، وحلت محلها البيوت المبنية على طرز شرقية ، تقوم أمام مداخلها أبهاء ذات أعمدة . ولا تزال المشكلة القائمة ، وهي إلى أي مدى كان فن العمارة الأرمني في ذلك الوقت مقررراً لأصول الطراز البيزنطي الجديد ، أو إلى أي مدى كان العكس صحيحاً . ومرة أخرى يبدو لنا في انتعاش الفن الديني تأثير العصور القديمة بشكل ظاهر ، وكذلك

تأثير ألفاف الأساطير التي تجمعت حول أخيل والإسكندر ،
واستمد منها صناع الدولة الرومانية الشرقية مواضيع لفنونهم .
لقد شجعت انتصارات الجيوش الإمبراطورية فناً تاريخياً شديد
الشفف بتصوير الأشخاص . وينعكس كلا الاتجاهين ،
الكلاسيكي والواقعي ، في أعمال الفنانين الدينيين . فهم عندما
كانوا يصورون مشاهد شرقية ، وجدوا أنفسهم أمام مادة وافرة
ينشقون منها نماذجهم ؛ فقد كانت القسطنطينية في القرن العاشر
متحفاً بشرياً التقت فيها جميع الأجناس .

غير أن الظاهرة في هذه الفترة هي إتقان فن الإيقونات الذي
قدر له من الآن فصاعداً أن يسود الفن البيزنطي المقدس . واقد
كان ما تمخض عنه النزاع حول التماثيل هو انتصار العقيدة ،
وأضحت زخرفة الكنائس بعد هذا النصر عرضاً منظماً للعقيدة
الأرثوذكسية . ففي صحن الكنيسة ورواقها صورت سلسلة الأعياد
المسيحية الكبرى . وهنا جمعت جيوش المخلصين المتوجين بالنصر
من القديسين والرهبان والشهداء والأساقفة . وينتقل الإنسان
من عالم الحس إلى المعبد حيث يرى فكرة تناول العشاء الرباني
الذي يرمز إلى أعظم سر للكنيسة الدنيوية .

ومن هناك يصعد الفنان بالناس إلى الحنية ، فيصور الكنيسة

السموات التي تمثل أم الإله مستوية على عرشها « أعلى من السموات ». وأخيراً ، فوق قبة الكنيسة الرئيسية ، تشرف على ذلك كله صورة الإله المتجسد ، صورة المسيح ، سيد كل شيء ، الذي يضم في شخصه ذى الجوهر الفرد صورة ابن الإله والخالق الأزلي ، الذي لم يكن من المستطاع لأيدى البشر أن تصوره كما كان أنصار الصور أنفسهم يقولون . بهذه الصورة الرفيعة صور الناس قلب الكنيسة كما حددته المجامع السبعة .

وبعد أن استعاد البيزنطيون القسطنطينية في سنة ١٢٦١ م قدر للفن البيزنطى أن ينهض مرة أخرى ، ولو أن دولة آل باليولوجوس الفقيرة لم تسمح لهذا العمل بأن يصل إلى مدى بعيد . لكن هذا الانتعاش ، إذ استثنينا كنيسة عذراء الخورا ، آتى أحسن ثماره خارج العاصمة فى صربيا (انظر فصل ١٤) وفى اليونان فى ميسترا ، وفى أديرة آثوس . فقد وضعت الكنيسة يدها فى يد الدولة ؛ وحين بعثت الدولة ، بعثت الحياة فى الكنيسة ، وانتعش الفن أيضاً معها انتعاشاً جديداً .

ليس هناك للآن جواب شاف على مسألة أثر الفن البيزنطى فى غربى أوروبا ؛ ولكن العلماء متفقون الآن على أن تناول هذا الموضوع لا يتم إلا بدراسة تفصيلية ، يعتبر فيها كل إقليم وكل

عصر مشكلة منفصلة قائمة بذاتها . وعن هذا السبيل وحده يمكن أن نكوّن أحكاماً عامة في اطمئنان . ومن الواضح على كل حال أنه كانت هناك منافذ كثيرة كان الغرب يحفظ اتصاله عن طريقها بالإمبراطورية الرومانية الشرقية ، والشرق الأقصى . فكان الحجاج والتجار همزة الوصل بين العالمين ، كما كان الفنانون والصناع اليونان يقومون بمهام خطيرة في بلاد المتبربرين ؛ ولقد غزا الراهب الباسيلي والأسقف الشرقي الغرب : فقد جاء القديس ثيودور من طرسوس في كيليكيا إلى كانتربري . وهكذا كانت الرهبنة الإيطالية والغالية في القرنين الخامس والسادس نظاماً مصرياً يقبع قواعد شرقية ، حمل أفكارها المهاجرون من شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية . وكان القديسون المشاركة يُحترمون في الغرب : فكان الناظر إلى مداخل الدكاكين في روما يرى تماثيل صغيرة للقديس سيميون العمودي ، يعلقها الناس بمثابة التعاويذ لتحرم السكان ؛ وكانت مخلفات القديسين القيّمة تأتي من الشرق ، مثل الصليب ، الذي أرسله جستين الثاني لروما ، والذي لا يزال محفوظاً في الفاتيكان . وقد كان يحوى قطعة من الخشب المقدس . واقتبس الغرب أعياداً من الطقوس الكنسية الشرقية مثل وفاة العذراء وتمجيد الصليب —

بينما قبس جريمخوار الثوري من التجار السوريين أساطير مثل
أسطورة نوام إفيسوس السبعة ، أو أسطورة القديس توماس وبعثته
إلى الهند . كانت الكنيسة العالمية في حاجة إلى الزخارف والأدوات
المقدسة لاحتفالاتها وطقوسها . ومست حاجتها كذلك إلى فن
تصويري لتمثيل مشاهد الإنجيل ؛ ولهذا أخذت الأقمشة من صور
وبهوت ، وحروفا هجائية كثيرة محفورة من بروكونيسس
Proconnesus ، ومخطوطات وأشياء من العاج من الإسكندرية
وأنطاكية ، بينما أمدتها سوريا بموضوعات جديدة للتصوير
المقدس كالصلب مثلاً ، مما روع المؤمنين في الغرب .

وأصبحت رافنا في إيطاليا بعد أن أعاد جستنيان غزوها
مرة أخرى مدينة بيزنطية ، بينما ترعرت في روما مستعمرة شرقية
زاد في قوتها الرهبان المنفيون الهاربون من اضطهاد اللايقونيين .
وهكذا قبست روما ورافنا وحيهما الفنى من الشرق . ولم يضعف
هذا التأثير إلا حين توجهت البابوية في طلب العون إلى الفرنجة .
واقد احتفظ جنوب إيطاليا الذى كان يسمى فيما خلا « ماجنا
جرايكيا » بطابعه اليونانى إلى حد بعيد ، وازداد هذا الطابع
ظهوراً عند ما أضاف قنسطنطين الخامس كلابريا إلى مقاطعة
صقلية الثغرية ، وحينما مكن الحكام المقدونيون سلطان

الإمبراطورية في هذه الأراضى من جديد . وفي أواخر القرن الحادى عشر دعا دزيدريوس *Desiderius* ، رئيس دير مونت كاسينو ، فنانين يونانيين لزخرفة هذه الكنيسة بالفسيفساء والرخام ؛ واستورد من الشرق البرنز والذهب والفضة والزخارف المطلية بالميناء . وقد قامت بإلهام هؤلاء الصناع اليونان مدرسة بندكتية محلية سرعان ما حررت نفسها من السلطة الأجنبية . وفي أوائل القرن الثانى عشر ، ازدهر الفن البيزنطى والعربى جنباً إلى جنب فى ظل الحكام النورمان ، بينما حصلت روما عن طريق البندقية ، التى أخذت مكان رافنا فى الشمال ، على صناع إغريق ؛ وهنا استمر الأثر البيزنطى إلى وقت متأخر — حتى القرن الرابع عشر .

وتدين النهضة الفنية فى زمن شرلمان للنماذج الشرقية فى كثير ، وعلى الخصوص نماذج النميات والنسيج — بينما بُنيت كاتدرائية آخن على شكل تلك الكنائس الشرقية التى خلدت ذكرى شهداء العقيدة . ولا يزال النزاع شديداً حول مدى دين طراز البناء الرومانى الأخير للفن الشرقى ، بينما يظهر أن قباب كنائس بريجورد *Périgord* مقتبسة من أصول شرقية مع أن مسألة الأصول هنا أيضاً ليس متفقاً عليها إلى الآن .

وتظهر آثار التأثير الشرقى جلية فى بناء كنائس كولونيا من القرن التاسع فما بعد . بينما نجد أن النحاتين الغربيين ، فى لَنَجْدوك وبروفانس ، نقلوا تصاوير اللوحات الإغريقية إلى صور منحوتة فى الصخر فيما صنعوه من تماثيل المسيح ، وما استعملوه من وحدات زخرفية كأوراق الأكانثوس .

وعند ما تزوجت الأميرة الرومانية الشرقية ثيوفانو ، ابنة الإمبراطور أوتو الكبير (٩٧٢ م) جلبت معها إلى ألمانيا « ثروة من الكنوز لا تحصى » : وكان رهبان يونان يعيشون فى أديرة ألمانية ، وربما كان فى البلاط الألمانى مهندسون معماريون ومستشارون من اليونان . ولم يبلغ هذا التأثير الأجنبى ما بلغه من القوة إلا زمن الحُكام الأوتونيين المتأخرين ، وتمركز فى مدرسة ريجنزبُرج *Regensburg* فى القرن الحادى عشر ، ويمكن اقتفاء آثاره فى النحت فى بامبرج ، وبلغ ذروته فى القرن الثالث عشر حين حمل الصليبيون معهم إلى الغرب روائع الشرق . وقد قيل إن التقدم الفجائى الذى بلغه فن نقش الحجارة فى هيلدزهايم فيما بين سنتى ١١٩٠ — ١٢١٠ يمكن أن يكون آخر الأمر مستقى من دراسة النماذج الشرقية . وهكذا نفذ الفن

البيزنطى خلال العصور الوسطى المبكرة إلى أوروبا وألمها ، حتى أصبح الغرب يتقن وسائله الخاصة في التعبير عن نفسه .

وقد ضاعت معظم آثار الفن البيزنطى المدنى ، لكن كثيراً مما كان يميز الإمبراطورية البيزنطية عن غيرها تمييزاً واضحاً — وهو فن الكنائس — لا يزال باقياً . وقد بلغت القسطنطينية أعلى درجات تقدمها الفنى فى ميدان العمارة بما تمتاز به من إدراك مجيد للألوان فى فسيفساء الحوائط والتلبيس بالرخام ، ويلى هذا ذلك الكمال الفنى الذى يوفى على الغاية فيما ينبغى أن نسميه بالفنون « الصغرى » : كالخفر على العاج ، ورسم الثيمات والتزيين بالمينا ، وما ابتدعته من الرسوم على النسيج .

وكثيراً ما أزرى الناس بالفن البيزنطى ، بحجة أنه منحط وعديم الحياة^(١) ولكن ظهر فى السنين الأخيرة اتجاه متزايد لتقدير قيمته الباقية وأهميته^(٢) .

لماذا لا يزال جمال هذا الفن يؤثر فى نفوسنا ؟ وكيف

(١) كما فعل D. MALLART : *L'Art byzantin*. Paris (1924)

(٢) وقد لوحظ هذا التحول فى انجلترا فى كتاب كلايف بل : الفن

CLIVE BELL : *Art*.

(لندن ، ١٩١٤) .

استطاع أن يحطم القيود التي أثقلت على كواهل الفنون التي نبع منها ، وهي تلك الفخامة ، الثقيلة نوعاً ، التي يتصف بها الفن الرومانى الإمبراطورى ، وتفاهة الفن الهلينستى ، وجرى أن الفن الشرقى على وتيرة واحدة ؟ إن السر فى ذلك هـى — من غير شك — الحماسة الدينية التي لم تستنفد قواها فى الزهد ولا فى العقيدة ، بل صرفت المذخور من نشاطها فى التعبير عن الجمال — أى فى صفاء الخطوط والألوان . لقد احتفظ البيزنطى بما فى التراث الهلينى من فن لم يقف عند حد الرمزية الزخرفية ؛ وورث تلك الطرز الجميلة التي أصبحت منذ زمن مبكر تقليداً مرعياً فى فن تصوير الإيقونات فى الكنيسة الشرقية . ولم ينحرف به بحثه وراء الابتكار فى الموضوعات ، ولم يفره شىء بالتفكير فى أن هدف الفنان إنما هو المطابقة بين الصورة والأصل ، فظل مطابق التصرف فى حريته يستخدمها فى خلق تلك الصور الخالدة التي عبر بها عن وحيه الذى استغرق نفسه .

ونحن إذا وقفنا اليوم أمام تلك الفرر الفنية التي ابتدعتها تلك العبقرية المبتكرة ، لا نحس لأول وهلة أننا أمام عمل فنى ، وإنما أمام عاطفة دينية جياشة خلدها الفن . ولقد كان الزاهد الشرقى الرومانى مدفوعاً بحماسة الدينية إلى التأبّد فى الفقر طلباً

لسكينة نفسية ليست من طبيعة هذا العالم ، ولقد جنى من ذلك
المسرة والشجاعة والقوة ؛ ولقد أتيح للفنان أن يدرك من الجمال
ما عسى أن يكون الناسك قد فشل في إدراكه وهو معتزل
في صحرائه ، لأن السكينة كانت تسود تلك العاطفة التي ألهمت
الفن البيزنطي . لقد قنع الفنان البيزنطي بقبول ذلك التقليد
الديني الفخم الذي أخذه عن آبائه ، وانصرف إلى تخليده ،
ففي ذلك التقليد وعن طريقه أدرك ما سعى إليه ، ألا وهو السلام
الذي يدق عن الأفهام .

الفصل الثاني عشر

القانون الروماني في عصوره المتأخرة

« ستكون وظيفتك أيها الروماني أن تسود الأمم
بسلطانك — وستكون هذه فنونك : أن تفرض السلام ،
وأن تغفو عن الضعيف ، وأن تسحق المتكبر »
فريجيل : الإنيادة — ٤ ، ٨٥١ — ٨٥٣ .

إن القانون الروماني هو أكثر أعمال العبقريّة الرومانية
أصالة ، وأعظم ما أهدته لمن أتى بعدها من الناس . وكان من
شأن روح النظام الروماني وروح المحافظة الرومانية أن ارتفعا
بهذا الأثر الخالد وحفظاه من الزوال على مر القرون . ونجد
اسم جستنيان المشرع مألوفاً لدى الكثيرين ممن لا يعرفون
شيئاً من التاريخ البيزنطي ، كلفظ معروف متداول .
وإذا أردنا أن نتتبع تطور ذلك القانون زمن الأباطرة الرومان
الشرقيين ، استطعنا أن نميز أربعة أدوار رئيسية (١) دور
التقنين الذي بدأ زمن دقلديانوس وبلغ ذروته في عمل جستنيان
(٢) دور تشريعات الأباطرة اللايقونيين . (٣) دور الرجوع
إلى قانون جستنيان زمن الحكام المقدونيين (٤) دور الاضمحلال

وعلىنا أن نعالج في اختصار شديد المميزات الرئيسية لكل من هذه الأدوار في تاريخ القانون الروماني في عصوره المتأخرة ، على ألا يغيب عنا أن القانون في ذلك الحين كان تعبيراً عن إرادة الحاكم : فقد كان الحاكم ينفرد برأيه ويختص نفسه بالتشريع .

عند ما حل القرن الثالث كان عصر البناء والإنشاء ، بالنسبة للمشرعين الرومان ، قد أشرف على النهاية . وفي زمن دقلديانوس بدأ عصر التقنين في تاريخ القانون الروماني . وقد جُمعت حوالى هذا الوقت (٢٩٥ ؟) القوانين الأساسية التي أصدرها الأباطرة منذ هديران حتى دقلديانوس ؛ وقد قام بجمعها رجل يدعى جريجوريوس *Gregorius* ؛ وربما كان هذا أستاذاً في مدرسة بيروت القانونية العظيمة في سوريا ؛ وتمت بُعيد هذا الوقت مجموعة أخرى للقوانين التي أصدرها دقلديانوس ، جمعها رجل يدعى هيرموجينيانوس *Hermogenianus* ؛ واعتبرت هذه المجموعة ملحقاً لعمل جريجوريوس . ويظهر أن ثيودوسيوس الثانى في سنة ٤٢٩ قد خطرت له فكرة عمل قانون عام ، على أن يشمل على ذكر جميع القوانين السارية عندئذ ، وأن يأخذ مكان التشريعات والكتابات الفقهية السابقة . ولو قد فعل هذا

لكان قد سبق جستنيان في عمله . ولا ندرى على كل حال كيف انصرف عن مشروعه . ولكن مجموعة من القوانين الأساسية الإمبراطورية صُنِّفَتْ على يد لجنة عينت في سنة ٤٣٥ ، ونشرت هذه المجموعة في سنة ٤٣٨ . وأصبح قانون ثيودوسيوس نافذاً في الغرب والشرق في سنة ٤٣٩ .

غير أن تصنيف هذا القانون الجديد لم يوقف تيار التشريع الإمبراطوري ، واستمر الأباطرة يصدرّون القوانين ، ومن هنا نجد أن الغموض والتناقض قد تسربا إلى كيان القانون الروماني . وقد شكّا جستنيان من ذلك ، وأخذت القضايا أمام الحاكم تؤجل إلى ما لا نهاية ، وأخذت الأحكام لا تعتمد على مواد ثابتة قدرَ اعتمادها على أهواء القضاة التعسفية .

كان جستنيان يعتقد أن إمبراطور الدولة يحمل عبء واجب مزدوج : فقد كان عليه أن يكون القائد العسكري ، والمشرع الأعلى في الوقت ذاته . فإذا كانت المدينة الخالدة قد اتسعت كثيراً عن طريق انتصارات جيوشها وعدلّ قوانينها ، فواجبه ، كوارث لماضي روما ، أن يكون جديراً بهذا التراث المزدوج . ولم يكن له مفر ، والحالة هذه ، من القيام بعمل حصرٍ كامل للقانون الروماني .

لقد وجد الإمبراطور في وزير القضاء (إكويستر القصر المقدس) تريبونيان ، وكان من أهل بامفيليا ، رجلاً المنشود ؛ وكان جستنيان لا يتعب من الفخر بعلمه الوزير ومن تحمسه الشديد له . وصدر في ابريل سنة ٥٢٩ م قانون جديد وضع على أساس تشريعات جريجوريان وهيرموجينيان وثيودوسيوس ، وضمت كذلك قوانين الأباطرة المتأخرين ، التي كانت لا تزال نافذة . وقد نُفذ العمل في أقصى سرعة : ولم يكن المندوبون العشرة في حاجة لوقت يزيد كثيراً عن سنة لإنجازه .

ولكن أصالة جستنيان الحقيقية ظهرت في إنشاء الموجز « الدايجست » فندب لذلك ستة عشر مندوباً جديداً ، وكلفهم في سنة ٥٢٩ بأن يعملوا مجموعة مختارة من أعمال المشرعين العظام يستطيع المحترف وغير المحترف الاستفادة منها ، وذلك باستبعاد المتكرر والمقتضى وبمحذف المناقشات التي دارت حول بعض المواضيع التي لم يعد لها استعمال ولا لزوم ؛ فتم تحقيق بذلك المحافظة على ذكرى مُشرعي روما العظام من أن تعدو عليها عوادي النسيان ، وتكون هذه المجموعة كذلك حافزاً لمعاصريه على دراستهم . ولم تكن تلك المهمة الضخمة ، مهمة قراءة ألفي كتاب تحتوي على ثلاثة ملايين سطر وتلخيصها ، كما رآها

جستنيان نفسه ، إلا ضرباً من المستحيل لا يتحقق إلا بعون من الله . وقدّر لإتمام هذا العمل عشر سنوات : ولكنه تم في الحقيقة في مدى ثلاث سنين : فقد نشر ذلك الموجز على الملأ في ديسمبر سنة ٥٣٣ . وهكذا أقيم في ١٥٠٠٠٠ سطر ، على حد قول الإمبراطور ، « معبد مقدس للعدالة الرومانية » .

وقد فاق هذا المجموع المستخلص من أعمال المشرعين الرومان الأصول التي استُخلص منها . ومن الطبيعي أن نتوقع أن يكون هناك نقص كبير في تأليفه ، نظراً لقصر الوقت الذي استلزمه تصنيفه . فطريقة ترتيب المواد المختارة سطحية في أكثر الأحيان ؛ وأسوأ من ذلك أن النصوص القديمة قد اختصرت وشُوِّهت وجُرِّئت إلى نتف مبعثرة ، كما حدث لجسد طفل ميديا على حد قول نقاد القانون . وأسوأ من كل هذا أن هذه المواد حُرِّفت على يد مبتدع جلف (وندالى) . ويذهب دُرّاس القانون المحدثون إلى أن تريبونيان وشركاءه كانوا كالعبيد الذين سطوا على كنوز أسياهم ، ولم يكونوا حراساً أنقذوا ما أمكن إنقاذه من حريق شامل . ولكن يجب ألا يغيب عن الناقد أن موهبة التشريع كانت قد اختفت في بلاد الدولة الرومانية . حتى لقد كان القضاة يكتبون من الاستفادة من مؤلفات قدماء

المشرعين بعد عناوينها عدداً حساسياً ، اتباعاً لقانون ذكر الأصول القانونية الذي أصدره فالنتينيان سنة ٤٧٦ . وأصبح مجرد ذكر عدد المؤلفات التي استعان بها المحامي كافياً لكسبه القضية

ومن الثابت بالفعل أن الناس في الغرب قد شوهوا التراث القانوني الروماني بما أسرفوا فيه من اقتطاع قطع منه ، وتهيئتها في أحجام مناسبة لهم وتحويلها إلى الأغراض التي يرمون إليها . ثم إننا عند ما نستعرض الموجزات القانونية البيزنطية التي عُملت في الأزمان المتأخرة ، والتي أخذت تصغر في الحجم ، وتبعد عن الطابع العلمي تدريجاً ، ننتهي إلى الشك فيما إذا كانت الإمبراطورية قد استطاعت حتى في الشرق أن تحتفظ بمؤلفات لم يعد الناس يفهمونها حق الفهم .

ولنذكر بالإضافة إلى ذلك أن هدف جستنيان لم يكن علمياً خالصاً ، بل كان عملياً أيضاً ؛ وأنه أراد أن يصدر مجموعة من القوانين المعمول بها عند ذاك ، لكي يكفي حاجات أهل عصره : فكان المقصود من مجموعة القوانين المدنية التي عملها أن تكون مرشداً للقضاة وكتاباً يستعمله الأساتذة ومصدراً للعدالة عند شعبه . ولم يسلم عمل جستنيان في هذا المقام من نقاد أخذوا عليه أنه لم يكن في هذا الميدان ثائراً جريئاً ، وأنه كانت تعوزه

الشجاعة الكافية للخروج على التقاليد في جرأة ، وأنه أتاح
للإيقونيين الفرصة لأن يسيروا بإصلاحاته القانونية إلى
نهايتها المنطقية .

تبدو عظمة جستنيان في الواقع كمشرع فيما يلي : لقد أدرك
أن قانون أية أمة إنما هو تطور عضوي يوجز تاريخ الشعب .
وعلى الرغم من رغبته في تبسيط أسلوب الإجراءات الرومانية
القانونية . وفي إضفاء إنسانية أكبر على إدارة العدالة الرومانية ،
فإنه لم يذشى كتاباً موجزاً عملياً فحسب ، بل تعدى ذلك إلى
ما هو أعظم منه ، وخلق عملاً لا نصفه بأحسن من وصفه هو له
بقوله : إن قانونه « كالقلمة تحتمى خلف جدرانها كنوز الماضي
من عاديات الزمن الحسود ؛ وهو يكشف لأُم الغرب البربرية في
الوقت المناسب فكرة دولة تقوم على أساس من القانون » .

لكن كان يجب ألا يكون القانون المجموع بهذه الكيفية
شيئاً ميثاقاً ؛ كان ينبغي أن يكون سهل المنال بالنسبة للأجيال
المقبلة من الدارسين . فأصدر جستنيان في نوفمبر ٥٢٩ مقدمة
للقانون الروماني — *Institutes* — صيغت على نمط كتيب
سابق للمشرع جايوس ؛ ولكنها تضم التغييرات التي طرأت على
القانون نتيجة لتشريعات إمبراطورية تالية . وهكذا أُحِلَّ

القانون الجديد في سنة ٥٣٤ محل قانون سنة ٥٣٠ . ولم يبق بين أيدينا إلى اليوم إلا هذه النسخة الأخيرة . وهكذا أتم الإمبراطور عمله ، ورأى بعينه أنه كان عملاً صالحاً .

ولا يزال لدينا ما يقرب من ستمائة من قوانين جستنيان الأساسية . ونشاطه في التشريع القانوني واضح في كل مجال . فقد اتسعت حقوق الزوجة وخصوصاً فيما يتعلق بما تقدمه إلى زوجها من صداق ، بينما أصبح لزاماً على الزوج أن يوقف على الزوجة ثروة تعادل في القيمة ما دفعته له . وتقررت للأطفال حرية أوسع فيما يتصل بأشخاصهم وأملأهم ؛ وأصبح حرمانهم من الوراثة في المستقبل غير جائز إلا حسب قواعد ثابتة ، وإذا حرّموا فيجب على الآباء أن يقرروا بوضوح الأساس الذي بُني عليه حرمانهم ؛ وأُمن العبد من قسوة سيده ، وأُعطى الحق في أن يطالب بالحكام بحمايته ؛ وأعيد إنشاء قانون الوراثة جملة ، فجعلت قرابة الدم أساساً له ؛ بينما ألغيت الصور المهجورة التي جعلها الزمن عديمة المعنى إلى حد كبير فيما يتصل بالتبني وعق العبيد وانتقال الأراضي وغيرها من عمليات نقل الثروة . وقد قرر الإمبراطور أنه اتخذ لنفسه ثلاث قواعد سار عليها في تحقيق إصلاحاته ، وهي « الإنسانية » ، والمنطق الطبيعي ، والمنفعة العامة .

وأصدر جستنيان مجموعة تشريعاته العظيمة باللاتينية ، لسان الغرب . ونشرت حين كان على وشك الشروع في إعادة الغرب إلى حظيرة الإمبراطورية . ولما كان هو نفسه قد نشأ في أراضى الدانوب التى تتكلم اللاتينية ، فقد عبّر بهذا العمل عن إخلاصه للتقليد الرومانى الأنوف فى حكم العالم . بيد أننا ينبغى أن نقرر أنه وإن كان ذلك صحيحاً ، فإنه لم يحل دون ضياع أمر اللاتينية فى القسطنطينية . ذلك أن الإمبراطور كان يشرع فى مدينة يونانية ؛ ولم يوجد بين المحامين الذين انتدبهم من يمثل أى جامعة غربية ، ولم يؤخذ عضو واحد من روما القديمة . واستقى جستنيان كثيراً من ابتكاراته من مصادر هيلينستية بينما كانت القوانين الجديدة *Novellae* التى أذاعها جستنيان بعد ٥٣٤ نفسها مكتوبة باللغة اليونانية .

وفى أثناء الجزء الأخير من القرن السادس أهل حظراً جستنيان تصنيف أى كتابات أخرى على تشريعاته الجديدة سواء أكانت تعليقات أم شروحاً ، فكتبت بالإغريقية كتابات قانونية كثيرة ، لكن لسوء الحظ لم يصلنا منها سوى النزر اليسير وبالرغم من أن اباطرة القرن السابع كانوا يصدرون قوانين من وقت لآخر ، فقد كانت هذه تتعلق بصفة رئيسية بالإدارة العامة ، أو بعلاقة الكنيسة بالدولة . ولم تحدث تغييرات واسعة

النطاق في القانون الخاص إلا في عصر الأباطرة اللايقونيين .
وأذيعت « الإكلوجا *Ecloga* » في سنة ٧٣٩ ، وهي مختارات
من القانون أخذت من تشريع جستنيان بعد إجراء تعديلات
« في اتجاه أكثر إنسانية » . لكن باسيل المقدوني ألغى
أو قلب أكثر هذه التطورات رأساً على عقب ، فقد رجع مرة
أخرى إلى قانون القرن السادس .

وفي وقت ما بين ٨٧٠ و ٨٧٩ أُذيع كتيب جديد يسمى
بروخيون *Procheiron* ليحل محل الإكلوجا ، بينما عُيِّنت لجنة
لتعد مجموعة قانونية أخرى كاملة ، بعد أن تستبعد من القوانين
تلك الأجزاء الشاذة التي أدخلها محطمو الصور الهراطقة . وقد
جمع بين ٨٧٩ و ٨٨٦ كتيب آخر منقح — الاباناجوج
Epanagoge ؛ ولكنه ، على ما يرجح ، لم يقدر له أن
تقره الدولة رسمياً . وإننا نشك فيما إذا كانت مجموعة باسيل التي
تقع في أربعين جزءاً قد قُدِّر لها أن تُنشر : ومن المؤكد أننا
لا نملك إلا القانون المسمى البازيليكا *Basilika* (أو الأوامر
الإمبراطورية) والذي يقع في ستين كتاباً ، وقد أذاعه ليو السادس
الذي خلف باسيل المقدوني ؛ وحتى هذا القانون لم يصل إلينا كاملاً .
وكانت مؤلفات جستنيان لا تزال تدرس حتى بعد أن صدرت

البازيليكا ، وخصوصاً في القرن الحادى عشر ، عندما أسس قسطنطين منوماخوس في سنة ١٠٤٥ مدرسة للقانون في القسطنطينية تحت إشراف يوحنا خيفلينوس *Johannes Xiphilinus* . وقد ذهب بعضهم إلى أن ذلك الانتعاش الذى لقيته الدراسات القانونية كان له تأثير كبير في دراسة قانون جستنيان في جامعة بولونيا في القرن الحادى عشر . لكن هذا الفرض موضع شك كبير . فقد كان نشاط المدرسة البيزنطية الجديدة قصير الأمد ، كما رأينا (صفحة ٢١١) . وفي نهاية القرن الثانى عشر أخذت وجهة النظر القائلة بأن البازيليكا وحدها كانت تمثل القانون المعمول به ، تلقى تأييداً . وحينما أخذ علم القانون يضمحل ، توقف تطور القانون الرومانى الخاص ؛ وكان ذلك بعد حكم ليو السادس ؛ ثم جاء بعد ذلك دور الكتبيات والمختصرات . وأهملت البازيليكا ، وبلغ الاضمحلال أقصاه عند ظهور الهيخا بيلوس *Hexabiblos* (الكتب الستة) التى ألفها هارمينوبولس *Harmenopoulos* حوالى سنة ١٣٤٥ ، وقد وصفها بعضهم بقوله إنها موجز لموجزات الموجزات . وأصبح القانون البيزنطى في أيامه الأخيرة ، كما وصفه مستر اشبيرنز *Mr. Ashburner* بقوله ، « (خلط) قريب من الكفر » .

وقد عزا العلماء نشر ثلاث مجموعات قانونية صغيرة إلى الأباطرة
اللايقونيين : وهى قانون الفلاح ، وقانون الجندى ، وقانون
الملاح . ولكن الناس لم يعودوا يأخذون بوجهة النظر هذه
فى الوقت الحاضر . وقد قرر مستر أشبيرنر أنه من الجائز أن يكون
قانون الملاح قد جمعه شخص ما بين سنتى ٦٠٠ ، ٨٠٠ م ، وأنه
يُجمع من مواد تختلف عصورها وروحها ، وربما كان بعضه قد
اقتبس من مقالات من نوع كتاب « التاجر الكامل » ، وهو
بمثابة دليل لأى إنسان يريد أن يزاول عملاً تجارياً . ومن الجائز
كذلك أن تكون أجزاء أخرى منه قد اقتبست من منشورات
القيصرية البيزنطيين . ولكن معظمه لا بد وأن يكون مصدره
العادات المحلية . وقد أوضح بانتشنكو *Panchenko* بنفس
الطريقة أن قانون الفلاح إنما هو مجموع من العادات القروية
وُضع كتتمة للقانون الإمبراطوري العام ، ويرجع تاريخه إلى
عصر مشابه (انظر فصل ٦) ؛ بينما لم يكن قانون الجندى
غير نسخة مفصلة لفقرات من موجز جستنيان وقانونه . وليس
بين هذه المؤلفات القانونية ماله أية علاقة واضحة بالأباطرة
اللايقونيين .

وبقى علينا أن نذكر فى اختصار ما هى بعض المؤثرات

الرئيسية التي أثرت في تطور القانون الروماني في عصوره المتأخرة التي سبقت دور الاضمحلال . ويمكن تمييز هذه المؤثرات على وجه التقريب كما يأتي :

١ — أثر العاطفة المسيحية العامة ٢ — تأثير الكنيسة كهيئة كانت تعبر عن إرادتها في صورة قوانين تصدرها المجالس والمجامع الدينية ٣ — العادات الجارية وخصوصاً في الولايات الشرقية . ومن الطبيعي أن يمتزج بعض هذه العوامل ببعض بصورة دائمة ، وقد يكون من الصعب في أية حالة خاصة أن نعين لأى منها كان التأثير الغالب في هذه الناحية أو تلك ، ونكتفي ببعض الأمثلة :

١ — كان من الطبيعي ألا يبدأ تأثير العاطفة المسيحية في التشريع الإمبراطوري إلا بعد تنصر قنسطنطين ؛ صحيح أن هذه العاطفة المسيحية لم تحاول قط صياغة القانون الإمبراطوري الروماني الخاص في شكل جديد ، ولكن سلطانها أخذ يتزايد باستمرار منذ القرن الرابع . وذلك واضح في القيود التي كانت تفرض على المهرطقة ، وفي شرعية الأولاد الذين يولدون من محظية ، إذا تزوجها الرجل فيما بعد ؛ ويظهر كذلك بوضوح

في الطريقة التي وضعت لتعق العبيد رغماً عن الكنيسة . وأبرز من ذلك كله إلغاء العقوبات التي كانت مفروضة على القس الذين كانوا يصرون على البقاء أعزاباً ، ومنح الحق للأساقفة في أن يستمتعوا بالقانون المدني ، إذا رغب في ذلك كلا الطرفين (أو أحدهما فقط ؟) . ولم يصل جستنيان بفكرة الزواج المسيحي إلى نهايتها المنطقية ، وهي الفكرة القائلة بامتزاج الزوجين أحدهما بالآخر حتى يصبحا لحمًا واحدًا ، فلا يجوز أن تقع بين واحد من الطرفين وطرف ثالث أية علاقة زوجية ؛ فلم يصل جستنيان إلى هذه الدرجة من التحديد : فقد ظل يبيح التسري بالمخفيات ، وبالتالي الاعتراف بشرعيتين . وترك أمر قطع دابر أي لون من الزواج ، سوى الزواج بالواحدة ، للأباطرة اللايقونيين ؛ فقررنا ذلك ، وفرضوا العقوبات الجسدية والمالية على من يقارف علاقة سوى العلاقة الزوجية . ولم يضع جستنيان في قانونه حدوداً لمسألة الزواج من أخرى . غير أن الإمبراطورة إيريني حرمت الزواج مرة ثالثة وأي زيجة ثانية . وحتى الأباطرة المقدونيون ، مع أنهم أعادوا الاعتراف بالتسري ، اعتبروا الزيجة الرابعة لاغية وباطلة شرعاً ، بينما ظل الزواج مرة ثالثة خاضعاً للعقوبات الكنسية ، بحسب ما ينص عليه القانون . وسمح جستنيان

بالطلاق مع اشتراطات كثيرة بالرغم من تصور الديانة المسيحية للزواج ؛ ولم يحرم من الطلاق إلا ما وقع منه نتيجة لاتفاق متبادل بين الطرفين . وحاول الأباطرة اللاإيقونيون أن يحددوا عدد الأسباب التي تبيح الطلاق بأربعة ، ومنها البرص أو محاولة الزوج أو الزوجة الاعتداء على حياة الآخر (ولم يعتبر الجنون أساساً للطلاق) . وأعاد الأباطرة المقدونيون القانون كما كان زمن جستنيان . ولم تصل الكنيسة والدولة إلى أي اتفاق فيما يختص بالطلاق .

وأطرف ما يميز تشريع الأباطرة اللاإيقونيين ، هي نواحيه التي تتعلق بالأواصر العائلية ، ولو نظرنا في أسس هذا التشريع ، لوجدناها تستقر على أساس من النظرة المسيحية إلى الزواج على اعتبار أن الأسرة جماعة تربطها ببعضها روابط من الاعتماد المتبادل يشوبه الحب . فعلاقة الزوجة مثلاً بزوجها لم تكن مجرد خضوع لسلطان الزوج كما كان الحال في الزواج الروماني القديم (ويعبر عن سلطان الزوج في هذا القانون بلفظ يده — *manus*) ولم تكن كذلك علاقة استقلال كما هي الحال في « الزواج الحر » الذي نعرفه في العصور المتأخرة ، ولكن الحقوق والممتلكات

يتمتع بها الزوجان مشتركين .

وأصبح موقف الدولة تجاه الأطفال موقف اهتمام أبوى ورعاية لخيرهم . فكانت تحمى حقوقهم . وهكذا أعطت الإكلوجا للزوجة قوى وامتيازات جديدة . ووضعت الأم فيما يتعلق بشخص طفلها في نفس مستوى الأب نفسه : فكانت موافقتها على زواج أولادها ضرورية كموافقة الأب ؛ وإذا عاشت بعد زوجها كان لها الحق في أن تعين في وصيتها وصياً على طفلها بعد موتها — وهو حق لم تكسبه الزوجات في هذا البلد (انجلترا) إلا من وقت قريب (الوصاية على الأطفال ، مادة رقم ١٨٨٨) . وقد نصت الإكلوجا بالإضافة إلى ذلك على اشتراك الزوجين في العقارات غير المنقولة التي يملكانها ، في حين أن جستنيان قنع بأن يجعل أساساً لهذه المسألة توازناً حسابياً يقضى بأن تتساوى قيمة ما يساهم به كل من الزوجين في بيت الزوجية من العقار ، مع أن هذا التشارك في الحقيقة لا يمكن بقاءه إلا أثناء قيام الزواج ، ثم تعود أملاك كل منهما بعد وفاة أحدهما دون خلف إلى أهل كل منهما .

أما الأطفال الذين ينجمون عن الزواج فقد رفع عنهم ذلك

السلطان المطلق على حياتهم وممتلكاتهم ، الذى كان فيما مضى بيد رأس العائلة . وقد انتقلت الحقوق التى كانت بيد محكمة الأسرة إلى ممثل الدولة ، فجاز الأولاد على العموم منذ زمن جستنيان بأملأهم الخاصة ، فكان من الممكن أن يتحرر الطفل مما كان يسمى *Patria Potestas* (وهو السلطان المطلق لرب العائلة على جميع أفرادها) إذا أراد هو أو أبوه ذلك .

وقرر قانون الأباطرة اللاتىقونيين أن يدبر أحد الأبوين بعد وفاة الآخر جميع أملاك الزوج والزوجة معا لحساب الأبناء . ولم يعد من الممكن بمقتضى هذا القانون أن يحرم الأب ابنه إلا بعد أن تقرر سلطة قضائية أن الطفل قد خسر حقه فى نصيبه من أملاك والديه بسبب سوء سلوكه . وإذا لم يعيّن من بقى من الوالدين على قيد الحياة وصيا فإن الوصاية على الطفل تصير إلى الإدارة الحكومية الخاصة بشؤون الأيتام أو إحدى كنائس القسطنطينية (وفى الولايات إلى الأسقف أو الدير) .

ونقول فى ختام كل هذا أن ما ذهبت إليه المسيحية من أن الآباء ينبغى أن يقسموا حبهم على أبنائهم بالعدل ، قد جعل الناس يشعرون فى هذا الميدان أيضا أن العدل يقتضى المساواة وأن أملاك الوالدين يجب أن تقسم بالتساوى بين الأبناء . وهكذا

لم يأخذ القانون الرومانى فى عصوره المتأخرة بما كان يذهب إليه فى عصوره الأولى من تقسيم أملاك الأسرة بين الأبناء أنصبة غير متساوية ، بحسب الظروف المختلفة التى تحيط بمركز كل الأبناء . حقيقة أن الأباطرة المقدونيين أنعموا معظم هذه المواد ، ولكن من المحتمل أن يكون معظم تشريع اللايقونيين قد بقى نافذا فى المعاملات الجارية .

٢ — من الصعوبة بمكان أن نفرق بين أثر الكنيسة وبين تأثير الشعوب المسيحية العام فى حالات كثيرة . فمن الواضح مثلا فى القوانين الخاصة بموضوع الزواج التى أشرنا إليها سابقا ، أن قوانين المجامع الكنسية غالبا ما كانت تتخذ نموذجا تصاغ على غرارها القوانين الإمبراطورية : وينطبق هذا بوجه خاص على ما نلاحظ من التضيق المتتابع فى حدود القرابة التى يتباح للإنسان الزواج فيها . وهكذا أصبح انحذار الإنسان من أصل معين حائلا بينه وبين الزواج من أى امرأة تلتقى . معه ولو فى الجد السابع . وانتهى الأمر بأن اعتبرت القرابة الناشئة عن التبني ذات تأثير مشابه فى هذا المقام لقرابة الدم . بينما اعتبرت مسألة الأبوة والأمومة الروحية عقبة تحول دون زواج المشتركين فى أب بالعماد فى حالات معينة . أما فيما يتصل بشكليات الزواج فقد

حققت الكنيسة ما كانت تطالب به من ضرورة عقد الزواج في حفل كنسى عام . ويبدو تأثير رجال الدين واضحا كذلك في ميل القانون إلى إقرار حبس الأموال على الأغراض الدينية ؛ ولقد فشل نفقور فوقاس في محاولته الحد مما كانت رعيته تسرف فيه من إيقاف الأموال على تأسيس الأديرة بعد موتهم . بينما أذاع قسطنطين بروفيروجينتوس أنه في حالة وفاة أحد رعاياه دون ذرية وبلا وصية ، تأخذ الكنيسة ثلث أملاكه لصالح روح المتوفى . ويمكننا الاسترسال في ضرب الأمثلة في يسر ، غير أن فيما ذكرناه كفاية .

٣ — ويحتمل ألا تكون معظم التعديلات التي أدخلها اللايقونيون في القانون الرومانى إلا مجرد اعتراف بالمادة الجارية وإقرارها ، حتى في حالة عدم وجود دليل مباشر في الوقت الحاضر يمكن إيرادها . ومن هنا نستطيع أن نقول إن أهل آسيا الصغرى من اليونان لم يفهموا الفكرة الرومانية الأساسية عن النفوذ الأبوى *Patria Potestas* . ولا بد أن يكونوا قد أهملوا الأخذ بها في جارى حياتهم إلى حد كبير . ويظهر هذا الاتجاه في مواد الإكلوجا . وقد ظلت عادة حرمان الإبنة — التي دفع لها أبوها المال الذى تؤديه لزوجها — من نصيبها الذى تستحقه مع إخوتها

وأخواتها من تراث أبويها ، معمولاً به رغم وجود مادة صريحة تنقضه في البازيليكا ؛ بينما يظهر أن كتاب القانون الروماني السوري قد ظل نافذاً بعد تشريع جستنيان بوقت طويل ، مع أن جستنيان قد قصد من وراء إصداره أن يحل محل المجموعات القانونية الأخرى .

وقد جرت العادة باعتبار الكتابة شرطاً أساسياً لصحة العقود ، لا مجرد إثبات لنصوصها . وقد كان لهذه النظرة أثر واضح في التشريع البيزنطي في عصوره المتأخرة . وقد تقرر — كقاعدة عامة — أن تحمل كل وثيقة ، تضم نصوص أى اتفاق ، علامة الصليب مرسومة عليها بيد المتعاقدين أنفسهم ، أو أن يكتب عليها دعاء خاص للثالوث المقدس ، حتى يصبح الاتفاق نافذاً أمام القانون ، وإلا كان من الضروري أن يشهد على صحته سبعة من الشهود . ويبدو أن مواد القانون التي قررت ذلك ترجع في أصولها إلى العادة الجارية وقتذاك . وربما كان السبب في ظهور ما يسمى « منفذ الوصية » البيزنطي ، وهي وظيفة لم تكن معروفة في المعاملات الرومانية على الأغلب ، هو عدم الوثوق بأمانة الوارث الشرعي .

ونحن في الواقع إنما نقبين في بطاء شديد ، عن طريق

الدراسة الوثيقة لأوراق البردى ، أن وحدة القانون الرومانى وطابعه العالمى وسريان العمل به فى أنحاء الإمبراطورية كلها ، إنما كانت مثلا عليا الأباطرة لم يُقدر لها فى حالة التطبيق أن تتحقق تحققا كاملا .

وكل ما نستطيع أن نتبينه الآن فى شيء من عدم الوضوح هو أن قوى العادات الموروثة كان لها رد فعل ضد مجهودات الدولة المركزية التى أرادت من ورائها فرض قانون واحد على جميع الرعايا على السواء ، وكانت تلك هى غاية جميع الأباطرة الذين خلفوا قنسطنطين .

الفصل الثالث عشر

التجارة

الإمبراطورية الرومانية فضائل عدة : فهي أولى الإمبراطوريات ، وكانت أول من آمن بالمسيح . وهي تسدى خدمة لكل فرع من فروع الاقتصاد المسيحي . ثم إن هناك شاهداً آخر على القوة التي منحها الله للرومان : ذلك أن جميع الأمم تتعامل بنقدها ؛ فهو مقبول في طول العالم وعرضه ، وهو موضع إعجاب الناس والملوك على اختلافها ؛ فلم يكن لملكة سواها مثيل له .

كوزماس (تاجر هندي اعتزل عمله

وأصبح راهباً) : *Topographia Christ* :

ص ١٤٨ .

كانت التجارة مع الشرق تحتل المكان الأول من الأهمية بالنسبة لإيطاليا في عصور الإمبراطورية الأولى . فقد كانت تجلب من الشرق أسياح الترف التي كانت قد أصبحت من ضروريات الغرب . ولم تكن صادرات أوربا بكافية تماماً لدفع ثمن الواردات من آسيا ؛ وبلغت قيمة ما كانت أوربا تدفعه نقداً في أيام بلييني (التاريخ الطبيعي ، ١٢ : ٤١) لتصل إلى تعادل في قائمة الحساب ، ثمانمائة ألف جنيه سنوياً . وكانت التجارة مع الشرق

لا تزال تستنزف معظم نشاط التجار الرومان بعد أن نقلت العاصمة إلى القرن الذهبي . وكانت الدولة بدورها تبدى اهتماماً بشأن هذه التجارة ، إذ أن كنوز الهند والصين ، التي كانت الدولة تغدقها على أسراء القبائل المتبررة في الغرب ، كانت كافية للإبقاء على سيادتها الإمبراطورية حتى في النواحي التي لم تكن جيوشها قادرة على السيطرة عليها . لقد كان لهذه القوة التي استطاعت أن تخضع عالم الشرق المحاط بالأساطير سلطان سحري انحنى أمامه قواد الجيوش الغازية الأجلاف في احترام .

كانت هناك ثلاثة طرق يمكن للمنتجات الشرقية أن تصل عن سبيلها من الشرق الأقصى إلى التاجر الروماني : كان أقصرها يعبر واحات بلاد الصفد (سمرقند ، بخارى) مخترقاً فارس ، ومن ثم إلى حدود الإمبراطورية . والثاني يخترق المحيط الهندي إلى البحر الأحمر . والثالث ، وهو طريق أكثر صعوبة ، يمتد من وسط آسيا إلى بحر خزر ، ومن ثم إلى البحر الأسود بعيداً عن دولة فارس . وقد ازداد الإقبال على الحرير بصورة مضطردة مع زيادة أسباب الترف . وأصبح لبس ثياب الحرير الخالص في هذا العصر مألوفاً في الحياة البيتية : وأخذت الكنيسة أيضاً ترحب بهدايا من هذه المادة الثمينة للألبسة الكهنوتية والستر والأغطية ، ولتزيين

المذامح — بعد أن كانت ترفض أول الأمر استخدام الحرير في الأغراض الدينية ؛ بينما احتكرت الدولة صنع أشكال معينة من ثياب الحرير كانت تلبس في مراسم البلاط . وكانت الدولة على كل حال تعتمد على القوافل التي تقطع فارس في إمدادها بهذه المادة الجديدة ، وكان الحرير الخام نتيجة لهذا يتحمل ضرائب جمركية باهظة قبل أن يجتاز الحدود . ومن ثم نجد أنه قد ذكرت عدة مدن معينة في المعاهدات بين فارس وروما يمر بها الحرير الخام دون غيرها مثل كالينيكوم *Callinicum* في جنوب ناحية خسروان ، ونصيبين في بلاد الجزيرة في منتصف خط الحدود ، وأرتكساتا *Artaxata* ودوثن *Dovin* في الشمال عند أرمينية . ولحق بالتجارة الرومانية ضرر كبير من جراء عرقلة المواصلات ورفع ثمن المادة الخام ، وذلك نتيجة طبيعية للحروب بين بيزنطة وفارس . ومنذ القرن الخامس أخذت الدولة تتدخل ، فقصرت السماح بشراء الحرير على وكلاء إمبراطورين على الحدود ، لكي لا يكون لها منافس ، ومن ثم يباع إلى الأفراد بالسعر الجارى عندئذ . وقد كانت الحرب مع فارس في زمن جستنيان سبباً ارتفاع ثمن المادة الخام ، ومن ثم ارتفعت الأسعار التي كان تجار صور وبيروت يتقاضونها على الأشياء المصنوعة إلى حد غير

عادى . ولهذا فقد حظر الإمبراطور أن يباع الحرير بسعر يزيد عن خمسة عشر صولدياً ذهبياً للرطل الواحد : غير أن النتيجة الوحيدة التي ترتبت على هذا المنشور هي أن رفض تجار الفرس بيع بضائعهم رفضاً باتاً ؛ ونتج عن ذلك إفلاس صنّاع الحرير ، وتوقفت تجارتهم توقفاً تاماً . واضطرت الدولة إزاء هذه الكارثة أن تخضع لمطالب وسطاء الفرس . ولكنها احتكرت الصناعة جميعها . وعلى كل حال لم تكد تضى فترة قصيرة حتى أفلت راهبان من سرّ دُنا *Seridna* (في بلاد الخطا *Khotan* ؟ = الصين) (بين ٥٥٢ و ٥٥٤) ، أوراها ب فارسي من الصين ، وهو مبشر نسطورى على الأغلب — كما يقول ثيوفانيس البيزنطى ، من مراقبة الفرس ، وجابا شرائق دود الحرير لجستفيان . وبدأت أشجار التوت تزرع فى سوريا ، فأخذت الإمبراطورية تنتج ما يلزمها من الحرير . ومع أن سير التجارة خلال فارس على الطريق الذى أشرنا إليه قد استؤنف بعد وقت قصير حين عقد الصلح ، إلا أن روما قد أصبحت فى الحقيقة فى غنى عن السوق الأجنبى . وظلت الإمبراطورية تحافظ على احتكارها لصناعة الحرير باهتمام ، وتستخدم ألوف العمال فى ذلك . ولم يكشف القناع عن سر صناعة الحرير الذى كانت الدولة

تحتفظ به الشعوب الغرب إلا حين نقل روجار (Roger) الثاني ،
حاكم صقلية النورماندى ، فى أواسط القرن الثانى عشر ، أدوات
صنع الحرير من اليونان إلى بالرمو ، وذلك بعد أن احتل
طيبة وكورنث .

وحاول جوستين الثانى خلال النصف الأخير من القرن
السادس فتح طريق التجارة الشمالى ، ودخل لهذا الغرض
فى مفاوضات مع خان (chagan) الأتراك ، غير أن الحروب التى
قامت فى الغرب حوّلت انتباه الإمبراطور ، فانصرف عن
الفكرة . وكانت موانئ القرم على كل حال (البسفور وخرسون)
تتاجر مع الهون والآفار وجنوب روسيا ، فتجلبب الجواهر وتُحفّ
الصناعة الرومانية الفاخرة ، وتستبدل بها الجلود والعبيد من
الشمال ، بينما كان أهل قبائل القوقاز يبيعون الجلد والفرو للحصول
على القمح والملح والخمر .

وكان طريق التجارة الجنوبى أهمّ من ذلك بكثير ، ونجد له
وصفاً ممتازاً فيما بين أيدينا من كتابات كوزماس انديكوپليوستس
Cosmas Indicopleustes ، الذى تحدث إلينا عن تجاربه الخاصة
كتاجر ، وسجلها قبل أن يهجر الأشياء الدنيوية نهائياً ، وكان دافعه
إلى هذا التسجيل رغبته فى أن يقنع مَنْ كان يأبى الاقتناع من أهل

عصره بأن الدنيا في حقيقتها ليست كروية كما زعم بعض المارقين .
فيخبرنا بأن سيلان كانت في القرن السادس ملتقى تجار الشرقين
الأقصى والأدنى : فهناك كان تجار من الهند وآخرون من الحبشة
يستبدلون الحرير والتمر وخشب الصندل الواردة من الصين
بالزجاج والأقمشة المطرزة من سوريا . وفي سيلان أيضا كان يحصل
تبادل العنبر وحجر اليشب الآتيين من الغرب بالفلفل الوارد من
ملابار وخشب السمس والنفحاس الآتي من كاليانا *Calliana*
(على مقربة من بمباي) -- وكانت مركزاً تجارياً عظيماً .

وكان تجار الحبشة يجلبون هذه المنتجات إلى أدولة *Adule*
على البحر الأحمر ، عاصمة مملكة أقشوم *Axum* الحبشية . وكان
بعضهم يوغل في البحر حتى يصل سيلان ، بينما يظهر أن الأثرية
منهم كانوا يحمّلون مراكبهم في ملابار ، التي كان التجار الهنود
يجلبون إليها متاجر من الشرق الأقصى والجواهر وحجر
اللازورد وقواقع السلاحف من سيلان . ولم تعد السفن الحبشية
تقترب من هذه الأراضي ؛ وكان الناس قد عرفوا نظام الرياح
الموسمية وانتظام أوقاتها منذ أيام الإمبراطور فسباسيان ؛ فكان
التجار ينتفعون بهذه المعرفة ، ويخرجون إلى عرض المحيط الهندي
في جراحة .

وكانت تغادر أقشوم مرة في كل سنتين حملة إلى داخل إفريقيا يشترك فيها تجار كثيرون ، حتى لقد كان الركب يضم خمسمائة رجل ، مما كان يمكنهم من مقاومة هجمات القبائل المعادية . وكانوا يحملون معهم الماشية والحديد والملح ، حتى إذا وصلوا غايتهم ذبحوا الماشية ، وأقاموا حاجزا كبيرا من الأشواك ، وعلق التجار عليه بضائعهم ، وابتعدوا عنها . فيتقدم المواطنون ويضعون على كل ساعة قطعة ذهبية على شكل حبة الفول ويرجعون . فيتقدم التجار بدورهم ، وإذا اكتفوا بالثمن أخذوا قطعة الذهب ، وحمل المواطن الحديد أو الملح ، وإذا لم يرضهم الثمن تركوا الذهب دون أن يلمسوه . وحينئذ يضع المواطن ذهباً أكثر ، أو إذا لم ير دفع شيء ، بالإضافة إلى مادفعه أخذ ما وضعه من المعدن الثمين ومضى . وينتهي البيع بعد أربعة أيام أو خمسة ، وتعود الحملة أدراجها بأقصى سرعة لتفلت من أمطار الشتاء ، التي كانت تجعل عبور مخاضات الأنهر مستحيلا . وكانت تلك الرحلة تستغرق ستة أشهر في الذهاب والإياب . ولا نعلم من هم أولئك المتوحشون الذين كانوا يقدمون قطعهم الذهبية . وقيل إنه من المحتمل أن يكون التجار الأحباش قد وصلوا إلى زمبابوى Zimbabwe

حيث ظن بعض الجوّالة أنهم وجدوا أوفير^(١) *Ophir* الواردة في التوراة .

وكانت السفن الرومانية تأتي إلى أدولة ، ومن ثم تبخر محملة بالتجارة الشرقية إلى جوتاب ، وهي جزيرة تبعد عن شبه جزيرة سيناء . وكانت تصل إلى جوتاب أيضاً المراكب الرومانية التي كانت تبخر بالبهارات مع موانئ اليمن على ساحل البحر الأحمر الشرقي . فإذا دفعت السفن المكوس في محطة الجمارك الإمبراطورية في جوتاب ، تقدمت صعداً مع الفرع الغربي^(٢) للبحر الأحمر إلى عيلاث *Elath* [وهي أيلة = العقبة الحالية] أو أبحرت إلى القلزم (قريبة من السويس) حيث كانت هناك ترعة تصلها بالنيل ؛ وكانت الاسكندرية مركز توزيع المنتجات الآسيوية في

(١) أوفير *Ophir* : ورد في أعمال الرسل أن أوفير هو أحد أبناء يقطان . وكانت أوفير في زمن سليمان البلد الذي يجلب منه الذهب إلى فلسطين . وقد اختلفت الآراء في موضع أوفير ، فيرى لاسن *Lassen* أنها على الساحل الغربي للهند قرب مصب السند . ويرى بينرز *Peters* أن أوفير هي بنت ، وأن هذه تقع في روديسيا الحالية إذ كان يكثر فيها الذهب . ويرى بنزنجير *Benzinger* أن أوفير هي بنت ، إلا أن بنت عنده تشمل ساحل إثيوبيا على البحر الأحمر والساحل العربي . وأرجح هذه الآراء رأى جلازر *Glaser* الذي يرى أن أوفير تقع على الشاطئ الشرقي من بلاد العرب ، وأنها تتصل بالخليج الفارسي .

انظر مادة أوفير في *Enc.Biblica*

(٢) كذا في الأصل .

حوض البحر الأبيض المتوسط كله . وكان أعظم جانب من هذه التجارة الغربية في يد السوريين ؛ وقد زاد في سيطرتهم عليها اضمحلال الحضارة الرومانية من جراء غزوات البرابرة . ولدينا شواهد على أنه كان هؤلاء الشرقيين جاليات تعيش في مدن الغرب بين القرنين الرابع والسادس ، وكانها « أمم » مستقلة بنفسها ؛ وكانت تحفظ بلغتها الخاصة في حالات كثيرة . ولما كان أفراد هذه الجاليات يجهلون كتبتجار ، فقد كان من الطبيعي أن يتخذوا المراكز التجارية العظمى مكاناً لسكنائهم ، ففي إيطاليا مثلاً أقاموا في نابولي وأستيا *Ostia* ، وفي « غالة » أقاموا في نيس ومرسيليا ، التي كانت كما هي اليوم ملتقى الشرق والغرب . ومن هذا البلد الأخير ، كانوا يسرون مع الجارون إلى بُردال (*Bordeau*) وصعدوا مع نهر رُدانهُ (الرون) إلى ليون ، ومع اللوار إلى أورليان وتور ؛ بل نستطيع أن نتتبع آثارهم في إنجلترا وألمانيا . وقد نتج عن إعادة فتح إفريقية على يد جستنيان انقماش عجيب في رخائها : حتى لقد بدت تلك الأراضى ، التي تبدو اليوم كصحراء موحشة ، جنةً مبهجة في نظر العرب ^(١) . وقد بذل جستنيان

(١) جاء في ابن عذارى (البيان المغرب ، ج ١ ص ٢١) في وصف إفريقية عند ما فتحها العرب : « فذكروا أن إفريقية كانت ظلاً واحداً »

وسعه في تشجيع التجارة الصادرة من موانئه الشرقية إلى إفريقية وإيطاليا . وكانت سوريا ، وهي من أخصب بلاد العالم عندئذ ، تصدر الحرير والخمور من غزة وساربتا *Sarepta* وعسقلان ، والزجاج من صيدا ، ومواد متقنة الصنع من صور وبيروت ، بينما كانت مصر تصدر ورق البردي والبهارات التي كانت تصلها من الشرق الأقصى .

ولقد ظلت تجارة إفريقية مستمرة مع القسطنطينية ، حتى في تلك السنين المضطربة من أوائل القرن السابع ، بالرغم من أن الغزاة الصقالبة كانوا قد أقدموا على ركوب البحار . وكانت سفن الإسكندرية تصل حتى بريطانيا . وقد عملت الإمبراطورية خلال القرنين السابع والثامن على تنمية التأثير الشرقي في إيطاليا كجزء من سياستها ؛ إلا أن شقّ البحر الأبيض المتوسط في القرن التاسع كانا قد انفصلا انفصالا يكاد يكون تاما — وانقطع اتصال إسبانيا مثلاً بالإمبراطورية الشرقية انقطاعاً تاماً .

إلا أنه قد وجد في القرنين التاسع والعاشر منفذ جديد لمنتجات الإمبراطورية ، وذلك هو التجارة مع روسيا (انظر فصل ١٤) .

= من أنطابلس إلى طنجة : قرى متصلة ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصون من إقليم إفريقية ... »

فكان أمير كييف يتولى تنظيم البعثة التي تحمل إلى الدولة
الضريبة العينية المقررة لها، والتي كان يجمعها أثناء الشتاء . وكان
تجار الأسواق المجاورة ينضمون إلى هذه البعثة لكي تحميهم
قوات كييف العسكرية من هجمات الخزر . وكانت البعثة تسير
في سراكب في مياه نهر الدنيبر نحو الجنوب . وكان هذا الجزء
من الرحلة ينطوى على أخطار ومشاق كثيرة ؛ ذلك أنه كان
يتحتم على التجار أحياناً أن ينقلوا البضاعة إلى البر ويجروها
ليتفادوا الشلالات التي تعترض مجرى النهر ، فقتلهم القبائل
المعادية هذه الفرصة وتغير عليهم . فإذا ما وصلت السفن
إلى البحر الأسود ، صارت في أمان بفضل المعاهدات
المعقودة بين كييف والقسطنطينية ، واستطاع رجالها ولوج أسوار
روما الجديدة على شريطة أن يكون ولوجهم من بوابة واحدة غير
مسلحة ، وألا يدخل أكثر من خمسين منهم في المرة الواحدة :
وهناك كانوا يستطيعون قضاء الصيف على ألا يطول مكثهم .
وكانت الحكومة تهيب المسكن والطعام والحمامات للتجار الروس
طول فترة زيارتهم دون مقابل . وكانت تختص رسل أمير كييف
التجارين بمنح خاصة ، فلم تكن تحصل من التجار الروس
ضرائب جمركية . وكان الروس يتعهدون في مقابل ذلك بحماية

أرض الإمبراطورية ؛ فقد أخذ أمير « الروس Rus » مثلاً على عاتقه ألا يسمح لبلغار القرم باجتياح مقاطعة خرسون . وكانت التجارة جميعها تقريباً تجرى على أساس المقايضة . فكان القراء الروسى والشمع والعبيد تستبدل بالتمور اليونانية والفواكه والأقمشة الحريرية . وكانت الحكومة الرومانية تجهز التجار عند رجوعهم بالمتون اللازمة لهم أثناء رحلاتهم ، كما كانت تعطيهم أدوات لسفنهم كالمراسى والحبال الضخمة والصغيرة والأشعة — مما كانوا فى احتياج إليه لإصلاح سفنهم . وعلى القارى أن يرجع إلى الجزء الأول من « تاريخ روسيا » لكلوسفسكى^(١) حيث يجد وصفاً رائعاً لهذه التجارة مع الإمبراطورية .

ويرجع أيضاً إلى القرن العاشر كتاب « النقيب إبارخيكون بيليون Eparchikon Biblion » ، أو مجموعة القوانين التى أصدرتها الدولة لنقابات القسطنطينية التجارية . ولم يُكتشف « كتاب نقيب المدينة » هذا ، وهو الرجل الذى كان يشرف على تنظيم علاقات جميع نقابات العاصمة مع الدولة — خلا بعض الاستثناءات — إلا سنة ١٨٩٣ ؛ ومهما قلنا فى تقدير هذا الكتاب فلن نعدو الواقع . وأبرز مواده المميزة ، هى تلك التى تنص

على منح الحماية للمستهلك والمنتج على السواء ؛ فكانت الدولة تحرم على التجار جمع البضاعة من السوق بقصد رفع الثمن والانتفاع من ذلك ، وكذلك كان من المحرم شراء البضائع جملة والكسب من وراء بيعها تفاريق . فكان يجب — في حدود الإمكان — أن يُشترى كل شيء ويبيع دون تدخل الوسطاء .

بينما وضعت مادة تحفظ للعامل أجره الذي يستحقه ، وتكبح جشع الرأسماليين ، وتمنع احتكار أقلية غنية لصناعة ما . وكان المشتغلون بكل حرفة من الحرف يجتمعون في نقابة خاصة بهم . وكان الجمع بين عضوية نقابتين في وقت واحد محرما . وفي الحالات التي تمس مصلحة الدولة ، كحالة التموين ، نجد أن القواعد ، التي كان أعضاء النقابة الخاصة بذلك الموضوع خاضعين لها ، مفصلة تفصيلا خاصا . فكانت الحكومة تقرر الثمن الذي تشتري به المواد الخام . وسعر بيع المأكولات ، ويظهر أنه كان في استطاعة الدولة أن تطلب بعض خدمات من النقابات دون مقابل — وربما كان هذا بقية لتقليد يوناني قديم يسمى ليتورجياي *leitourgiai* ، كانت الدولة تفرض بموجبه على مواطنيها الأغنياء أن يتطوعوا للقيام بخدمات لها . وربما كان تعيين رؤساء النقابات يتوقف في كل حالة على موافقة محافظ المدينة ، بينما كانت الدولة تشرط

لكى يسهل عليها مراقبة كل المبيعات أن تكون العمليات
علنية . وكان من المحتم أن تتم هذه العمليات فى أماكن معينة
محددة لكل حرفة . وكان للنقابة وحدها أن تشتري المواد
ثم توزعها على أعضائها ؛ وكانت تلك الصفقات التى يقوم بها
موظفو النقابات لا تتم إلا فى مواضع معينة . وكان انتهاك حرمة
هذه النظم يعرض مرتكبه للعقاب بالفصل من النقابة ومصادرة
أمواله ، أو بتفريجه مالا أو بجلده وقص شعر رأسه ولحيته .
وإذا كانت الحالة أكثر خطورة ، يُنفي أو تُقطع يده . وكان
على التجار الأجانب ، حال وصولهم العاصمة ، أن يخضعوا للسلطات
الحكومية ؛ ولم يكن فى استطاعتهم أن يمكثوا فى العاصمة أكثر
من ثلاثة أشهر إلا بموجب اتفاق خاص . وإذا انتهت هذه المدة
دون أن يبيعوا بضائعهم ، قامت الدولة بوضع الترتيبات لبيعها .
وكان كل ما يشترونه من البلدة نفسها خاضعا لرقابة دقيقة ؛ ولم
يكن يسمح لهم أن يحملوا معهم شيئا من الأمتعة التى كان
تصديرها محرما كالمواد الحريرية الممتازة . وكانت الحكومة
تكشف على كل البضائع كشفا دقيقا ، فإذا أُبيع بعدئذ
تصدير بضاعة ما ، طبعت بخاتم الدولة .

غير أن التجارة البيزنطية اضمحلت فى القرنين الحادى عشر

والثاني عشر. لأن الدولة اضطرت إلى أن تمنح البندقية امتيازات شديدة الخطر في مقابل الحصول على معاونتها ، وذلك بعد أن فشلت في الاحتفاظ بأسطولها . وكانت البندقية ، التي أسست على ما يُظن حوالى منتصف القرن السادس ، لا تزال معتبرة في القرن الثامن جزءاً من الأراضى الإيطالية الخاضعة للإمبراطورية الشرقية ؛ غير أنها عملت على تنمية أسطول مستقل لها : وابتداء من سنة ٧٢٧ نجد هذا الأسطول يعمل في تأييد الإيجرك البيزنطى فى إيطاليا . وأخذت هذه المدينة الجزرية مكان رافنا ، وذلك حينما وقعت عاصمة الاجزركية فى يد اللبارد سنة ٧٥١ ، وعبثاً حاولت القسطنطينية ، فى خلال السنوات الأولى من القرن التاسع ، أن تمنع تجار البندقية من أن يتاجروا بالسفن والخشب والمواد الحربية مع حكام مصر المسلمين . وقد جرت بين القسطنطينية والغرب خلال القرن العاشر مراسلات منتظمة على يد البندقيين ، بينما كان سفراء من المانيا يسافرون من البندقية على سفن بندقية ، ومن بينهم الأسقف ليوتبراند *Liutprand* القريمونى وغيره كثيرون .

وحين عقد الإمبراطور سنة ٩٩١ معاهدة تجارية مع البندقية ، كان هذا دليلاً واضحاً على أن المدينة لم تعد تُعتبر ولاية خاضعة

لروما . وتمت الخطوة الحاسمة في هذا السبيل حينما وقع الإسكسيوس الأول مع البندقية في سنة ١٠٨٢ معاهدة منح فيها تجار البندقية مطلق الحرية في التنقل بين أنحاء الدولة دون دفع جمارك أو مكوس ؛ ومنحهم كذلك مكاناً لإقامتهم على القرن الذهبي ، وذلك في مقابل مساعدة البندقية للدولة في حربها مع روبرت جيسكارد النورماندى . وربما حاول يوحنا كومنينوس إضعاف البندقية بإثارة المنافسة بينها وبين جنوة ، وذلك بسحب امتيازات البندقية ، ومنح جنوة امتيازات أقل ، ولكن ذلك لم يغن عنه شيئاً : فلم يكن الأسطول الرومانى في مستوى الأسطول البندقي ؛ واضطرت الدولة أن تعيد إلى البندقية امتيازاتها السابقة ؛ وقد كان دهاء البندقيين هو الذى جعل الصليبيين يهاجمون القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة . وفقدت تجارة الإمبراطورية ، بعد سقوط عاصمتها ، مكانتها إلى الأبد .

كيف نفسر اضمحلال التجارة الرومانية ؟ كانت هناك دون شك أسباب عدة : وحسبنا أن نذكر سبباً يظهر أنه قد لعب دوراً مهماً ، وهو : لم يكن أغنياء الرومان على استعداد لأن يجازفوا برؤوس أموالهم في تجارة تذهب إلى ما وراء البحار ، بل كانوا يفضلون استثمار أموالهم في الأراضى ، لأن الأخطار كانت عظيمة

فى الواقع . والحقيقة أن السفن لم يعد يباح لها الإبحار فى الشتاء ؛ وقد كانت تقاليد الملاحين فى العصور القديمة تحرم ذلك ، فجاءت القوانين البيزنطية ومنعته قانوناً . فكانت قوانين المدن الإيطالية تقرر إيقاف الملاحة على الجملة من أول نوفمبر حتى أول مارس . وكانت هناك أخطار شبوب النار فى السفن ، كما كان هناك ناس كثيرون يتر بصون بالسفن على الشواطىء للإغراقها ، وكانت هناك أخطار لصوص البر وقرصان البحر . وكانت السفن تتعرض لما يسمى القصاص ، وذلك أن دولة من الدول تمنح لرعاياها ، الذين أنزل بهم حيف من دولة أخرى ، الحق فى أن يذئقموا لأنفسهم بمهاجمة كل سفينة تابعة للدولة التى اعتدى أهلها على رعاياها . وهناك خطر الوقوع فى يد القرصان . وكانوا ناسا ذوى إيمان مثالى . يكسبون عن هذا الطريق المال الذى يعينهم على الخروج للحج تعظيما لمقام السيدة العذراء ؛ وكانوا إلى جانب ذلك على درجة من حرية الكلام تدعو إلى الدهشة ، ومن أمثلة كلامهم ما يخبرنا عنه «مستر اشبرنر» أنه عندما سأل البيزيون فى ١١٦٥ قرصانا جنويا بارزا إلى أين هو ذاهب ، كان جوابه : «إنتي ذاهب لى أسركم ، وأستولى على بضائعكم وأشخاصكم ، وأقطع أنوفكم» ، ومن هنا كانت السفن تسير جماعات لتبادل المساعدة . وكانت تحمل على

ظهورها رجالاً مسلحين . وكان قانون الملاحة يقضى بأنه إذا أقرضت نقود على ظهر سفينة ، وضاعت السفينة ، فلا يمكن استعادة النقود المقرضة ؛ ولهذا لم يكن الرومان من أهل الإمبراطورية المتأخرة على استعداد لمجازفة من هذا النوع : فكانوا يستغلون أموالهم في شراء الأرض وتشييدها ، ثم يوصون بها عند وفاتهم لدير من الأديرة كزاد ينفع أرواحهم . أما الرجل من أهل البندقية فكانت حياته الخيرية تدفع نقداً على شريطة أن يستخدم رأس المال في التجارة .

إن النزاع بين القسطنطينية والبندقية هو نزاع بين أرستقراطية من ملاك الأراضي وأرستقراطية من التجار ؛ وهو نزاع تكرر في زمننا نحن ، ونشأت مأساة الإمبراطورية من أن أولئك المستثمرين الذين حرصوا على أن يؤمنوا أنفسهم ، خسروا المعركة .

غير أن النقود البيزنطية التي امتدحها كوزماس قد كُتب لها من العمر أطول مما كتب لتجارة الدولة . وظلت بيزات الدولة جارية في المعاملات بين الناس حتى أواخر العصور الوسطى في الشرق والغرب .

الفصل الرابع عشر

دين الصقالبة لبيزنطة

« شعب له تراث مثلكم اليوم »

Deut. IV. 20.

في سنة ٨٦٤ م على ما يُظن بآرخ القسطنطينية قسطنطين ،
أو لئسمه باسمه الكهنسي الأخير « سيريل » (كيرلس) مع أخيه
مشوديوس في بعثة إلى صقالبة موراڤيا . وكان ذلك — كما تؤكد
الرواية — إجابة لرجاء أميرهم روستسلاف حين طلب أن يُبعث
إلى شعبه من يعلمهم الحق كله . وليس لدينا شاهد قبل هذا التاريخ
على أنه كان للصقالبة أي أدب خاص بهم ، أو أنهم استعملوا حقاً
أية حروف مكتوبة تصح أن تكون وسيلة للتعبير الأدبي . وكان
قسطنطين ملماً باللسان الصقلبي ، فقد اشتغل قبل ذلك حاكماً
إمبراطوريا في مقدونيا . وهو الذي اخترع الكتابة الصقلبية
الجديدة التي ترجع في أصولها آخر الأمر إلى الحروف اليونانية
الصغيرة ، وترجم أجزاء من العهد الجديد وكتاب مختارات من
الإنجيل لتقرأ أثناء الصلاة ، على ما يظن ، إلى لهجة الصقالبة
المقدونيين . وقد حمل هذه الترجمات معه إلى موراڤيا . ولنا

نستطيع الإجابة على سبيل التأكيدها إذا كان قد قصد في الأصل التبشير بالمسيحية في بلغاريا من وراء ذلك . وكانت هذه الكتابة الجديدة ، التي استخدمتها بعثة التبشير هذه إلى موراڤيا ، هي التي تدعى جلاڤوليتك *Glagolitic* ، أو اللغة السلافونية القديمة . التي كانت تستعملها الكنيسة : ولا نستطيع أن ننفي أو نؤكد أن سيريل قد اخترع حروف الهجاء التي تحمل اسم « السيريلية » التي قامت على أساس من الحروف الكبيرة اليونانية ، والتي يستعملها اليوم الروس والصرب والبلغاريون . ولكن يظهر أن هذه الكتابة البسيطة ترجع إلى عصر متأخر^(١) عن ذلك . وظل الأخوان يعملان معاً ثلاث سنين ؛ وعند ما عادا إلى روما سنة ٨٦٧ ب . م . حملا معهما رفات القديس كليمنت التي كان سيريل قد اكتشفها بأعجوبة قبل ذلك ببضع سنين ، وحملها معه من خرسون في نهاية رحلة تبشيرية قام بها إلى أراضى الخزر . وكان من المهم الحصول على موافقة روما على إقامة الطقوس الكنسية باللسان الصقلي ؛ فقد كان يظن أن العبادة المسيحية لا تؤدي إلا بثلاث لغات : وهي العبرية واليونانية واللاتينية —

(١) يستطيع القارىء أن يقارن صور هذه الكتابات بالاطلاع على الجدول الذى أورده الدكتور مينز *Minns* في مقال "Slavs" في دائرة المعارف البريطانية في المجلد ٢٥ صفحة ٢٣٢ .

التي استعملت في الكتابة على صليب المسيح . ونهجت روما حول هذا الموضوع نهجاً حراً ، فسمحت باستعمال اللغة الصقلية في كتاب الصلوات . غير أنه بعد وفاة سيريل (٨٦٩ م) انتصر رجال الدين الرومانيون ، وحظر استعمال اللغة الوطنية (فيما عدا بعض الاستثناءات) في الطقوس الكنسية بين الصقالبة الذين كانوا تابعين للكنيسة الرومانية ، هذا مع أن ميثوديوس كان قد عاد إلى ميدان تبشيره . وهكذا فشلت البعثة المورافية في النهاية ، إلا أن جميع الصقالبة اليوم — سواء من يدين منهم بولائهم للكنيسة الغربية أم للشرقية — يزعمون لأنفسهم حقاً في مجد هذين المبشرين ، اللذين أرسلهما فوتيوس بطريق القسطنطينية إليهم . وسنحاول في هذا الفصل أن نحدد في إيجاز مقدار دين البلغار والصرب والروس لحضارة روما الشرقية :

(١) حينما استقرّ البلغاريون — الذين يرجعون إلى أصل فني تركي — في أراضي الدانوب تأثروا أولاً برعاياهم الصقالبة ، واقتبسوا اللغة الصقلية . وفي أثناء القرن السابع أسس أبناء كوبرات *Kubrat* أول مملكة بلغارية ، واتخذوا أبوباً *Aboba* عاصمة لهم . وقد قام نفر من الأثريين الروس بحفائر في منطقتها أخيراً . غير أن منازل الحرس الملكي *Boyards* أضعفت

سلطان الملوك . ولم تتحد بلغاريا مرة أخرى إلا في عهد المحارب الكبير كروم "Krum" (٨٠٢ — ٨١٥) وخلفه أومرتاج Omortag (٨١٥ — ٨٣٠) . ويعزى لأومرتاج تأسيس العاصمة الجديدة في برسلاف *Preslav* . وقد ترك بوريس *Boris* (٨٥٢ — ٨٨٨) عقيدة آبائه واعتنق المسيحية . وتبعاً لهذا التحول أصبحت المسألة الكبيرة التي ارتبط بها تاريخ المملكة في المستقبل هي مسألة الولاء الكنسي : فقد زعمت كل من روما والقسطنطينية أن ذلك الملك إنما قد تنصر على يدها . وعلى كل حال فقد فشل بوريس في الحصول من البابا على تعيين فورموس *Formosus* أسقفاً أو بطريقاً بلغاريا ، فالتى بنفسه نتيجة لهذا في أحضان الكنيسة الأرثوذكسية . وقد قرر رجال الدين الشرقيون في مجمع ديني عقد سنة ٨٧٠ م ، وأيدهم باسيل الأول ، أنه لما كانت أراضي بلغاريا داخلة في زمام الإمبراطورية الشرقية فيما مضى فمن الطبيعي نتيجة لذلك أن تكون الكنيسة البلغارية تابعة لبطريق القسطنطينية . وبدأ بوريس حكمه بغزو الأراضي البعيدة على حدوده الغربية : فلما تنصر بوريس وقعت بلغاريا تحت سلطان روما الشرقية بدلا من أن توجه همها إلى إخضاع الصرب والصقالبة . [ولقد صدق أحد المؤرخين حينما قال] : « لقد

كان في مقدور الملوك البلغار بين أن يؤسسوا إمبراطورية صقلبية عظيمة : لكنهم احتقروا ذلك ، ولم يعودوا يحملون إلا بإزالة الدولة البيزنطية والحلول محلها . وكانت بلاد بوريس تقع بين الدولة الفرنجية المسيحية في الغرب والمسيحيين الرومان في الشرق . وكان على بوريس أن يختار بين الاثنين ، فانتهى إلى قراره الهام الذي ذكرناه : ولم تردّد بلغاريا عن ولائها للكنيسة الأرثوذكسية بعد ذلك أبداً ، على الرغم مما كان يدور بينها وبين البابوية من مفاوضات بين حين وحين ، ولم يكن لهذه المفاوضات إلا أهداف سياسية عابرة .

وبالرغم من أن السهوب ، لا روح الإنجيل ، هي التي أضفت طابعها على مسيحية بوريس ، فإن خلفه سيميون الكبير (٨٩٣ - ٩٢٧) كان « نصف يوناني » وأطلق عليه لقب « بطليموس الجديد » بفضل ما أصابه من علم في القسطنطينية ، حتى لقد أصبح ملماً بجميع علوم عصره . وقد درس فلسفة أرسطوطاليس ، لكنه ظل رغم ذلك محارباً يُخشى بأسه . وبعد أن هزم جيوش الإمبراطورية في أنخيالوس *Anchialos* (٩١٧) اتخذ ذلك اللقب الرفيع « إمبراطور البلغار والإغريق وحاكمهم المطلق » . وكان بلاط برسلاف قد تكوّن على النهج

البيزنطى فى أثناء تلك الفترة الطويلة التى ساد السلام خلالها بين البلغار وروما الشرقية ، والتى سبقت الحرب فى ٩١٣ . وحال البشناق دون توسع البلغار شمالا . وحينما استقر الحجر على الساف والدانوب أصبحوا كالوتد الحاجز بين الصقالبة الشرقيين والغربيين وفصلوا ما بين موراڤيا وكارنثيا *Carinthia* . وقد اضطرت بلغاريا ، بعد أن انحصرت فى شبه جزيرة البلقان ، إلى توثيق علاقاتها بروما الشرقية ، فبنيت فيها الكنائس والقصور ، وملئت بالصور والرخام والفضة والذهب ، وكان ملكها إذا جلس على عرشه رفل فى حلل الارجوان ، تكسوه الجلايب المرسعة بالجواهر ، وحوله حاشية من رجال البلاط تبهر الأعين . وقد كتب يوحنا الإيجزرك يقول : « إذا سئل غريب عما رأى فى برسلاف بعد رجوعه منها ، لم تزد إجابته على ما يأتى : لست أدرى كيف يتأتى لى أن أصفها ؛ إذ لا تعطيك فكرة عن مثل هذه الأبهة إلا عيناك » .

وقد تم الصلح مع روما الشرقية عند ما اعتلى عرش البلغار بطرس بن سيميون (٩٢٧—٩٦٩) الذى تزوج أميرة بيزنطية ، بينما وافقت القسطنطينية فى ٩٤٥ على الاعتراف ببطريكية بلغاريا المستقلة ، ومنحت بطرس لقب الإمبراطور الذى تمناه من زمن

بعيد . وقد ظهر إلى الوجود أدب بلغارى بفضل تشجيع سيميون وابنه . وقد تكونت شبه جامعة تحت إشراف « كليمنت » الذى جعل فيما بعد مطران بلغاريا . وبين العلماء الذين جعلوا الكنيسة الصقلبية الفتية تستنسخ كنوز اللاهوت الإغريق نجد أسماء رجال عظام مثل قسطنطين والراهب هرابر *Hrabr* ويوحنا الإجزرك . وكان هذا الأدب أدب ترجمة ؛ ولما كان القائمون بأمره هم رجال الدين فقد كان معظمه أدبا كنسيا يتألف من أبحاث مثل مواعظ كريسوستم ومقالات أثناسيوس ورسالات يوحنا الدمشقى اللاهوتية . وكان فيها كتب فى التاريخ أظهرها « مدونة يوحنا ملالاس » ، بينما كان الكتاب المسمى « سبورنك *Sbornic* سيميون » موسوعة عامة المعارف البيزنطية فى ذلك الزمن . وكان هذا الأدب كله نثرا وخطابة فى معظم الأحيان ، كالأصول اليونانية التى استقى منها ، وقد ظل إنتاجا أجنبيا لأنه كان يقتبس موضوعات أجنبية وشرقية ، مثل قصص من ألف ليلة وليلة ، وأساطير طروادة والإسكندر الأكبر . وليس لبلغاريا تواريخ كالمدونة الروسية القديمة التى تعرف باسم « مدونة نسطور » . وحتى رجال الطوائف الدينية المتشددة مثل جماعة

البوجوميل *Bogomil*^(١) نقلوا عن المقالات اليونانية الشائعة مؤلفاتهم المشكوك في أصالتها . ومن المرجح أن تكون قد وضعت ترجمات لمجموعات القوانين البيزنطية في هذا الوقت مثل الإكلوجا والبروخيون ، بينما جمعت كذلك مصنفات قانونية مأخوذة من مصادر بيزنطية وعبرية . وهكذا تسربت الأفكار الرومانية إلى القانون السارى بين الصقالبة الجنوبيين ، وأثرت فيه أثراً يظهر في حالات كثيرة ، مثل وضع المسؤولية على عاتق المذنب وحده بدلاً من جعلها في عنق أسرته بأجمعها .

وقد نتج عن انتصارات نقفور فوقاس ويوحنا تسيمسكيس (٩٦٣ — ٩٧٢) سقوط إمبراطورية بلغاريا الشرقية . وحينما نهض الششمانيون *Shishmanids* وغزوا بلغاريا الغربية لم تكن نتيجة ذلك إلا الحملات المروعة التي غام بها باسيل الثانى ضدهم ، وأزال استقلال دولتهم . واحتل رجال الدين الذين كانوا يتكلمون اليونانية المناصب الدينية الرئيسية في بلغاريا ، واضمحل الأدب الصقلبي . ولم يكن هناك سيميون آخر يبشر بنهضة أدبية حتى

(١) البوجوميل *Bogomil* : وهم أتباع بوجوميل *Bogomil* الذى كان يشرح للناس تعاليم الرسول بولس التى انتشرت في بلغاريا .

انظر : BAYNES and MOSS : *Byzantium*, pp. 353—354.

عندما أسس يوحنا وبطرس آسن *Peter Asen* الإمبراطورية
البلغارية المتأخرة في ترنوفو *Trnovo* (١١٨٦ — ١٢٥٨) ؛ ولم
ينتعش ذلك الأدب إلا في القرن الرابع عشر . وأعظم ممثل لهذا
العصر البلغاري المتوسط هو يوثيميوس *Euthymios* آخر بطارقة
ترنوفو (انتخب سنة ١٣٧٥ تقريبا) . وسادت الترجمات من
اليونانية مرة أخرى . وقد كان النفوذ البيزنطي في الواقع يزداد
في كل ناحية من نواحي الإمبراطورية البلغارية التي أعيد
إنشاؤها ؛ وكثر الاتصال بين الدوائين ؛ وكما أن القسطنطينية
كانت المركز الديني والديوي للإمبراطورية الرومانية ، فكذلك
احتشدت الأديرة حول ترنوفو ، العاصمة البلغارية ، وحُفظت
فيها تلك المخططات التي أوحى إيوثيميوس كتابه عن حياة
القديسين . لقد ظلت بلغاريا صدى وظلا لروما الجديدة ، وظلت
كذلك بلداً يسوده الفكر والحضارة البيزنطية على صورة أقوى
مما نشاهدها في أي بلد صقلبي آخر . وقد كتب سيجل *Sigel*
الأستاذ في فارسوفيا يقول « لقد كان لعصر سيمبيون بالنسبة للعالم
الصقلبي الأرثوذكسي أهمية غير عادية . ففي خلال ذلك العصر
مُهد الأدب اليوناني للصقلية . وفيه أيضا تجمعت تلك الثروة
الأدبية التي غدت حياة الصرب ورومانيا وروسيا طيلة قرون » .

(٢) لا نجد ما بين أيدينا من معلومات عن حياة الشعب الصربي وتنظيم الدولة الصربية كافياً إلا أثناء فترة التوسع القومي الصربي في ظل الأسرة التي أسسها ستيفن نيمانيا *Stefan Nemanya* (المقلب زوبان *Zupan* الكبير ، وقد حكم من سنة ١١٧١ تقريباً إلى سنة ١١٩٥ ومات ناسكاً على جبل آثوس سنة ١٢٠٠ متخذاً اسم الراهب سيميون) . فقد وسعت الأسرة الجديدة سلطانها من مركزها في نوفا — بازار *Novi-Pazar* ؛ ولقد بدأ ستيفن حياته كنائب إقطاعي لما نويل الأول كومنينوس ، ولم يظفر باستقلاله التام إلا بعد وفاة مانويل في سنة ١١٨٠ . وقد تسلم ابنه التاج من مندوب البابا في سنة ١٢١٧ ، وكان أول من توج من هذه الأسرة ، إلا أن تبعيته لروما كانت قصيرة الأجل . وكان العمل الأساسي الذي أنفق فيه نيمانيا وأولاده حياتهم هو نشر سيادة الحضارة البيزنطية والكنيسة الشرقية في مملكتهم . ولم تبدأ المملكة الصربية في النمو إلا عند نهاية القرن الثالث عشر : فقد مكن ستيفن أوروش *Stefan Urosh* الثاني (ملوتن *Milutin*) بلاد الصرب من أن تأخذ مركز القيادة بين دول شبه جزيرة البلقان : وغزا ستيفن أوروش الثالث أراضى بلغاريا ، وحكم شمال مقدونيا ، حتى تمكن ستيفن دوشان

Stephan Dushan القوى بين سنتي ١٣٣١ و ١٣٣٥ من إخضاع جميع مقدونيا حتى سالونيك ، و بسط سلطانه على ألبانيا وتساليا وإيروس *Epirus* وأكارنانيا . وتزوج في سنة ١٣٤٦ في سكوبجي *Skopje* (أوسكوب *Uskub*) قيصرأ على أهل رومانيا (الحالية) *Romaioi* والصرب بينما جعل أسقف بك *Pec* (إبك *Ipek*) بطريق الصرب واليونان مجتمعين . و انتهت أيام هذه الأسرة بوفاة ابنه أوروخ في سنة ١٣٧١ ، وقضى الأتراك على مجد الدولة الصربية في معركة كوزوفو — بولجي *Kosovo-polje* الهائلة سنة ١٣٨٩ ، حيث سقط لازار *Lazar* ، أمير الصرب ، هذا على الرغم من أن النهضة الأدبية بلغت أوجها في الصرب في زمن الطاغية ستيفن لازاريك *Stephan Lazarevic* (١٣٨٩ — ١٤٢٧) . وأصبحت بلاد الصرب ولاية تركية سنة ١٤٥٩ بعد معركة فارنا *Varna* سنة ١٤٤٤ ، وسقوط القسطنطينية .

وكأن سياسة الصرب الأجنبية كانت تقوم في أساسها على علاقتها بالإمبراطورية البيزنطية ، التي أعيد إنشاؤها بعد إخراج اللاتين منها ، فإن نفوذ القسطنطينية فيها كان عظيم الأثر طيلة تاريخ المملكة . ولما كانت الأراضي الصربية تمتد على ساحل بحر الأدرياتيك (من مصب نهر الدرن *Drin* إلى شمال نارتقا

Narenta ، فيما عدا أراضي جمهورية راجوزا (*Ragusa*) فقد تمهدت طرق اتصالها مع الغرب . ولهذا كان يقيم في البلاد عدد كبير من الغربيين ، تجاراً وعمالاً في المناجم أو مرتزقة أجنبية ، بينما حرصت الصرب على أن تستمر علاقاتها بالبندقية وراجوزا . ولما كان اختيار الناس يقع على كنيسة القديس ستيفن لحفلات التتويج البيزنطية في العادة — لأن لفظ ستيفانوس معناه التاج — فقد اتخذ الملوك من أسرة نيمنجيكي *Nemanjici* اسم ستيفن ، وجعلوا ستيفانوس القديس الراعي للدولة . وكان الملك لهذا يحكم بموجب حق مقدس ، وأدخلت الصيغ والألقاب البيزنطية الإمبراطورية كلمة كلمة في اصطلاحات البلاط الصربي . وتكونت الهيئة الحاكمة الإدارية على النهج الروماني الشرقي ، حتى أن جامع الضرائب كان يعرف باسم « فراهتور » (= في اليونانية *Praktor* براكتور) . وكان ديوان الرسائل البيزنطي كان ينقسم إلى قسمين ، أحدهما المراسلات اللاتينية والآخر لليونانية فكذلك كانت مراسلات ديوان الرسائل الصربي مع روما الشرقية باللسان اليوناني ، ومع الغرب باللاتينية . وكانت الوثائق الإمبراطورية تحمل أسماء بيزنطية ، واتبعت كذلك القواعد الدبلوماسية البيزنطية . وكان الجيش الصربي مقسماً إلى وحدات

على أساس عَشْرَى على الطريقة البيزنطية . وكان الجنود يمنحون قطعاً من الأرض ليعيشوا منها كما كان الحال في النظام العسكري في روما الشرقية (كان نظام برونيا معروفاً في الصرب منذ سنة ١٣٠٠ مع أن تاريخ إدخاله ليس ثابتاً) .

لقد استطاع الأستاذ بايسكر *Peisker* أن يرجع ما كان العرب يحرون عليه من العيش أو السكنى عائلات مختلفة مع ذرارهم في ربع واحد (*Zadruga*) إلى أثر ضربية الموقد (*Kapnikon*) البيزنطية ، التي كانت السبب في نمو مثل هذه العائلات الكبيرة . ويستغفرت نظرنا أكثر من ذلك اعتماد الصرب على الإمبراطورية الشرقية في المسائل الدينية . ويبدو بوضوح فيما بقي لنا من آثار العهد الذهبي لفن العمارة الصربية (١٢٨٠ - ١٦٣٠) مقدارُ التأثير البيزنطى وتفوقه في هذه الناحية ؛ فكانت الكنائس تبنى على طرز كنائس سالونيك وأديرة آثوس . وكان خلوها من التماثيل ، ووجود الأيقونات المرسومة على الخشب مغطاةً بالذهب والفضة فيها ، شاهداً آخر على تأثير روما الشرقية . وقد ازدادت الأديرة زيادة سريعة . وصاحب هذا نمو الميل إلى الاعتزال عن هذا العالم المحمل بالآثام ، فطوردت الكاثوليكية الرومانية ، واستوصلت شأفة

البوجوميلية . وكان الأدب الصربي الذي ترعرع في الأديرة —
وخصوصاً دير شيلاندار *Shilandar* على جبل آثوس — يعتمد
طيلة الوقت على بيزنطة ، وأخذت أبحاث في الصوفية والزهد —
وهي دراسة الرهبان — المكان الأول . ولما كان هذا الأدب
الصربي يكيف حسب حاجته الخاصة ما يقتبسه من الترجمات
البلغارية التي وضعت في عصر سيمميون وفي الدور البلغاري
المتوسط ، فقد كانت مميزاته شبيهة بمميزات هذا الأدب الصقابي
الذي سبقه ، مع أننا ، كما يرينا سترزيجوفسكي *Strzygowski* ،
نلاحظ هنا اتصالاً مباشراً مع الشرق الأدنى ، وخاصة سوريا
وفلسطين والدير الذي كان قائماً على جبل سيناء . وقد نقلت
الصور الصغيرة التي كانوا ينقشونها على الملاط في القرن الخامس عشر ،
والموجودة الآن في مكتبة ميونيخ ، عن أصل سوري . واستطاع
الصرب بفضل هذه الترجمات من الآداب الأجنبية أن يرتقوا
بلغتهم إلى هذا المستوى الذي يبدو في أنضج صورته في الملاحم
التي تدور حول الصراع مع الأتراك ، وهي مجد الصرب القومي
اليوم . ومن الجائز أن تكون مجموعة القوانين التي أصدرها
القيصر دوشان *Tsar Dushan* صادرة عن رغبة مؤلفها في مجارة
الأباطرة البيزنطيين ، بينما ظلت تسمية عيد الربيع الصربي

المسمى روساليا *Rosalia* شاهداً على أصله البيزنطى ؛ فقد كان البيزنطيون يسمونه « عيد الورود » (*Rosalia*) . وكان الشباب يجوبون القرى وهم يرقصون فى هذا العيد .

بيد أن المدين لا يحب دأته إلا نادراً ؛ ولهذا كان الصربيون يكرهون خصيان بيزنطة ؛ ولقد كانت سراوغة اليونانى ودهاؤه — (*astutia*) — مضرب المثل عندهم ، وهم يصورونه فى هيئة ثعلب فى القصة الشائعة التى تتحدث فيها العجاوات . وكان الإغريق بدورهم يحتقر ما يشاهدونه من تقليد الأبهة البيزنطية وغيرها من الأشياء فى البلاط الصربى ؛ ويعلق نقفور جريجوراس *Nicephorus Gregoras* على ذلك بقوله : « إن الناس يقولون إن القردة تقلد بطريقة قردية » . وكان البيزنطى لا يرى فى الصربى فى غالب الأمر إلا قاطع طريق أو سارق ماشية . وكم من كاتب رثا لمن يقسم له حظُّ السفارة إلى بلاد الصرب . ولكن بالرغم من أنه تنجبت عن الاختلافات فى الشؤون السياسية عداوة متبادلة فى تاريخ الصرب المتأخر ، فإن هذا لم يقلل دين بلاد الصرب الجسم لروما الشرقية .

(٣) بالرغم مما يبدو هناك من تناقض ، فإننا لا نبالغ إذا أكدنا أن الدولة الروسية الأولى تدين بوجودها ذاته

للقسطنطينية . فإن مولد روسيا التي يعرفها التاريخ إنما وقع حينما انتقل الـورنك *Varangians* ، المقبلين من الأراضى الإسكندنافية ، من نوفجورود *Novgorod* إلى كييف ؛ وتقوم أهمية كييف على تحكمها فى حوض نهر الدينير ، مما جعلها تتحكم أيضاً فى الطريق المؤدى إلى البحر الأسود وبيزنطة . وكانت المساحة الواقعة بين كييف والبحر الأسود تشغلها دولة الخزر ، ثم دولة البشناق بعدها . وكان أمراء كييف فى حاجة إلى قوة عسكرية لحماية تجارتهم ؛ فلما حصلوا عليها ، ضموا لبلادهم ولايات روسية أخرى كان مركزها بلدة كانت بمثابة سوق تجارى . وقد طمع التجارى فى حماية مصالحهم التجارية عن طريق السير مع قوافل كييف المحروسة ؛ وهكذا عملوا على نشر نفوذ أميرها الـورنكى . وقد كانت الحياة الاقتصادية جميعها فى هذه الدولة الفتية تعتمد فى واقع الأمر على تجارتها مع الإمبراطورية الشرقية ؛ فكان الأمراء يقضون الشتاء فى جمع الضرائب من رعاياهم الذين كانوا يؤدونها عيناً فاذا أقبل الربيع سارت سفن أمراء كييف بالبضائع إلى القسطنطينية ، ولم تكن هذه البضائع إلا مجموع الضرائب العينية التى جُمعت أثناء الشتاء ، بينما كانت حياة الناس ، الذين يعيشون فى الغابات الواقعة فى أعلى النهر ،

تقوم على بناء هذه السفن . وكانت الحروب والمعاهدات بين روما الشرقية وكيف حروبا تجارية ومعاهدات تجارية ، هدفها حل الرومان الشرقيين على قبول التجار الروس والتجارة الروسية . وقد أثبت فازليفسكى *Vasilievski* أن السفن الروسية كانت تجوب البحر الأسود في السنين الأولى من القرن العاشر .

و يرجع إلى القسطنطينية الفضل في نشر المسيحية في روسيا ، فقد يبدو أن تنصّر الأميرة أولجا سنة ٩٥٧ لم يكن ذا أثر بعيد . إلا أن فلاديمير *Vladimir* حينما احتل خرسون في سنة ٩٨٨ تنصّر وعُمد في كنيسة باناجيا *Panagia* — أم الإله المقدسة — في تلك المدينة ، وتزوج من الأميرة البيزنطية أنا *Anna* ؛ ولما تم له ذلك فرض الدين الجديد على رعاياه الوثنيين ، وأصبحت كيف دولة مسيحية ، وحليفة للإمبراطورية . إن تنصّر سيد كيف القوى في الواقع ليُعدّ أحد الحوادث البارزة في التاريخ العالمى .

أدخلت المسيحية إلى روسيا كنظام كامل التكوين : ومن ثم كانت الكنيسة الروسية صورة من الكنيسة البيزنطية ، ووضع نظام حياتها الدينية الداخلية والخارجية في القسطنطينية . وهكذا حددت هيئة طقوسها وعباداتها ونظامها ، وأخذت من

القسطنطينية دستورها وقانونها . فكان يقوم على رأس الكنيسة الروسية مطران واحد يعينه بطريق القسطنطينية ، وكان إغريقيا في العادة ، وكانت الشكايات من المطران ترفع في بعض الأحيان إلى البطريرق ، وكان هذا يستطيع أن يستدعيه للحضور إلى محكمته ليقرر ما إذا كانت أعماله قانونية أو من الممكن تنفيذها . وهكذا كان في استطاعته أن يشرف بصورة مستمرة على الكنيسة الروسية . وكان المماريون الرومان يضمون التصميمات للكنائس الجديدة في روسيا . وكان الفنانون الرومان الشرقيون يقومون بزخرفتها . ويظن أن أقدم كتب القانون الروسية التي وصلت إلينا ، وهو الكتاب المسمى روسكايا برافدا (الحقيقة الروسية) ، قد صنفه رجال الدين لاستعماله في المحاكم الكنسية ، وقد وضع على نهج موجزات القانون البيزنطية — كالإكلوجا والبروخيون — وحين أخذ القانون المدون يحل محل العرف في المحاكم المدنية على مر الزمن ، كان هذا الموجز القانوني الكنسي بمثابة سابقة سارت الدولة على منوالها في تشريعها الخاص .

ونتج عن هذه العلاقة المقيمة مع الكنيسة الشرقية أن شعرت شعوب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في الغرب بنفور حيال روسيا ، واضطرت هذه الأخيرة لذلك السبب إلى أن توثق

علاقاتها أكثر من ذي قبل مع الصقالبة الشرقيين والإمبراطورية الرومانية . وبالرغم من أن أساس العقيدة لم يتغير في روسيا إلا أن التقاليد الكنسية تغيرت بسبب الاعتراف بعادات الروس الوطنية وعُرفهم . وقد أيد هذا الشعور القومي في داخل الكنيسة أنه حدث في روسيا أن شعر كل من الحاكم والبطريق أنهما في حاجة أحدهما للآخر ، كما كان الأمر في الإمبراطورية البيزنطية . ولم تكن هنا خصومة بين الكنيسة والدولة ، كما كان الحال في الغرب ، وازدادت كل من الدولة والكنيسة قوة أثناء الحرب الصليبية ضد المغول ، لأنهما اشتركتا معاً في محاربة أولئك الغزاة الآسيويين . ولما كان الأمير يلبس تاجه وحط احتفال ديني ، فقد كان يعتبر حامياً للكنيسة الأرثوذكسية — دون الهرطقة — وكان معتبراً خادماً لله ، وكان عليه أن يستمع إلى نصائح نفسه الأخلاقية . ولما كان القسس هم الطبقة المتعلمة الوحيدة في الدولة ، فقد كانوا معلمى الأمة ؛ ولهذا السبب عينه كانوا يستخدمون باستمرار في مسائل الدولة .

وقبست روسيا بالطريقة ذاتها تَدَيُّنَ الرهبان عن روما الشرقية : فقد اقتبس ثيودوسيوس ، رئيس دير بيشرسكى *Pechersky* العظيم في كييف ، النظام الذى وضعه ثيودور

الامتدادى ، بينما استعملت الأديرة كسجون للأمراء المقهورين
والمخلوعين جرياً على تقليد جرت عليه الدولة البيزنطية فى هذا
الشأن . وعندما تقبلت الدولة الروسية الديانة المسيحية كانت
العقيدة الأرثوذكسية قد تحدت نهائياً ، ولهذا لا نسمع عن
خصومات دينية كبيرة حول العقيدة خلال الفترات الأولى من
تاريخ الكنيسة الروسية ، إلا أن الحاكم الروسى وقف موقف
الإمبراطور البيزنطى من رجال الدين وجعل لنفسه الحق فى
التدخل فى حكومة الكنيسة ؛ فكان التزارُ يعقد الجامع الدينى
ويخلع الأساقفة ، حتى أنه كان يفصل فى الخصومات التى تقوم
بين رجال الدين حول مسائل تتعلق بنظام الكنيسة ، كما وقع فى
مسألة اشتدَّ حولها الجدل وهى : هل من واجب المسيحى أن
يصوم فى أيام الأربعاء والأجمعة إذا حدث أن أتى عيد الكنيسة
فى أحد هذين اليومين ؟

وحينما سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك أصبحت الكنيسة
الروسية وارثةً لكنيسة الإمبراطورية على مقياس واسع : لقد
منعها البطارقة الشرقيون استقلالها ، وأصبح من حق الهيئة
الكنسية الروسية أن تنتخب مطرانها ، الذى أصبح أعلى مركزاً
من أى مطران غيره ، وكانت مرتبته تأتى بعد البطارقة مباشرة ،

بل اعترف به بطريقاً عند نهاية القرن السادس عشر .
وبالقياس على هذا نستطيع القول بأن حاكم روسيا وريث
الاباطرة البيزنطيين . وقد أوضح لنا عالم روسي مؤخراً أن حفل
تنويج أمراء موسكو كان يجري على منوال حفل تنويج « القيصر »
البيزنطي ، وكان القيصر عند البيزنطيين هو خليفة الإمبراطور
المتربع على العرش . ولقد ألغى بطرس الكبير البطريركية الروسية
ووضع مكانها الجمع الديني المقدس سنة ١٧٢٣ ؛ ولم يكن يستطيع
أن يفعل ذلك إلا اعتماداً على وجهة نظر روما الشرقية فيما يتصل
بملاقة الكنيسة بالدولة . ولم يكن مثل هذا ليحدث في الغرب ،
لأن الإمبراطور كان يستطيع أن يؤيد أحد بابوين متنافسين
لكنه لم يكن يحلم بإلغاء البابوية . ولم يكن أهل الغرب ليتصوروا
كنيسة بلا بابا . ومن ثم يعتبر أهل العالم الصقلي اليوم التاريخ
البيزنطي تاريخاً حديثاً ، لأن الصرب وبلغاريا حينما بلغت أوجهما
كانتا تدينان بكل شيء عندهما لروما الشرقية ، ولا يمكن أن يفهم
تاريخ روسيا فهماً صحيحاً إلا عن طريق تعرف أحوال تلك
الإمبراطورية البيزنطية التي أورتها ميراثاً عظيماً كهذا .

خاتمة

بقى أن نجيب على سؤال واحد : ما هو الطابع الأساسى لهذه الحضارة البيزنطية ؟ ذلك سؤال احتدم حوله الجدل . فطالما قيل إن دولة روما الشرقية كانت « إمبراطورية شرقية على وجه التحديد » . ولقد قررنا صراحة خلال هذه الدراسة الإجمالية أن روما الشرقية تشرّبت عناصر شرقية كثيرة ، سواء أكان ذلك فى الفن أم فى القانون الجنائى ، وحتى فى نظريتها عن الحكم . إلا أن كاتب هذه السطور يعتقد أن الشرق لم يكن هو الذى أكسب الحضارة البيزنطية طابعها الأساسى : إذ يرجع أن ذلك الطابع تولد عن امتزاج عنصرين موروثين — العنصر الهلينستى الذى اتسمت به مدن شرقى البحر الأبيض المتوسط الإغريقية ، والعنصر الرومانى الذى تلمّته روما الجديدة من الإمبراطورية الأولى . وقد كان امتزاج هذين العنصرين الموروثين تاما إلى حد لا نستطيع معه تمييز عناصر أحدهما عن عناصر الآخر . على أنه يمكننا أن نقول بوجه عام إن روما الشرقية كانت يونانية فى اللغة والأدب وعلم اللاهوت والديانة ، وإن إحسانها بذلك كان

تاماً واعياً . أما فيما يتصل بقانونها وتقاليدها العسكرية
ودبلوماسيتها وسياستها المالية وتمسكها الدائم بسيادة الدولة ،
فقد كانت رومانية .

وليس هذا مجالاً لبحث المسألة بالتفصيل . ولا يتسع المقام
أمامنا إلا لتقرير المبادئ الأساسية ؛ وفصول هذا الكتاب
المتفرقة كقيلة بتبيان وجهة نظر كاتبها . ويمكن إيجاز وجهة
نظره فيما يلي :

إذا أردنا أن نفهم الإمبراطورية البيزنطية فهماً حياً ، فلا
مندوحة لنا عن أن ندرك أن حضارة تلك الإمبراطورية لم تكن
خلال تطورها إلا استمراراً لماضٍ إغريقي وروماني معاً . وأياً كانت
العناصر التي ورثها غرب أوروبا عن الإمبراطورية فإنها لا تكون
في مجموعها ما يمكننا من القول بأنه كان هناك استمرار حضارى .
وهذا على الرغم مما ذهب إليه دوبش *Dopsch* أخيراً من أن تلك
العناصر كانت أكثر عدداً وأهم شأنًا مما جرى عليه المؤرخون
في اعتقادهم . فهناك فترة انقطاع في مجرى تطور غرب أوروبا ، ولسنا
نجد ما يقابلها في الإمبراطورية الشرقية . ولسنا بحاجة هنا إلى
أن نؤكد موضوع استمرار التقليد الهلينستي في الفكر واللغة
والأدب في العالم البيزنطى ، فذلك في غير حاجة إلى بيان .

أما ما كان من احتفاظ الإمبراطورية البيزنطية بالفكرة الرومانية عن سيادة الدولة ، فلا بأس من توضيحه هنا توضيحاً مجملًا . وهذا يمكننا من أن نضم أطراف ما أصبح مألوفاً لدينا الآن من مظاهر الحياة في روما الشرقية بعضها إلى بعض ، ويميننا على أن نربط بينها .

إن أهمية بقاء الفكرة الرومانية عن سيادة الدولة وعن الحكومة المركزية لا تقتصر في الواقع على إعطاء التاريخ البيزنطى وحدته ، بل تقرر أيضاً تطور حضارة روما الشرقية كله . وفي هذه الناحية يتجلى لنا الفارق الأساسى بين تطور روما الشرقية وتطور غرب أوروبا . فإننا نجد في الشرق حكومة واحدة تجمع في قبضتها كل السلطات ؛ بينما نجد في غرب أوروبا في العصور الوسيطة مزيجاً من الدويلات ، حتى لقد قيل : « إن عالم الدول الصغيرة هو العصور الوسطى ^(١) » . وكانت السلطان الإدارية والقضائية في هذه الدول الصغيرة لا مركزيتين . إذ كان فيها عدد لا يحصى من المحاكم المحلية والهيئات الإدارية التى كانت تبذل أقصى وسعها لإبعاد القوى الملكية ورجال الملوك . وكان

(١) ذكر المؤلف هذه العبارة بنسخها الألمانى وهو *Kleinstaaterei* وترجمته الحرفية هى « إن تدويل الدويلات الصغيرة هو العصر الوسيط » .

على المشرع الأوسطيني^(١) في الغرب أن يضع أكداساً من القوانين المختلفة بعضها فوق بعض - حتى أصبحت وكأنها جبل بليون *Pelion* فوق جبل أوسا *Ossa*^(٢) - قبل أن يتمكن من بناء مثل تلك السيادة التي كانت نفسه المنظمة تتلف عليها .

إن روما الشرقية إنما كانت اللجنة التي تآقت إليها نفس المشرع الأوسطيني الغربي . فقد قلدت بيزنطة إمبراطورها ، وهو الرمز القديم الديني للسيادة ، السلطان الأعلى بكامله ؛ وكان ذلك السلطان المطلق (*imperium*) بمثابة العمود الفقري في التاريخ الروماني الدستوري ؛ إذ أن هذه الفكرة ذاتها هي التي كانت تربط ما بين الملك الروماني في العهد الأول والقنصل الجمهوري ؛ وكذلك كانت

(١) نسبة إلى *John Austin* المشرع الإنجليزي الذي عاش بين سنتي ١٧٩٠ و ١٨٥٩ ، وأهم مؤلفاته الكتاب المسمى *Province of Jurisprudence Determined* (1832) ، وله محاضرات أخرى في القانون نشرت في سنة ١٨٦٣ . وله في التشريع نظريات تعادل في الأهمية نظريات معاصريه *Jeremy Bentham* و *John Stewart Mill* أهمها تلك التي يشير إليها المؤلف هنا والتي ذهب فيها إلى أن الحكم الملكي المركزي نظام طبيعي .

(٢) *Ossa* و *Pelion* : جبلان في نساليا من بلاد اليونان مشهوران في الأساطير الإغريقية القديمة . ويريد المؤلف بعبارة تلك أن يقول إن مشرعي الغرب كان عليهم أن يجهدوا أنفسهم في الدراسة والتأليف لكي يقنعوا الناس بصلاحيه الحكم المركزي وضرورته ، حتى أصبحت مؤلفاتهم وكأنها جبال بعضها فوق بعض .

هى التى تربط القنصلَ الجمهورى بحكم أغسطس الفردى ؛ وأخيراً
هى التى كانت تربط بين سلطان أغسطس وبين سلطان الحاكم
الأوتوقراطى البيزنطى المؤيد من عند الله .

كان قنسطنطين ، كما رأينا ، أول إمبراطور مسيحى . وكان
فى نفس الوقت الحاكم الذى أعاد تثبيت سيادة الدولة الرومانية .
وأصبحت تلك السيادة محورَ الحياة السياسية فى روما الجديدة .
وكانت كنيسة الإمبراطورية البيزنطية أعجزَ من أن تحطم تلك
السيادة ، ولم يسعها إلا احتمال ما ترتب على ذلك الأمر الواقع .
وأمنت مكانتها بأن أثبتت بالفعل أن الحكومة المدنية لا تستطيع
أن تستغنى عن مناصرة الكنيسة لها . إلا أنها بقبولها ذاك الوضع
اضطرت إلى تقييد حريتها فى أعمالها ، إذ كان صاحب السلطان
المطلق — آخر الأمر — قادراً على عزل أى بطريق مشاكس .
وفشل كيrollاريوس عندما حاول أن يخلق بابوية رومانية شرقية .
وظل البطريق بمثابة « وزير الدين » . أما فى الغرب فلم تعمّر
سيادة الدولة المركزية بعد غزوات البرابرة . ولما لم يكن هناك
مثل ذلك التقليد البيزنطى عن سيادة الدولة كقوة جوهرية ، فقد
استطاعت الكنيسة أن تطالب لنفسها بالاستقلال ، وأن تسعى

لتأييد حقها فيه . ولا يوجد أمثال إنوسنت الثالث وجريجورى السابع فى تاريخ روما الشرقية .

وعندما تدهور النظام المالى فى الإمبراطورية ، لم يكن فى مقدور أى ملك مقبر بر أن يعيد بناء ذلك النظام المعقد الذى كانت تجرى عليه الإدارة الرومانية . فتحول الغرب مضطراً إلى الاقتصاد القائم على الأرض . أما روما الشرقية فقد احتفظت باقتصادها القائم على النقد ، واحتفظت لنفسها بحق فرض الضرائب على رعاياها كما تريد ، لأن احتفاظ الدولة بهذا الحق إنما هو ناحية وجزء من ذلك الاقتصاد القائم على النقد . ورفضت أن تقبل الخدمات القائمة على التعهدات المحددة التى كانت شائعة فى الإقطاع الغربى بدلا من حقها المطلق هذا . ولم يحدث أن احتج واحد من أهل بيزنطة وطالب الحاكم بأن « يعيش على موارده الخاصة » . وكان يتوقف على حصيلة هذه الضرائب قيام الجيش والديبلوماسية والإدارة المدنية فى الإمبراطورية الشرقية ؛ ولم يكن الإمبراطور يحصل على هذه الموارد الرئيسية للعرش عن طريق رحمة الشعب به ، بل كان الاستيلاء عليها حقه المشروع . وكان نظام الإمبراطورية القانونى الموحد — الذى صدر عن مصدر كل سلطان وهو الإمبراطور — بعض تراثها عن

سيادة الدولة ، وكان كثر القرون يخلع عليه قدسية ومهابة . وكما كانت الكنيسة عاجزة عن تقويض سلطان الدولة ، فقد كانت كذلك أعجز من أن تحدث تعديلاً في قانونها ؛ ويرجح أنها على ما يظهر لم تفكر في ذلك مطلقاً بصورة جدية . فهي لم تحاول أبداً أن تعيد النظر في ذلك المجموع من القوانين الذي نشأت جذوره وترعرع في جو وثني صرف لا ينكر روح الأنانية الوثنية . ولم تفكر هذه الكنيسة في تطبيق مبادئ المسيحية الأساسية على هذا القانون تطبيقاً يغير روحه تغييراً تاماً .

ولم توفق هذه الكنيسة إلى ما وفق إليه المسلمون [من صياغة قوانينهم صياغة جديدة مبنية على أساس عقيدتهم الدينية وحدها] بل تركت حكامها اللائقونين المهرطقة يقومون بمهمة وضع قوانينها الجديدة ، ثم أنكرت هذه القوانين إنكاراً تاماً ، ورجعت في عزيمة إلى القانون الروماني . أما في الغرب فكان كل قانون يزول بزوال الدولة التي أنشأته : فكان القانون في إنجلترا خلال العصور الوسيطة قانوناً محلياً قائماً على العرف وتقاليد الشعب . ولم يوفق السلطان إلى فرض فكرة القانون الموحد على الناس إلا بعد جهاد عنيف . ولما لم يكن هناك قانون مدني موحد موروث عن دولة وثنية ، فقد كان من الميسور قيام « قانون

مسيحي « يقول بأن الشهادة الإنسانية ليست ضرورية لإثبات
أى جناية ، لأن هذه الشهادة إنما هى دليل ضعيف لا مندوحة
عن الاستعاضة عنه بحكم الله ، ويقول كذلك بأن تعذيب المتهم
لا استخراج الحقيقة منه أفضل من شهادة الناس .

كان انتصار الدولة انتصاراً لفكرة السلطة المركزية . وكان
السلطان كله مركزاً داخل أسوار القسطنطينية . فقد يمتلك
النبلاء مقاطعات واسعة فى الولايات ، ولكنهم لم يكونوا لينفقوا
ثروتهم إلا فى العاصمة . ونلاحظ أن الإمبراطورية الشرقية لم
تشجع نظام النبلاء الإقطاعيين المحليين الذى كان يسود الغرب
لأنها تمسكت بفكرة الدولة المركزية . ولم يستطع النبلاء
الإقطاعيون فى الإمبراطورية البيزنطية أن يقاوموا جاذبية الحياة
فى العاصمة ، فكانوا يجمعون أموال ممتلكاتهم فى الولايات
ليشتروا بها الأسبقية فى البلاط . وكان هدفهم الدائم -- على
هذا -- هو أن ينظموا أنفسهم فى سلك طبقة من نبلاء الوظائف .
وكانوا يشعرون أن مكانهم الطبيعي إنما هو القسطنطينية ؛ ومن
هنا كان من الطبيعي ألا يعارض النبلاء الإقطاعيون السلطان
المركزي فى روما الشرقية كطبقة موحدة ، لأن كل نبيل قوى
كان يهدف إلى الحصول لنفسه على أوسع الوظائف سلطانياً ، وهى

أن يصبح إمبراطوراً في مدينة قسطنطين . ولما كان هذا هو المغناطيس الأكبر ، فقد يكون النبلاء في بعض الأحيان متضامنين ، ولكنهم كانوا في قلوبهم متنافسين . وكان الإمبراطور يستطيع أن يهزم أى نائر بتأليب بارون منافس عليه .

واقد استولى السلاجقة على آسيا الصغرى لأن القواد العسكريين العظام كانوا متجهين بأبصارهم صوب هدف واحد وهو القسطنطينية : لأن من كان يوفق إلى السيادة في القسطنطينية كان يستطيع التحكم في مصائر الرجال ، إذ أنه كان سيّد الإدارة والمتحكم في المال الذي كان يتدفق من جميع الولايات على مركز الإمبراطورية . وكان التقليد الذي يقضى بسيادة الدولة وسيادة الهيئة الحاكمة التي تدعمها هو الذي صاغ أشكال الحياة في الإمبراطورية . وكانت روما الشرقية مثل روما الغربية شديدة المراعاة لمذهبها الديني في تحديد موقفها من الأجانب الذين ينزلون بلادها : فإذا قبلَ الأجنبي عقيدة الإمبراطورية الدينية كان حقيقاً بأن يجد لنفسه مكاناً في خدمتها سواء أكان فارسياً أم أرمنياً ، صقليياً أم بلغارياً ، روسياً أم بريطانياً . وكانت الإمبراطورية تستمدُّ الرجال ذوى الكفايات اللازمة لها من أصول كثيرة . ولكن هؤلاء الأجانب والمجازفين كانوا يأتون

فرادى ، وكانوا دائماً يدخلون فى فرع من فروع خدمتها [فيندمجون فى التيار العام] . نعم ، إنهم كانوا يُمدُّون العمل الذى يدخلون فيه بقوة جديدة ، ولكن نظام الدولة كله كان عتيقاً إلى حد لا يصدق ، ولهذا كان أقوى من أولئك الرجال فلم يغيروا شكله ، بل كانوا أعجزَ من أن يفعلوا ذلك . وعلى هذا فقد بقى هيكل الحياة البيزنطية على ما هو عليه فى أساسه ، وكان كل انتعاش فى الدولة الرومانية الشرقية ينتهى بأن يُصبح قوة جديدة تؤيد التقاليد القديمة الراسخة . وذلك هو ما يومه المتأمل السطحى لتاريخ الإمبراطورية بأن تاريخها كان يزرح تحت عبء فادح من التزمّت الذى لا يتغير . فإذا تعمق المتأمل فى هذا التاريخ لم يلبث ذلك الشعور أن يزايل نفسه . بيد أننا ينبغى أن نقرر أنه من الصحيح أن الحياة البيزنطية كانت تميل دائماً إلى أن تعبر عن نفسها فى صور تقليدية ، بالرغم من أن أى قرن فى تاريخ الإمبراطورية لا يكاد يشبه غيره . وقبل أن يغزو الصليبيون القسطنطينية سنة ١٢٠٤م لم يشهد العالم الرومانى الشرقى أى تغيير شامل جوهرى فى نظام حياته . فلم يحدث أن أدخل أى فاتح إلى الإمبراطورية ثقافة أخرى وأساليب جديدة للحكم كما فعل النورمانديون عندما غزوا إنجلترا فى العصور الوسيطة . ولم يحدث

إلا في ظل اللاتين أن قامت إمارات اقطاعية كثيرة على أنقاض تلك الدولة الموحدة التي ظلت إلى آخر لحظة متشبثة بتراث العالم القديم . وكان هذا نتيجة محتومة لانتصار غرب أوروبا . وهكذا نعود إلى حيث بدأنا [وننتهي إلى تلك الفكرة التي قررناها بين يدي بحثنا هذا] وهي أن الإنسان لا يستطيع أن يفهم روما الشرقية فهما حياً إلا إذا وضع نصب عينيهِ أن حضارتها كانت متصلة اتصالاً مستمراً بماضيها اليوناني والروماني .

* * *

إنما كانت الإمبراطورية البيزنطية مزيجاً من التراث الهلينستي والتراث الروماني .

ملحق ١

عرض عام لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية

وهو ترجمة للفصلين الأولين من كتاب

CHARLES DIEHL, *Byzance, Grandeur et Décadence*
(Paris 1919).

La formation de l'empire oriental. وهما :

تكوين الإمبراطورية الشرقية

و

De l'apogée de l'empire à sa chute
(867 — 1453)

من أوج الدولة إلى سقوطها (٨٦٧ — ١٤٥٣)

الفصل الأول

تكوين الإمبراطورية الشرقية

من تأسيس القسطنطينية إلى نهاية القرن التاسع

(٣٣٠ - ٨٦٧)

— ١ —

تكوين الإمبراطورية الشرقية (٣٣٠ - ٥٦٥) —

الإمبراطورية منذ تأسيس القسطنطينية إلى أول القرن

السادس (٣٣٠ - ٥١٨)

بدأ تاريخ الإمبراطورية البيزنطية في ذلك اليوم الذي
اختط فيه قسطنطين القسطنطينية ، وجعلها العاصمة الثانية
للإمبراطورية الرومانية ، وهو الحادي عشر من مايو سنة ٣٣٠ م .
وكانت القسطنطينية ، بطبيعة موقعها الجغرافي في ذلك الموضع الذي
تلتقي فيه آسيا بأوروبا ، مركزاً طبيعياً يمكن أن يلتف حوله

العالم الشرقى . وكانت هذه العاصمة الناشئة ، أو « روما الجديدة » ، كما كانت تسمى ، تختلف اختلافاً بيّناً عن العاصمة القديمة ، وكانت تجمع فى شخصها الآمال الجديدة والطوايع الجديدة للعالم الشرقى ، وذلك بفضل هذا اللون الهلبنى الذى كان يغلب عليها ، وبفضل الشخصية الجديدة التى خلقتها عليها المسيحية . ومن ثم ، وعلى الرغم من أن الإمبراطورية الرومانية استمرت قائمة فى الوجود قرناً ونصفاً بعد إنشاء القسطنطينية — إذ لم تغرب شمسها إلا فى سنة ٤٧٦ — وعلى الرغم كذلك من أنه حتى نهاية القرن السادس ظل التقليد الرومانى حياً قوياً حتى فى نواحي الشرق ، على الرغم من ذلك كله أخذت أطرافُ الجزء الشرقى من الدولة تتجمع حول مدينة قسطنطين ، وانتهى الأمر بأن دب فى هذا الجزء الشرقى وعىٌ بشخصيته المستقلة . نعم لقد حدث ابتداءً من القرن الرابع أن انفصل شطرا الدولة أحدهما عن الآخر — على الرغم من الوحدة النظرية — وحكم كلاً منهما إمبراطور خاص ، ولكن عندما توفى الإمبراطورُ ثيودوسيوس الكبير سنة ٣٩٥ ، خلفاً لولديه أركاديوس وهنوريوس ترأثا ضحاً مشطوراً إلى إمبراطوريتين ، تأكد ذلك الانقسام الذى كان يعمل منذ زمن طويل على فصل الشرق

عن الغرب ، وأصبح أسراً واقعاً نهائياً .

وفي خلال الفترة التاريخية الطويلة التي تمتد من سنة ٣٣٠ إلى ٥١٨ مرت الدولة بأزميتين خطيرتين زعزعتا كيانهما ، ولكنهما تمخضتا عن إعطاء جزئها الشرقى وجهه الصحيح . فأما الأولى فأزمة الغزوات المتبربرة : وقد حسب الناس أول الأمر أن بيزنطة لن تستطيع مقاومة هذه الغزوات إلا بمثل ما قاومتها به روما ، وأنها لن تصمد أمام الصدمة المروعة التي حلت بها خلال القرن الخامس على يد قوطِ ألك الغريبين ، وهونِ أتلا ، وقوطِ ثيودوريك الشرقيين على التوالي . ولكن الذي حدث هو أنه في حين كان زعماء القبائل المتبربرة يقطعون لأنفسهم من حطام الدولة الغربية ممالك ، وفي حين اختفى آخرُ الأباطرة الغربيين في سنة ٤٧٦ ، كانت غزوات المتبربرين تمر بجذام حدود الدولة الشرقية دون أن تجتاحها إلا اجتياحاً عابراً : وكانت النتيجة أن روما الجديدة ظلت قائمة وكأنما ازدادت رفعتها سعةً بسبب هذه الكارثة التي هوت روما القديمة تحت ثقلها . ومن هنا ازداد اتجاهاها نحو الشرق .

وأما الأزمة الثانية فهي الأزمة الدينية ، فقد ولدت في الشرق كل المبرطقات الكبيرة التي زعزعت كيان الكنيسة خلال

القرنين الرابع والخامس وهى : الأريوسية والنسطورية والمونوفيزية . ولم تكن هذه المذاهب إلا مساجلات معقدة وقفت فيها الروح الإغريقية الخافلة بالدهاء الميتافيزيقي النشولوجي وجها لوجه فى تباين ظاهر أمام العبقرية الصافية الرزينة التى امتاز بها العالم اللاتينى ، واحتدم فى أثنائها صراع عنيف بين أسقفية الشرق المرنّة الخاضعة لإرادة السيد الحاكم وبين رؤساء الكنيسة الرومانية وما امتازوا به من ترفع يشوبه العناد ، وحزم يزيد الطموح ثباتا . وفى خلال الثلث الثانى من القرن الخامس أدى هذا الشقاق الدينى إلى فصل روما عن بيزنطة المرة الأولى . وكلما سمرت الأعوام بعد ذلك تجأت حقيقة إمكان قيام دولة شرقية خالصة تعيش مستقلة بنفسها ، وأخذت تبدو على هذا القسم الشرقى بعض السمات المميزة لما ستكون عليه الإمبراطورية البيزنطية ، وأظهرها الحكومة الاستبدادية المطابقة على طراز الحكومات الشرقية ، والإدارة الشديدة المركزية ، والكنيسة ذات اللغة اليونانية - تلك اللغة التى ستجعلها هيئة مستقلة - التى تعتمد - أى الكنيسة - اعتماداً شديداً على الدولة التى تهيمن عليها . وحينما اكتملت لهذا القسم الشرقى هذه الصفات المميزة بلغ هذا التطور ، الذى أتى بالدولة البيزنطية فى أحضان الشرق ، نهايته .

حكمهم مستفياً به (٥١٨ — ٥٦٥) -- وفي خلال القرن السادس توقف سير هذا التطور الذى كان يبدو فى ذلك الحين وكأنه طبيعى لا مندوحة عنه ؛ ذلك أن الإمبراطور جستنيان (٥١٨ — ٥٦٥) الذى تطفئ شخصيته القوية على تلك الفترة كلها ، أراد أن يكون إمبراطوراً رومانياً ، وكان فى الواقع آخر الأباطرة الرومان العظام . ولقد حمل هذا الرينى الذى ولد فى مقدونيا لواء فكرتين عظيمتين : الأولى فكرة الإمبراطورية ، والثانية الفكرة المسيحية ، فكان حمله لهذا اللواء سبباً فى بروز اسمه فى صفحات التاريخ : كان يرى نفسه وارث القيصرية ، وكان وجدانه يصخب بأصداء العظمة الرومانية ، وكان ذلك يزدهيه ويملا نفسه بالطموح البعيد . كان يحلم بإعادة الوحدة الرومانية ، وكان يصر على استعادة الحقوق الواسعة التى كان ينبغي أن تكون لروما على ممالك المنبر برين فى الغرب ، وكان يشعر أن بيزنطة هى وارثة تلك الحقوق ، ومن ثم اندفع فى غزو إفريقية وإيطاليا وقورسيقة وسردينية والجزائر الشرقية (البليار) وجزء من إسبانيا ، واضطرت ملوك الفرنجة ، أصحاب غالة ، إلى قبول سيادته . وكان يشعر أيضاً أن حكمه إنما هو استمرار لحكومة أباطرة روما العظام . فكان لهذا يرى نفسه — مثلهم — رمزاً

القانون الحى والصورة الكاملة للسلطان المطبق ، ومن هنا أيضاً اعتبر نفسه المشرّع الذى لا يخطئ ، والمصلح الحريص على نظام الدولة . ثم أراد بعد ذلك كله أن يزين العظمة الإمبراطورية بكل ألوان الفخامة ، فكانت كنيسة سنتا صوفيا (آيا صوفيا) — التى شيدها وأفرغ عليها روائه رائعاً — أثراً لا يضارع رى من ورائه إلى تخليد عصره واسمه .

ولما زالت كنيسة القديس فيثالى فى راقنا بنفسفائها البراقة ، التى تتألق فى حنيتها المنعزلة ، تصور على هيئة تأخذ بالألباب الفخامة الرائعة التى كان سادة « القصر المقدس » فى بيزنطة يحيطون أنفسهم بها .

بل استرسل جستنيان مع الأحلام إلى أبعد من ذلك : كان يرى نفسه ممثلاً لله على الأرض ، ولهذا جعل نفسه حامى الأرثوذكسية فى العالمين ، وتكلف مشقة نشر الديانة الحققة فى نواحي الكون . ولكن عظمة هذا الطموح البعيد ربما كانت ظاهرة أكثر منها حقيقية . وربما كانت ثمودورا — تلك الطارئة التى أصبحت إمبراطورة — أصدق نظراً من زوجها صاحب التاج . فبينما أسرف جستنيان فى الاسترسال مع أحلام الطموح الواسع المبهم العالم ، وقصّر اهتمامه على الولايات الغربية ، وتمادى فى خداع

نفسه بإمكان إقامة الدولة الرومانية مؤيَّدة بقوة البابوية تأييداً متيناً ، بينما كان جستنيان مسترسلاً في تلك الأحلام كانت ثيودورا توجه نظرَها والتفاتَها نحو الشرق مدفوعةً إلى ذلك بإحساس واضح دقيق للحقائق السياسية الواقعة . كانت ترمى إلى القضاء على المنازعات الخطرة على كيان الدولة ، وكانت تريد أن تستعيد إلى حظيرتها الأمم التي روعَ أمرُها روحُ المخالفة والعصيان . وكانت ثيودورا لا تتردد في التنازل عن الكثير لهذه الأمم طمعاً في كسب ودّها ، بل ذهبت في استرضائها إلى حد إغضاب روما ومخاصمتها على أمل إعادة وحدة الدولة الشرقية قويةً متينة . وإن الإنسان ليتساءل عما إذا كانت الإمبراطورية المتماسكة المتجانسة ، التي كانت ثيودورا تسعى إلى تحقيقها ، أقوى وأقدرَ على مقاومة الفُرس والعرب من الإمبراطورية التي أقامها جستنيان بعد العناء ، بل إننا لنستطيع أن نقول إن حكم جستنيان ، الذي أوقف التطوّر الطبيعي للإمبراطورية الشرقية ، قد أنهكها واستنفدَ قواها في تحقيق آمال مسرفة في الخيال ، وأنزل بها من الضرر أكثر مما أتاها به من الخير على الرغم من الرواء الذي أفرّضه عليها . إن ذلك الشرق الذي أهمله جستنيان إهمالاً شديداً لن يلبث أن يثار لنفسه على أروع ما تكون صور النار والانتقام .

نحول الدولة البيزنطية الى دولة شرقية - نظام هذه الدولة : بيد أن الدولة رغم هذه الدوافع التي كانت تدفعها نحو الشرق ظلت إلى ذلك الحين تبدو مواصلةً لتاريخ روما . فبقيت اللغة اللاتينية لغتها الرسمية ، رغم ما كان في ذلك من غرابة ؛ وأقامت التقاليد الرومانية فيها قوةً مرعية ؛ وظلت الإدارة تحتفظ بأسماء الوظائف ودرجاتها التي قررها لها القياصرة . ومن أوائل القرن السابع إلى منتصف القرن التاسع أسرعَت الدولة في تحولها إلى دولة شرقية ، بل تم ذلك التحول .

نحول الامبراطورية الى دولة شرقية : بحلول القرن السابع (٦١٠ - ٧١٧) : كلف طموح جستنيان الدولة ثمنًا غاليًا ، ثم إنه لم يكد ينتقل إلى الدار الأخرى حتى أخذت ثمرات جهوده تُصَفَّى تصفيةً مخربةً ، فأعلنت الدولة في الداخل إفلاسها ماليًا وحريريا ، وعاد الخطرُ الفارسي يحتم على صدرها بصورة مخيفة . وما هو إلا قليل حتى انشال على الدولة طوفان الغزو العربي . ولم تكذب المنازعات الدينية أن أقبلت مسرعةً تزيد الفوضى سوءًا على سوء . فهذا القرن السابع (٦١٠ - ٧١٧) يعدُّ من أسود

عصور الدولة ، عصر أزمة قاسية وفترة حاسمة بدا مصير الدولة خلاله وكأنه في كفة القدر .

وليس إلى الشك سبيل في أننا نصادف خلال هذا القرن شخصياتٍ عظيمةٍ جديرة بالاهتمام ، فقد استطاع هرقل (٦١٠ — ٦٤١) أن يوقف تيار الفرس المنتصرين ويزيحهم خارجَ حدود بلاده . وسار على رأس جنوده الذين أثار نخوتهم بحماسة ، وتوغل مظفرًا في قلب آسيا ، وانتصر على الفرس عند نينوى بل عند أبواب كتزيْفون (Ctesiphon = المدائن) وثأر المسيحية ، وغسل الإهانات التي ألحقها بها الفرس ، وسجل اسمه على رأس قائمة الصليبيين . وكانت سياسته الدينية مكاملة لجهوده الحربية ، إذ كان جهده منصرفًا إلى إعادة الوحدة المعنوية إلى الملكية التي أعاد بناءها ماديًا . ولكن الدولة بدأت تتفكك فعلا قبل موته : فَتَحَ العرب الشام ومصر والمغرب وأرمينية ، وغزا الأنكبرديون (اللمباردُ) أكثرَ من نصف إيطاليا . واقتصرت أراضي الدولة على آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان واكرزكية رافنا . وكانت هذه المساحة الضيقة مهددةً من كل ناحية بغارات اللمبارد والصقالبة والعرب والبلغار . ولقد ظلت الدولة إلى مطالع ذلك العصر إمبراطوريةً ذاتَ طابع عالمي . أما خلاله فقد

أصبحت إمبراطورية بيزنطية خالصة تتركز قواها كلها حول القسطنطينية .

وكانت نتيجة ذلك كله أن عانت الدولة تغيراً عميقاً شاملاً : فتغيرت الأجناس التي كانت تسكن أراضيها وتخضع لها . فقد استقرّ الصقالبة في البلقان ، ونزل الصربيون والكرواتيون في الشمال الغربي ، والبلغار في الجنوب الشرقي . وتغير نظامها الإداري فوُضعت السلطات كلها في يد القادة الحربيين ، وذلك تيسيراً لأمر الدفاع ، وبدأت ترسم الخطوط الرئيسية لنظام الإدارة الحربية في ولايات الحدود التي أصبح كل منها يسمى *thema* (= ولاية يحكمها قائد عسكري) وسيدوم هذا النظام مابقيت الدولة . وتغيرت الإمبراطورية كذلك تغيراً اجتماعياً على وجه الخصوص ، فأخذ العنصر الهليني يرقى إلى مقام الصدارة في الدولة يوماً بعد يوم ، واختفت اللغة اللاتينية أمام اليونانية ، وأخذ الأدب يستلهم أفكاره ونماذجه من الأساليب الجديدة ، وكذلك اصطبغت المعادات ، التي كان الناس ينبغونها في حياتهم ، بصبغة يونانية . وفي نفس الوقت أخذ سلطان المسيحية يسود كل شيء يوماً بعد يوم وذلك بسبب الدور الذي كانت الكنيسة تلعبه في الشؤون السياسية ، وبسبب

انتشار الديرية في بلاد الدولة انتشاراً واسعاً . وتغيرت بيزنطة — آخر الأمر — تغيراً سياسياً ، ذلك أن المنافسة مع روما ازدادت مع الزمن حدةً بسبب الخلافات المستمرة ، وتمهّد السبيل للقطيعة التي ستقع وتفصل بين الغرب و بيزنطة فصلاً تاماً . وكانت نتيجة ذلك أن أخذ اهتمام حكام بيزنطة يتركز في الشرق وحده . و ليس إلى الشك سبيل في أن ذلك التحول ، الذي جدد الإمبراطورية تجديدًا شاملاً ، لم يكن خيراً خالصاً في كل حالة أو من كل وجه . ذلك أن انتشار الخرافات بين أهل الدولة صاحبه توحّشُ أخلاق أهلها ، وتواتت الثورات العسكرية ، ونتج عن ذلك هبوط معنوى متزايد ، وأخذ الولاء للدولة والإخلاص لها يقلان . ولكننا ينبغي أن نلاحظ حقيقة هامة ظهرت وتجلت بشكل واضح في نهاية تلك المدة المضطربة التي سادها التغير والحركات العنيفة ، وهي حقيقة لم يُحلّ دون ظهورها ذلك الانهيارُ المتصل الذي كانت تعانيه الدولة بسبب ما حاق بها من الضعف في الخارج ومن التهديد المستمر لحدودها في كل ناحية ، وبسبب الاضطراب الداخلي الذي نشأ عن فوضى شملت الدولة كلها خلال عشرين سنة متوالية (٦٩٥ — ٧١٧) . تلك الحقيقة هي أننا نشهد بعد ذلك البلاء كله إمبراطوريةً بيزنطيةً أشد

نماسكاً مما كانت عليه قبلاً رغم انكماش حجمها ، وقد تخلصت من حمل ولاياتها الغربية الثقيلة ونجحت تبعاً لذلك من خطر حركات الانفصال الشرقية ، وأصبحت إمبراطورية يسهل تنظيم أمورها تنظيمًا كاملاً ويسهل تمهيد سبل الحياة أمامها إذا وفقها الله إلى حكام قادرين يتولون أمورها .

أعمال الأسرة الإيسورية (٧١٧ — ٨٦٧) —

وقد وفقها الله إلى هؤلاء الحكام في أشخاص الأباطرة الإيسوريين (٧١٧ — ٨٦٧)^(١) وهم الأباطرة الأنجاد الذين أعادوا تنظيم الدولة تنظيمًا نهائياً بمهارة الصانع الماهر .

واقعد تعمود الناس أن يشقوا في الحكم على الأباطرة اللايقونيين وأساءوا تقديرهم في أحيان كثيرة ، إذ أنهم يذكرون لهم قبل كل شيء سياستهم الدينية التي لا يفهم الناس أهدافهم من ورائها ولا أهميتها إلا فهمًا ناقصاً ، وهم ينسون الحالة التي وجد أولئك الأباطرة الدولة عليها ، ولا يعرفون ذلك الجهد العظيم الذي قاموا به لإعادة تنظيمها تنظيمًا كاملاً . فلقد كان إيو

(١) حكمت الأسرة الإيسورية من ٧١٧ إلى ٨٠٢ ، ولكن خلفاءها الذين حكموا من ٨٠٢ — ٨٦٧ واصلوا الجهود التي بدأتها وأكملوها . (المؤلف)

الثالث وقنسطنطين السابع إمبراطورين عظيمين ، وكان فيهما
عنف واستبداد ، وكانت لهما أهواء جامحة ، وكانت فيهما قسوة ،
ولكنهما كانا إلى جانب ذلك كلا قائدين عظيمين استطاعا أن
يكسرا حدة الإسلام^(١) ويقضيا على مطامع البلغار . وكانا
إداريين ماهرين نهضا بعمل تشريعي وإداري واجتماعي
ضخم ، ولم يملك حتى أعداؤهما أنفسهم من أن يقدروهما
حق قدرهما .

وليس هناك شك في أن سياسة هؤلاء الأباطرة كان لها
بعض النتائج السيئة : فقد اضطربت أحوال الدولة في الداخل
بسبب ما أناروه من نزاع حول الصور ، وتعرضت الدولة كذلك
لأخطار خارجية أصابها من ورائها بلاء كبير ، ف وقعت القطيعة
بينها وبين روما ، وفقدت إيطاليا ، وأنشأ شارلمان إمبراطوريته
سنة ٨٠٠ ، وكانت كل تلك عوامل ساعدت على إتمام عملية

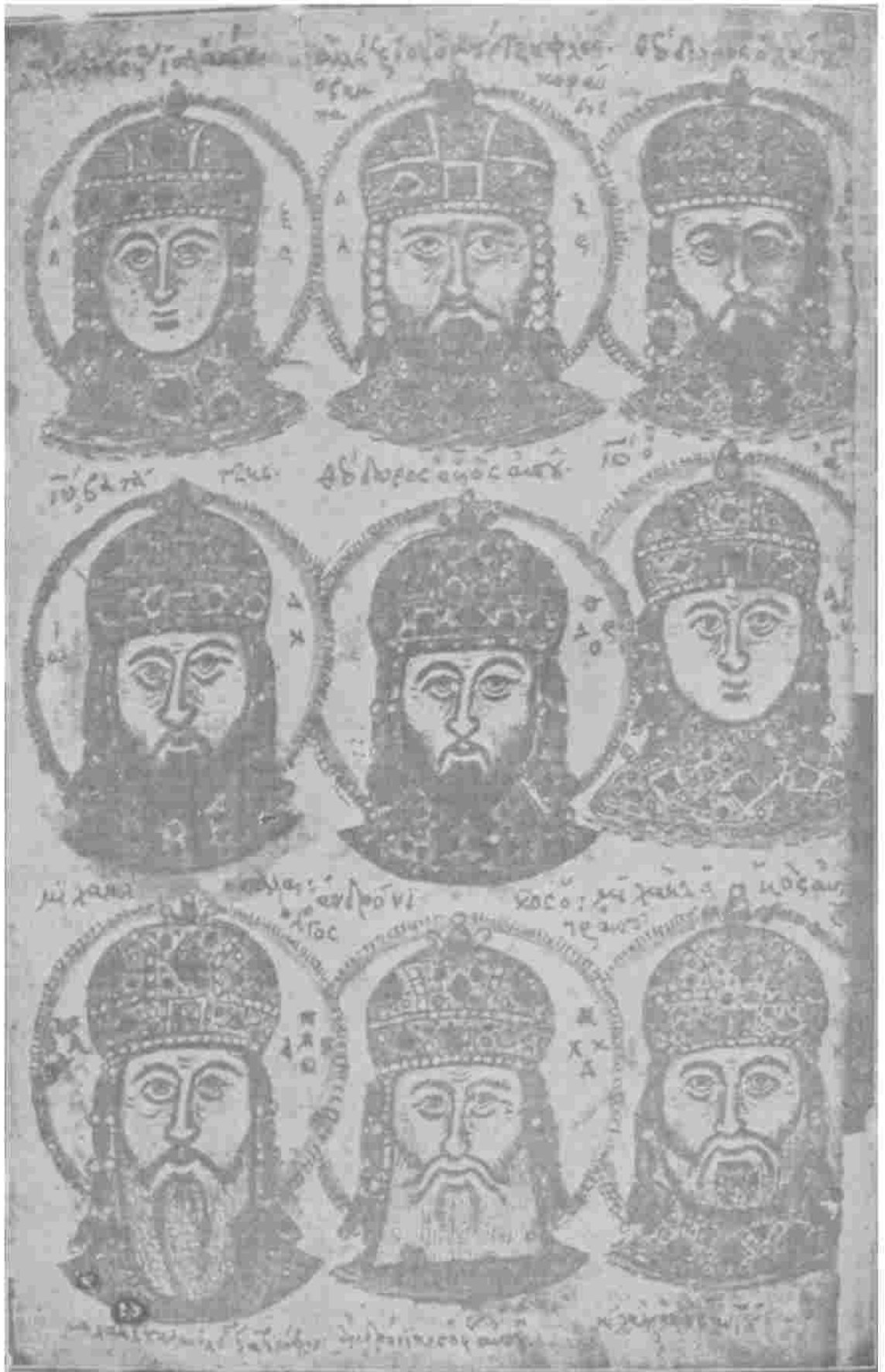
(١) كان توفيقهم [في حروب المسلمين] حاسماً يختلف في كثير عن
انتصار شارل مارنل عليهم في بلاط الشهداء . لأن الظروف أعانتهم على
ذلك بما حدث في الدولة الإسلامية من انتقال الدولة إلى العباسيين مما أدى
إلى تحول مراكز الخلافة من دمشق القريبة من حدود الدولة البيزنطية إلى
بغداد البعيدة على الفرات . وكذلك أعانتهم الخلافات التي أشاعت
الفوضى في الإمبراطورية العربية ، وأضعفتها خلال النصف الثاني من القرن
الثامن . (المؤلف)

تحويل الدولة إلى دولة شرقية خالصة . ولقد استطاع هؤلاء الأباطرة الإيسوريون الأقوياء أن يشدوا دعائم سلطان الإمبراطور بعد أن خرجوا منتصرين من الصراع العنيف مع الكنيسة ، وتمكنوا بعد ذلك من تحرير أنفسهم من سلطانها تحريراً كاملاً وثبتوا سلطانهم تثبيتاً عظيماً . وعلى الرغم من الأخطار الخارجية التي تهددت الدولة خلال القرن التاسع كالخطر البلغاري في أوائل هذا القرن وغزو العرب لجزيرة كريت (٨٢٦ م) الذي حرم الدولة من كل شعور بالأمان في شرق البحر الأبيض المتوسط على الرغم من ذلك كله قامت الدولة في منتصف ذلك القرن التاسع قوية باهرة .

وفي أيام الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ — ٨٤١) عظم أمر البلاط البيزنطي حتى نافس بلاط الخلفاء في بغداد وذلك بفضل الفخامة التي امتاز بها القصر المقدس ، والنور الذي كانت الحضارة البيزنطية تفيضه على ماحولها . وفي ذلك الحين الذي خرجت فيه الإمبراطورية من فترة طويلة من الاضطراب بدا الأدب والفن البيزنطيان وكأنما قد بثت فيهما الولاة قوة جديدة . ومن ثم بدت طلائع نهضة فنية أدبية واسعة المدى ، وأصبحت جامعة القسطنطينية ، التي أعاد إنشاءها قيصرُ بارداس (حوالي ٨٥٠)

من جديد مركزاً لثقافة فكرية جديدة بالإعجاب ؛ وامتد سلطانُ الدولة حتى بلغ العالم الصقلي الذي حمل إليه القديسان سيريل ومشوديوس ، الملقبان برسولي الصقالبة ، العقيدة الأرثوذكسية والأبجدية وُلغة الأدب والكتابة . واستطاع هؤلاء الأباطرة منذ سنة ٨٤٣ أن يعيدوا الوحدة الدينية في الإمبراطورية . وأخذت الكنيسة اليونانية تكتسب طابعاً وطنياً يوماً بعد يوم . وكان هذا الطابع القومي من أسباب القوة والحدة اللتين اتصفت بهما فتنة فوتيوس ، وزاداتها ظهوراً .

وهكذا نجد أنفسنا عند ختام هذه الفترة أمام قومية بيزنطية حقيقية تكونت على مهل أثناء الحوادث الجسيمة التي مرت بالدولة . ووقفت الإمبراطورية ، بعد أن تحولت إلى دولة شرقية خالصة ، على أبواب ذلك الأوج المجيد الذي هباً لها قرناً ونصفاً من العظمة والرخاء والمجد من أواخر القرن التاسع إلى منتصف القرن الحادى عشر .



بعض أباطرة الدولة البيزنطية (انظر أسماء م ٤١٩)

الفصل الثاني

من أوج الدولة إلى سقوطها

(٨٦٧ - ١٤٥٣)

— ١ —

الإمبراطورية في أوجها تحت حكم الأسرة المقدونية

(٨٦٧ - ١٠٨١) — ارتفعت الدولة البيزنطية فيما بين سنتي

٨٦٧ و ١٠٢٥ إلى أوج من العظمة لا يُضارع . وفي خلال هذا

القرن ونصفه توالى على عرشها سلسلة من الحكام البارزين ،

منهم باسيل الأول ، مؤسس الأسرة ، ونقفور فوقاس ويوحنا

تسيمسكيس ، وكان كلاهما غاصبا للعرش ذا حظ من المجد ، وقد

قاما بأمر الملك باسم الأمراء الشرعيين ، ثم باسيل الثاني الذى

امتد حكمه نصف قرن كامل من ٩٧٦ - ١٠٢٥ . وكان هؤلاء

جميعا حكاما يختلفون اختلافا عظيما عن هذا الطراز الذى يتصور

الناس الأباطرة البيزنطيين عليه عادة : كانت لهم نفوس متحفزة

قوية الشكيمة . وكان يقلب عليهم جميعا الميل للاستبداد

والعنف ، فكانوا يتصرفون في كثير من الأحيان دون رحمة ودون اعتبار للحرمة . وكان همُّهم الأول موجهًا إلى إيقاع الهيبة في قلوب رعاياهم لا مجرد التعجب إليهم . وكانوا رجال سياسة تنزع بهم نفوسهم دائمًا إلى ما فيه عظمة الدولة . وكانوا إلى ذلك قادة حربيين مبرزين تقضت حياتهم في ميادين القتال بين جنودهم ، وكانوا يحبون هؤلاء الجنود ، ويرون فيهم مصدر قوة الدولة . وكانوا — آخر الأمر — إداريين قادرين يعمر نفوسهم نشاطًا لا يهدأ ولا يئثني . ولم يكن شيء يستطيع ردِّهم عما يعتمزمون به إذا كان في الوصول إليه تأمين لسلامة الدولة . ولم يكونوا ليعرفوا انفاق الأموال فيما لا يجدي . وكان همُّهم الوحيد هو زيادة الثروة القومية ، فلم يكونوا ليهتموا بفخامة القصور ولألائها ولا بأبهة المواكب والحفلات إلا بالقدر الذي يخدم أغراضهم السياسيَّة ، ويزيد في جاههم كحكام . وكانوا — وأولئك الذين ذكرتهم على الأقل — حريصين على سلطانهم إلى درجة حالت بينهم وبين المبالغة في تقريب الندماء : فكان نصحاؤهم في غالب الأمر رجالًا خاملين الذكر يستخدمونهم ويسيطرون عليهم . وكان النزوع إلى المجد يملك عليهم نفوسهم ، وكانت قلوبهم تفيض بالطماع البعيد ، فموتوا على أن يجعلوا الدولة البيزنطية أقوى دول

العالم الشرقى . وانعقد عزمهم كذلك على أن يجعلوها رأس « الحضارة الهلينية » وأمّ العقيدة الأرثوذكسية فى وقت واحد ، وتمكنوا من تحقيق أحلامهم تلك بعد معاناة حروب طويلة ، وبفضل سياسة ماهرة مرنة وحكومة قوية محكمة .

واقعد نهضت الدولة منذ أواخر القرن التاسع وأوائل الثلث الأول من القرن العاشر حاملة لواء الحرب تشن الهجوم فى عنف ، فتقهقر العرب أمامهم فى آسيا من نهر هاليس *Halys* إلى الفرات ، واجتاحت الجيوشُ الإمبراطورية كيليكيا والشام وفلسطين موفقة مظفرة ، بل استطاع يوحنا تسيمسكيس أن يتوغل فى بلاد المسلمين حتى أبواب بيت المقدس . أما فى الناحية الأوروبية فقد انهارت الإمبراطورية البلغارىة القوية وجرفها تيارُ الدماء التى سالت على ظهى جنود باسيل الثانى بعد أن كان إمبراطورها سيميون وصمويل قد نهضا بها إلى درجة جعلتها منافساً خطراً للدولة البيزنطية ، وقد بلغ من إسراف باسيل الثانى فى قتال البلغار أن أطلق عليه رعاياه ذلك اللقب الرهيب « سفاح البلغار » *"Bulgaroctone"* وقامت أساطيل الدولة البيزنطية بحراسة أمواه البحار من (قراصنة) المسلمين . وقد بلغ من بُعد همتهم أن استطاعوا أن يمدوا جأهم حتى وصلوا به إلى إيطاليا البعيدة حيث

(٢٢ م)

كانت التقاليدُ الرومانية القديمة لاتزال حيّة تستثير الهمم ، فجدد هؤلاء الأباطرة البيزنطيون المطامح القديمة التي لم يُذكرها النسيان أبدا . وقام جاههم الجليل الخالد هناك يناهض — سلطان قياصرة الدولة الرومانية المقدسة الجرمانية .

استطاع هؤلاء الأباطرة أن يوسعوا رقعة دولتهم إلى درجة لم تبلغها منذ أيام جستنيان ، فرفرت ألويتها على البلاد الواقعة بين الشام والدانوب ومن أرمينية التي ضموها إلى سلطانهم إلى جنوبي إيطاليا الذي استطاعوا فتحه . واستطاعت السياسة الماهرة التي جرت عليها الدولة أن تجمع حول هذه المساحة الواسعة موكبا حافلا من الأتباع الإيطاليين والصقالبة والأرمن والقوقازيين ، وبواسطة هؤلاء جميعا انتشر تأثير بيزنطة انتشارا واسعا في آفاق الأرض . وتعتبر بيزنطة — كما كانت روما من قبل — المعلة الكبرى للمتبرزين من الكرواتييين والصربيين والبلغار والروس ، فهم مدينون لها بدينهم ولغتهم الأدبية وفنهم وأشكال حكوماتهم . وإلى الحضارة البيزنطية يرجع الفضل في تهذيب حواشيهم والارتقاء بمجتمعهم وتعليمهم . وفي خلال عصر الأسرة المقدونية كانت القسطنطينية بحق ملكة المدن تجتمع فيها كل أساليب الظرف ولطائف الترف وألوان المتعة

المقلية وغرر الصناعة القائمة على أسس العلم وروائع العماره وملاهي السرك (الملاعب والمسرح) ؛ إنها « باريس المصور الوسطى » التي كان غناها وفخامتها يثيران مطامع العالم المتبربر وإعجابه .

وأخذ الأمن يستتب داخل الدولة رويداً رويداً بفضل جهود أباطرة ذوى همة ، وشاع في رحابها الأمان الذى يعتبر أساس الرخاء ، واستقرت دعائم سلطتها . وعلى عرش هذه الدولة الشرقية ، التى أُعيد بناؤها ، تربع أباطرة البيت المقدونى وأخذت تراودهم الآمال التى راودت جستينيان فيما قبل فى أن يَبْلُغُوا مجداً مزدوجاً كمشرعين وحكام إداريين . وحينما توفى باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ كانت الدولة البيزنطية فى أوج سطوتها ورخائها ومجدها ، وقد أصبحت رفعتها ضعف ما كانت عليه قبلاً ، وقضى على كبرياء البارونات الإقطاعيين ، واحتوت خزانة الدولة على احتياطى زاد على المليار ، وانتشرت صيت الدولة فى العالم الشرقى كله وامتد جاهها .

ولم يكن لينقصها إلا أمراء ذوو همة وسياسات حازمة حتى يدوم لها ذلك الجاه وتلك القوة . ولكن سوء حظ بيزنطة أراد لها أن يحكمها نساء ورجال مهملون ذوو مواهب قليلة ، فكان ذلك

مبدأ أزمة جديدة . فاستطاعت الأرستقراطية المنهزمة أن ترفع رأسها من جديد في عصور الأباطرة الضعاف ، وخاف رجال الدولة من ثورات رجال الجيش فعملوا على إضعاف قوته ، وصارت الدولة إلى أيدي حكام مدنيين من كتاب الدواوين ورجال الفكر ، فكان ذلك تمهيداً للقوضى . فلما ضربت أطنابها أصبحت خطراً ماثلاً يهدد الدولة كلها لأنها واجهت في ذلك الحين خطرتين داهيتين : هما النورمان في الغرب ، والترك السلاجقة في الشرق . ولم يكن هذان الخطران أشد ما واجهت الدولة قبل ذلك ، بل لقد كانت الدولة مستطيمة أن تصبغهم بصبغتها الهلينية وتمثلهم في كيائها كما فعلت بغيرهم ، أو تخضعهم لسلطانها فتجعلهم تابعين لها . ولكنها كانت في ذلك الحين أضعف من أن تنهض بمثل هذا العمل .

ولنضف إلى ذلك مصائب الانقسام الديني والقطيعة النهائية بينها وبين كنيسة روما ، وكانت هذه الأخيرة سبباً قوياً من أسباب القوضى . ويبدو أن البيزنطيين لم يهتمهم من ذلك شيء ، فظلوا يعمنون فيما كانوا منصرفين إليه إذذاك من مؤامرات القصر والحروب الأهلية والثورات في القسطنطينية والقوضى في الولايات ، وظلت الدولة على هذا الحال قرابة خمس وعشرين سنة . بل

حدث في سنة ١٠٨١ أن كان عرش الدولة متنازعا بين أباطرة
ثلاثة في حين كان الترك — الذين انتصروا على الإمبراطور
رومانس الرابع في يوم ملاذكرد الأسود (١٠٧١) — معسكرين
أمام القسطنطينية ، وبدأ وكن الدولة على وشك الانهيار .

— ٢ —

نهضة الإمبراطورية في عصر آل كومنين (١٠٨١ — ١٢٠٤) :
ورغم ذلك كله استطاعت الدولة أن تنجو من الخطر المحيق
وتنهض من حديد نهضة لم يكن يتوقعها أحد بفضل الجهد الذي
بذلته أسرة كومنين (١٠٨١ — ١١٨٥) : كان آل كومنين
في أصلهم أسرة إقطاعية كبيرة ، مثلهم في ذلك مثل آل كايه
في فرنسا ، واستطاعوا مثلهم إعادة السلطان المركزي المنهار .
وتعاقب منهم على العرش أربعة أمراء مبرزين : إلكسيوس
ويوحنا ، وكانا قائدين عظيمين وإداريين ماهرين وسياسيين
عبقريين ؛ ثم مانويل وهو شخصية تغرى الباحث بدراستها
وتفهمها أكثر من أى شخصية أخرى في هذه الأسرة ، إذ كان
في نفس الوقت شجاعا إلى حد التهور ولاهوتيا ماهرا ، وكان إلى
ذلك شديدا العناية بمظهره ، واسع الكرم ، حريصا على

الاستمتاع بالحياة ، آخذاً بأطراف من الأدب ؛ وكان على الجملة مزاجاً غريباً من صفات الفروسية العربية والعقلية البيزنطية التقليدية ، وربما كان آخرَ الحكام العظام الذين تربعوا على العرش الإمبراطورى ، إذ كانت نفسه تفيض بالمطامح البعيدة ، وكانت حياته فيأضةً بالجهد المتصل الذى بذله لتحقيقها . وأخيراً اندرونيكوس أذكى رجال هذه الأسرة الذى شغل أهل القرن الثانى عشر بأخبار مغامراته العاطفية وفضائحه ورذائله قبل أن يرقى إلى العرش ، فلما تربع عليه أظهر من عالى الخصال ما جعل معاصريه يقولون : « إنه ليَقَارَنُ بأعظم الأباطرة » ، وكانت له شخصية قوية جميلة تجمع فى وقت واحد بين العبقرية والفساد : كان مستبداً بغيضاً ورجلَ دولة ممتازاً . ولقد كان فى إمكانه أن ينقذ الدولة ولكنه لم يفعل إلا أن ساقها إلى حتفها . وفى هذا المقام أيضاً نتجلى لنا الحقيقة التى أشرنا إليها وهى أن تاريخ بيزنطة لم ينقصه الرجال . وليس إلى الشك سبيل فى أن أيام صعود الدولة كانت قد ولّت مع أمس الدابر ، ولم يكن فى استطاعة آل كومنين أن يعيدوا إليها عزّها الفابر : فقد كان الترك قد وصلوا إلى ايقونيوم (اسكى شهر) ولم يتراجعوا عن هذا الحد بعد ذلك أبداً . وكانت شعوب الصقالبة فى نواحي

البلقان تتجمع دُولات كل منها شبه مستقلة ، وكانت تشد أزرها في ذلك السبيل الدولة المجرية الناهضة . وعلى الرغم من ذلك كله فقد استطاع آل كومنين أن يخلقوا للدولة لوناً أخيراً من العظمة . وفي خلال غياهب العصور التالية كانت ذكريات آل كومنين تطوف بأذهان شعوب الدولة ضمن ما كان يطوف بها من ذكريات الأعصر السعيدة الزاهية .

ففي خلال هذا العصر أقامت جيوش الدولة البيزنطية مرة أخرى على كل الحدود نشيطة ، ومظفرة في بعض الأحيان ، صامدة أمام نورمان إيطاليا الذين كان الجشع يتراعى بآمالهم نحو الشرق واستطاعت ردّهم على أعقابهم ؛ وثبتت جيوش الدولة كذلك للأتراك وأوقفتهم عند حدهم ، وأعادت ميزان الأمور إلى نصابه . وصمدت كذلك للأصرب والمجر ، وتمكنت من استعادة هيبتها في الغرب فثبتت لمعوك النورمان في صقلية والأباطرة الألمان . وأخذت ديبلوماسية الأباطرة تمد أحابيلها الماهرة المرنة ومؤامراتها المدبرة في كل ناحية من نواحي العالم في ذلك الزمان من إيقونيوم (اسكى شهر) إلى البندقية والمجر وألمانيا وفرنسا وإيطاليا والشام ؛ وارتفع شأن بيزنطة في عالم القرن الثانى عشر حتى أصبحت مركزاً من المراكز الهامة للسياسة

المسيحية . وصاحب ذلك الصعود في عالم السياسة الخارجية قيام الدولة بعمل جليل في الداخل كانت نتيجته إعادة تنظيم الإدارة والمجتمع . وبدا هذا المجتمع البيزنطي في القرن الثاني عشر مهذباً ومصقولاً مشغولاً بشؤون الفكر ، مفتوناً بطرف الفن . وكانت القسطنطينية ، عاصمة هذا المجتمع ، لا يُضَارَعُها في فخامتها ولا في غناها بلد آخر . ولقد حدثنا عنها مَنْ زارها من الرخالة أحاديث عجيبة ، وظلوا بعد ذلك يحملون لها في نفوسهم ذكريات باهرة . ومن أمثلة هؤلاء اودون الدوي *Eudes de Deuil* و بنيامين التطيلي *Benjamin de Tudela* و روبرت الكلاري *Robert de Clari* و فيلهاردوان *Villehardouin* . وكان ذلك الرخاء العظيم الذي تمتعت به الدولة وبالأعلى عليها آخر الأمر ، لأنه أثار مطامع الناس فيها ، وانتهت تلك المطامع بضياعها .

وفي خلال ذلك القرن الكومنيني حدث حادث بارز جعل له طابعاً مميزاً ، ذلك هو عودة بيزنطة الشرقية إلى الاتصال المباشر بالغرب في أيام الحروب الصليبية . وإذا نظر الإنسان إلى الحروب الصليبية من وجهة نظر الإمبراطورية الإغريقية لا يسهه إلا أن يتبين أن هذا المجهود العظيم الذي بذلته المسيحية لتخليص قبر المسيح المقدس إنما كان ثمره على الدولة أكثر من خيره ؛

فهذه الحروب قاربت بين عالمين عاجزين عن التفاهم ، فكانت النتيجة أن زادت في حدة الضغائن وأسباب الكراهية بينهما ، وأطلعت كذلك أهل الغرب — والبندقين منهم خاصة — على غنى الدولة والميادين التجارية الفسيحة التي تضمها ، فأثارت بذلك نيران الطمع البالغ في نفوسهم . واضطرت هذه الحروب أهل الدولة البيزنطية إلى أن يأخذوا حذرهم من ضيوفهم المعادين لهم والذين لم يكن يُطمأن إلى جانبهم ^(١) . ونتج عن هذا أن انصرف أباطرة الدولة البيزنطية عن سياستهم الطبيعية ، فكان ذلك من أسباب ضعفهم أمام الأتراك . وكذلك كانت تلك الحروب سبباً في توريط الدولة في مشاكل الغرب ، فاستيقظت في نفوس أهلها المطامع القديمة ، فأبعدها ذلك عن سبيل الرشاد المعقول . ثم إن مطامع التوسع ، التي شغلت مانويل كومنين ، أثارت مخاوف اللاتين وأضعفت الدولة في نفس الوقت . فكان ضعفها وثوراؤها في الوقت نفسه سبباً كافياً لإثارة مطامع اللاتين فيها . وتكفلت السياسة القصيرة النظر ، التي جرت عليها الدولة ،

(١) فكر جود فروا در بويون ولويس السابع وفرديريك ذو اللحية الحمراء (بربروسا) كل بدوره في أن يستولى على القسطنطينية بالقوة .
(المؤلف)

يا كال الباقي ، إذ أن بيزنطة مازالت تثير مخاوف الغرب وتُكابرهُ
حتى أجتجت نيران الكراهية في قلوب أهله .

وعادت الإمبراطورية في أيام مانويل كومنين تسترسل مع
المطامع الواسعة كما فعلت في أيام جستنيان ، وكانت التصفية في
هذه المرة أيضاً عسيرة قاصمة . وبينما كانت القوميات البلقانية
كالصرب والبلغار آخذة بسبيل الهوض والتكوُّن أخذت عداوة
اللاتين تزداد كل يوم خطورة وتعرّضت الدولة لخطرَيْن
شديدين هما مطامع البابوية وجشع أهل البندقية . أما في الداخل
فقد ضربت الفوضى بجرانها : خلف آل كومنين أباطرة الأسرة
الإنجيلية الضعفاء . وأخذ عقد الدولة ينفرد تحت حكمهم في نهاية
القرن الثاني عشر . وكانت نتيجة ذلك كله ضياع أمرها جملةً ؛
وكان ذلك في أوان الحملة الصليبية الرابعة التي بارحت بلادها
لكي تخلص بيت المقدس وانتهت بالاستيلاء على القسطنطينية
وذلك بسبب سياسة البنادقة تؤيدها البابوية ، مما انتهى بالقضاء
على الإمبراطورية اليونانية وإقامة أحد أكناد بلاد فلاندر على
عرش آل كومنين بين إعجاب المسيحيين جميعاً .

الإمبراطورية في عصر آل بابولويوس (١٢٦١ - ١٤٥٣) : كانت الكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية في سنة ١٢٠٤ ضربة قاصمة لم ترفع رأسها بعدما أبدأ . صحيح أن الإمبراطورية اللاتينية التي قامت في القسطنطينية كانت قصيرة العمر ، وأن الإغريق استطاعوا منذ سنة ١٢٦١ أن يعودوا إلى عاصمتهم ، ولكن بقي في الشرق بعد ذلك عدد كبير من الدويلات اللاتينية ، وكان البنادقة والجنويون يتصرفون في هذه الدويلات تصرف صاحب الأمر ، ولم تسكن مطامع الغرب في بيزنطة .

ومن المؤكد أيضاً أن الكارثة التي حلت بالدولة في سنة ١٢٠٤ أيقظت في نفوس أهلها العاطفة الوطنية إيقاظاً عابراً ، وكان أشهر ممثلي هذه اليقظة هم أباطرة نيقية (١٢٠٤ - ١٢٦١) . بيد أن أسرة بابولويوس تولت عرش الدولة طوال قرنين من الزمان (١٢٦١ - ١٤٥٣) . وكانت مساحة الإمبراطورية التي تربعوا على عرشها قد انكمشت انكماشاً ظاهراً ، وكانت مالياتها قد نضبت . وكلما مرّ الزمن كلما زاد هذا الانكماش وهذا

النضوب . وكانت دول ناشئة قد قامت إلى جانب الدولة تنافسها وتهدها : كتلك الدول البلقانية المسيحية التي اشتد شعورها بنفسها ، ونهضت تنافس الإمبراطورية البيزنطية في السيادة على البلقان : ففي القرن الثالث عشر قامت الإمبراطورية البلغارية الثانية ، وفي الرابع عشر نهضت الصرب بقيادة سقيفانوس دوشان ، واشتد ساعد الأتراك بعد أن سادوا آسيا الصغرى كلها ، وجعلوا عاصمتهم في بروسة التي تكاد تكون على أبواب القسطنطينية ، ولم يلبثوا أن نقلوا عاصمتهم إلى أدرنة في أوروبا حوالى منتصف القرن الرابع عشر ؛ ولم يعد ينفع الدولة أو ينقذها من مصيرها المحتوم أن يوجد فيها رجال من طراز ممتاز مثل يوحنا كاتاكوزينوس أو مانويل باليولوجوس الذى قيل فيه « إنه كان يستطيع إنقاذ الدولة لو أنه عاش فى زمان أحسن ولو أن إنقاذ الدولة كان ممكناً » ولكنه أصبح مستحيلا .

فلنلق الآن نظرة على أحوال الدولة خلال هذه الحقبة الأخيرة : رزحت بيزنطة تحت ثقل المتاعب المالية التي زادها « اللاتين » شدة بسبب استغلالهم لها استغلالا خسيساً . واجتاحت الدولة الحصومات الداخلية ، وأخذ أهلها يستغيثون بالأجنبي من غير خجل ، حتى لقد استغاثوا بالصرب والترك ؛

وأضعفتها كذلك منازعات الطبقات ، فتخاصم الفقراء والأغنياء
والنبلاء والسوقة ، وظهرت حدة هذه الخصومات بصورة غريبة
محزنة دامية في تاريخ ولاية سالونيك خلال القرن الرابع عشر .
واشتدت كذلك المنازعات الدينية التي ثارت ضد الأباطرة
السياسيين الذين أرادوا أن يكسبوا تأييد البابوية بالمفاوضة في
مسألة توحيد الكنيستين . فتارت ضدهم العاطفة القومية
الإغريقية . واستنفدت هذه الخصومات المحزنة كل ما بقى في كيان
الدولة من نشاط . وهكذا عدمت بيزنطة جيشها ومالها وشعورها
الوطني ، وأخذت مساحتها تنكش يوما بعد يوم ، واشتد الحصار
الأرضي حول القسطنطينية فلم تعد تستطيع الاتصال ببقايا دولتها
إلا عن طريق البحر . وبعد قليل ستصبح القسطنطينية لحسب
هي الإمبراطورية كلها . وهنا لم يعد عن السقوط النهائي .
ومع ذلك فإن حيوية تلك الحضارة كانت من القوة بحيث
ظهرت عليها مخايل نهضة أدبية فنية أضاءت عصر آل باليولوجوس
المحتضر بشعاع مجيد من النور . فقد كانت مدارس القسطنطينية
زاهرة ما تزال ، وكان فيها فلاسفة وخطباء ونحويون على جانب
عظيم من الاقتدار ؛ وإذا تأمل الإنسان أعمالهم بدا له وكأنها
إرهاص بأعمال المفكرين الإنسانيين الذين سيظهرون في عصر

النهضة . وظهر كتاب ذوو قدر ومؤرخون وأخلاقيون وشعراء ومؤلفون وعلماء قدّموا إلى العلم خدمات لا تقل عما قدّمه له فيلسوف مثل روجر بيكون في الغرب . ودبت الحياة من جديد في كيان الفن البيزنطى حينما عاد الاتصال ، أو بالأحرى المنافسة ، مع إيطاليا فأصبح فنا حيا جميلا تشوبه العاطفة وروح الحزن ، ويبدو ساحراً بين الحين والحين . وكانت المراكز الهامة لتلك النهضة في طرابزون ومسترا وآثوس ، فضلاً عن القسطنطينية . وعن طريق هذه المراكز كان سلطان بيزنطة ينتشر في نواحي العالم الشرقى كلها ، بين الصرب والروس وأهل رومانيا .

وفي التاسع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣ وقعت القسطنطينية في يد الأتراك ، وسقط آخر الأباطرة البيزنطية سقوطاً الأبطال وسيفه في يده وهو يحاول إيقاف الأعداء المندفعين من ثغرات السور . ولكن ، أليس مما يستوقف النظر أن نشهد في عشية هذا السقوط الحضارة الهلينية تتجمع لكي تلقى على العالم شعاعاً أخيراً يضم كل نشاطها الفكرى ، كأنما أرادت أن تعيد بذلك إلى الأذهان ذكرى مجدها الزاهب ، أو كأنها أرادت أن ترمز بذلك إلى ما سيحدث في المستقبل وتبشر به ؟ وإنه لمن الغريب أن نلاحظ كيف ظهرت فجأة إلى الوجود مرة أخرى

في بيزنطة المحتضرة الأسماء اليونانية الجالية القديمة مثل بركليس
وتمستوكليس وإبامُنُداس ، وكيف أخذ الناس يستعيدون
ذكريات أجدادهم العظام الذين أنفقوا حياتهم فيما خلا من
الأعصر « في سبيل الناس وفي سبيل الوطن » ، وإنه لمن الفريد
في بابه أيضاً ومما لا يخلو من مغزى أن نجد كبراء ذلك العصر
يطلبون إلى الإمبراطور أن يترك لقبه التقليدى القديم وهو
« بازيليوس الرومان » ، ويستبدل به لقب « ملك الهلانيين » ،
الذى يكفى وحده لضمان سلام الهلنيين الأحرار وتخليص إخوتهم
الذين أراد لهم القدر مصير العبيد : خيالات ربما بدت لنا غير
ذات معنى في لحظة كان محمد الفاتح فيها على الأبواب ، واسكنها
لا بد وأن تستوقف نظرنا لأنها إنما كانت بقضة الوعى الهليني
الذى كان يأبى الموت ، وكان يمهّد السبيل بصورة غامضة لمستقبل
أحسن في نفس اللحظة التى وقعت الكارثة فيها .

ذلك في إيجاز هو تطور التاريخ البيزنطى منذ تأسيس
القسطنطينية في سنة ٣٣٠م إلى سقوطها في سنة ١٤٥٣م . وكمن
فترة مجيدة عبرت بهذه الدولة بين هذين التاريخين ، خلال هذه
القرون الأحد عشر ! ففي القرن السادس في أيام جستنيان عادت

الدولة الرومانية إلى الوجود للمرة الأخيرة ، وأصبح البحر الأبيض بحيرة رومانية من جديد . وفي القرن الثامن استطاع الإيسوريون أن يكسروا حدة الإسلام وينظموا الحكومة المطلقة على أساس جديد . وفي القرن العاشر استطاع أباطرة الدولة المقدونية أن يجعلوا بيزنطة الدولة الكبرى في الشرق . وفي القرن الثاني عشر بدت الإمبراطورية البيزنطية في ظلال آل كومنين ذات شخصية متألفة في العالم الأوربي ؛ ومن ثم فليس من الصواب أن نقصر حديثنا ، عندما نتكلم عن بيزنطة ، على الانهيار ، بل لابد أن نضمه أخبار الصعود كذلك . بل إن البحث عن أسباب هذه العظمة يستحق من عنايتنا أكثر مما نوقفه عادةً على دراسة أسباب الاضمحلال . ولا ينبغي ، قبل كل شيء ، أن ننسى الخدمات التي أدتها هذه الحضارة التي كانت أزهر ما في أوروبا طوال العصور الوسطى . وينبغي أن نقدر الدين الذي يدين به الشرق والغرب لبيزنطة ، وينبغي كذلك أن نتعرف ذلك التراث الذي خلفته لنا بيزنطة ولا زال قائماً إلى اليوم .

ملحق ٢

بيزنطة والإسلام

Byzantium and Islam

وهو الفصل الحادى عشر من كتاب

BYZANTIUM,

An Introduction to East Roman Civilization

Edited by

NORMAN H. BAYNES *and* H. St. L. B. MOSS

ص ٣٠٨ — ٣٢٥

الإسلام وبيزنطة

كانت الدولة البيزنطية والإسلام خلال قرون كثيرة على اتصال وثيق فيما يتعلق بتاريخهما الخارجى والداخلى . وكان العرب منذ القرن السابع حتى منتصف القرن الحادى عشر يمثلون الإسلام ، ومنذ منتصف القرن الحادى عشر حتى سقوط بيزنطة فى سنة ١٤٥٢ م أصبح يمثلها الأتراك : السلاجقة منهم أولاً ثم تلاهم العثمانيون .

ولم تكد تمضى سنوات قليلة على ظهور الإسلام فى قلب الجزيرة العربية حوالى سنة ٦٢٢ م ، وعلى وفاة محمد (ص) فى سنة ٦٣٢ م / ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ حتى استولى العرب على حصن بصرى (بُثْرَا Bothra) البيزنطى فيما وراء الأردن ؛ وكان استيلاء العرب على ذلك الحصن « حادثاً تافهاً لو لم يكن مقدمة لثورة عظيمة ^(١) » . وكانت انتصارات العرب الحربية تبعث على الدهشة : ففي سنة ٦٣٥ م / ١٤ هـ سقطت دمشق ، وفى سنة ٦٣٧ أو ٦٣٨ / أواخر سنة ١٥ هـ أو سنة ١٦ هـ

(١) انظر GIBBON, *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, Chap. XIV, ed. J.B. Bury, Vol. I. (London, 1898) p. 95. (المؤلف)



فأند بيزنطلي يتفاوض مع العرب

سَلَّمَت بيت المقدس ، وأصبحت فلسطين ولاية عربية ؛ وفي
الوقت ذاته فُتحت دولة الفرس ؛ وفي سنة ٦٤١ أو ٦٤٢ م / ٥٢٠ هـ
استولى العرب على الاسكندرية . وبعد ذلك بسنوات قليلة
اضطرت الإمبراطورية البيزنطية إلى التخلي عن مصر للأبد .
وقد تلا فتح مصر تقدّم العرب إلى أبعد من ذلك على سواحل
شمال إفريقيا ، وباختصار : لم تحلّ سنة ٦٥٠ م / ٥٢٩ هـ حتى
كانت سوريا وتقسيم الشرق من آسيا الصغرى والمراق وفلسطين
ومصر وجزء من الولايات البيزنطية في شمال إفريقيا قد دخلت
تحت الحكم العربي . في نهاية القرن السابع فتح العرب شمال
إفريقية كله ، وبدأوا عند مطلع القرن الثامن فتحهم لما يشبه
الجزيرة الأيبيرية .

وهكذا أصبح العرب مُهيمنين على سواحل طويلة تتطلب
الحماية من عدوان السفن البيزنطية . ولم يكن للعرب أسطول ،
ولم يكن لهم كذلك أي خبرة بالشؤون البحرية . ولكن أهل
الشام من السوريين الإغريق ، الذين كان العرب قد فتحوا
بلادهم إذ ذاك ، كانوا متمرسين في الشؤون البحرية ، ولعبوا
دوراً في غاية الأهمية في التجارة البيزنطية . ولهذا السبب شحّن
العرب صفينهم الحربية الأولى ببخّارة من أهل الولايات البيزنطية

التي افتتحوها . ومنذ منتصف القرن السابع كانت سفن العرب قد احتلت جزيرة قبرص ، وكانت هذه محطةً بحرية هامة ؛ ثم هزموا الأسطول البيزنطى ، ووصلوا إلى كريت وصقلية وعبروا البحر الإيجهى والدردنيل . وبعد سنة ٦٧٠ م / ٥٥٠ هـ^(١) بوقت قصير ظهروا أمام القسطنطينية . وعلى أى حال فقد فشلت جميع محاولات الأسطول العربى للاستيلاء على المدينة ، واضطر العرب إلى الارتداد عنها فى سنة ٦٧٧ م^(٢)

(١) راجع ابن الأثير ج ٣ ص ٢٢٧ .

(٢) بعد أن حاصر العرب القسطنطينية حصارهم الأول فى سنة ٥٥٠ هـ بقيادة سفیان بن ذوف وأبى أيوب الأنصارى ارتدوا عنها من غير توفيق وعسكروا فى ميناء كيزيكوس *Cyzicos* واتخذوه مركزاً لأعمالهم الحربية ضد القسطنطينية مدى السنوات السبع التالية . وإلى ذلك يشير ابن الأثير فى قوله فى حوادث سنة ٥٥٤ هـ : « فيها كان مشى محمد بن مالك بأرض الروم وصائفة معن بن يزيد السلمى ، وفيها فتح المسلمون ومقدمهم جنادة بن أبى أمية جزيرة أرواد قريب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين ، وكان معهم مجاهد بن جبر . فلما مات معاوية وولى ابنه يزيد أمرهم بالعود فعادوا » (الكامل ج ٣ ص ٢٤٦) مما يُفهم منه أن المراد بأرواد هو جزيرة كزيكوس . وقد فصل فازلييف ما أجمله فى هذه العبارة التى وردت فى النص فى تاريخه الكبير للدولة البيزنطية فذكر أن العرب بعد أن فشلوا فى الاستيلاء على القسطنطينية سنة ٦٧٠ م فى عهد قنسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥) بسبب استعمال الروم للنار الإغريقية التى اخترعها لاذك رجل سورى يسمى جالينيكوس ، ظلوا يترددون على القسطنطينية كل عام حتى سنة ٦٧٧ م ؛ =

ولا شك في أن تدمير أهل سوريا ومصر كان من الأسباب الرئيسية في الانتصارات العربية العسكرية التي تبعث على الدهشة . وكان هذا التدمير ذا طابع ديني ، لأن الإمبراطورية البيزنطية اعتبرت المذهب المونوفيزي ، الذي كان سواد أهل هذه الولايات يتبعونه ، خروجاً على القانون . وربما كان أثر المذهبين النسطوري والمونوفيزي على الإسلام في أيامه الأولى أقوى بكثير مما يُظن عادة : فقد نظر علماء اللاهوت البيزنطيون إلى الإسلام في بادئ الأمر على أنه فرع من الآريوسية ، ووضعوه في نفس المستوى مع المذاهب المسيحية الأخرى . وفي القرن الثامن نظر يوحنا الدمشقي ، الذي عاش في البلاط الإسلامي ، إلى الإسلام على أنه ليس إلا ضرباً من ضروب الانشقاق عن العقيدة المسيحية الحقة ، وهو من هذه الناحية يشبه الهرطقات الأخرى التي سبقت ظهوره . وقد بين « ف. و. بـكـلر » أخيراً أن نطاق سلطة البطريكية

= وقد منى الأسطول العربي بكارثة كبيرة ، إذ هبت عليه عاصفة عنيفة فتعطلت معظم سفنه على الشاطئ* الشمالي لآسيا الصغرى . وفي نفس الوقت فشلت كل المحاولات البرية التي قام بها العرب إذ ذاك ، فاضطر الخليفة إلى استرجاع جنده ، وعقد معاهدة مع الدولة البيزنطية تمهدت الدولة بمقتضاها بأن تدفع له ضريبة سنوية .

انظر : VASILIEV : *Hist. de l'Empire Byzantin*, I. pp. :

النسطورية ، التي تأسست في بابل (بغداد فيما بعد) في سنة ٤٩٩م ،
كان يشمل الإمبراطورية الساسانية والهند والصين والجزيرة
العربية ، وكان يشمل مصر من حين لآخر ، وقال : « وبعد
أن فشل نسطوريوس في إحياء مذهبه في البلاد الداخلة تحت
سلطان الكنيسة المسيحية لم تبق له مندوحة عن أن يحاول
إحياءه في بلاد الإسلام » . ويقول في موضع آخر : « ويرجع
الفصل إلى عبقرية محمد في عودة مذهب نسطوريوس إلى
رحاب الدين ^(١) » ومن ناحية أخرى عتق الأستاذ جريجوار
Grégoire أهمية خاصة على التقارب بين الإسلام والمونوفيزية .
وعندما تصدى لشرح قول بيرين Pirenne « إن محمداً هو الذي
صنع شرلمان » — وهي قالة شديدة الوقع ولا زالت موضع
مناقشة — قرّر أن يوتيخيوس (أوطيخا) ، أحد مؤسسي المذهب
المونوفيزي ، صنع محمداً ^(٢) . وقد أصبحت المسيحية البيزنطية

F.W. Buckler, "Barbarian and Greek-and Church (١)
History", Church History, Vol. XI (1942), p. 17 ; "Regnum
et Ecclesia", *ibid.*, Vol. III (1934), p. 58. (المؤلف)

(٢) هذه الآراء التي يتناقضها ديل وفازلييف وهـ . جريجوار وهنري
بيرين كلها افتراضات لا تقوم على أساس صحيح من المعرفة بالإسلام والتوحيد
وأصولها . وقد ذهب كارل هاينريخ بكر إلى أبعد من ذلك في مقاله عن
النصرانية والإسلام ، ورد خير ما في العقيدة الإسلامية إلى مذاهب =

في صورتها المونوفيزية أحد أسس الإسلام الرئيسية^(١).

ولقد وجد العرب في الولايات التي افتتحوها أنظمة إدارية قائمة . ولم يحملوا معهم حينما أقبلوا من صحرائهم إلى هذه الولايات

= نصرانية خارجة عن الكنيسة ، ومن هذا الخراز أيضا ما ذكره مرجوليت عند ما أراد تحقيق لفظ « حنيف » ، إذ ذهب إلى أن حنيف وصف لأتباع مذهب مسيحي منشق عن الكنيسة . وقد غلب عن هؤلاء جميعا أن التوحيد مذهب قديم وجد قبل النصرانية بزمان بعيد . والروايات الإسلامية صريحة في أن التوحيد الإسلامي إنما يرجع إلى عقيدة إبراهيم عليه السلام . ولا نزاع عند مؤرخي العقيدة الإسلامية ، الذين يعرفونها حق المعرفة ، في أن التوحيد الذي أتى به الإسلام إنما هو توحيد إبراهيم غير متأثر بأى مؤثرات مسيحية . ومن المعروف أن العقيدة الإسلامية لم تتغير أى تغير بعد وفاة محمد ، ومن ثم فلا معنى للقول بتأثيرات مسيحية جدت عليها تحت تأثير اتصالها بالمسيحية فيما بعد ، بل العكس هو الصحيح . ومن الواضح أن عقيدة الدولة البيزنطية قد تأثرت بالإسلام تأثرا كبيرا في مسائل كثيرة كتنعيم وضع الصور في الكنائس وما إلى ذلك .

أما عبارة المؤرخ هنرى بيرين المشار إليها في النص فهي عبارة فريدة تجدها مفصلة تفصيلا طويلا في كتابه عن « محمد وشرلمان » الذي قرر فيه عددا من النظريات الخاصة بسيادة الإسلام على حوض البحر الأبيض المتوسط وأثره في التوجيه التاريخي للدولة البيزنطية وللدول الجرمانية التي قامت في غرب أوروبا بين القرنين السابع والعاشر . وقد أثارت آراؤه كلها موجة من المعارضة من مؤرخي العصور الوسطى ، ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يدحضها بشكل بات .

H. Grégoire, "Mahomet et le Monophysisme", (١)
Mélanges Charles Diehl, Vol. I (Paris, 1930), pp. 107—19.

شيئا من هذا القبيل ، ولهذا اقتبسوا الأنظمة البيزنطية ، ومن هنا سارت الأنظمة الإدارية للخلافة الأولى على نهج الأساليب والأنظمة التي ورثت معظمها من بيزنطة وبعضها الآخر عن دولة الفرس الساسانيين .

وكانت الولايات البيزنطية والفارسية التي دخلت في حوزة العرب على اتصال وثيق بالثقافة الهلينستية . ودخلت في رحاب الدولة العربية المراكز الثقافية الزاهرة مثل انطاكية في الشام ، وقيصرية وغزة في فلسطين ، ثم الإسكندرية بوجه خاص ، وصارت — بكتابها ومدارسها ومتاحفها وبيئتها العامة المشبعة بالحياة الفكرية القوية والتقاليد الهلينستية القديمة — جزءاً من الدولة الإسلامية . وحينما اتصل العرب بثقافة متينة الأسس من هذا الطراز وقموا بالطبيعة تحت تأثير هذه الحضارات القديمة ، إذ لم تكن لهم ثقافة خاصة بهم . وكان ذلك حافزاً قوياً أعان على تقدمهم الحضارى . وعن طريق الحضارة الهلينية — التي كانت قائمة في الولايات البيزنطية التي افتتحوها — عرفوا آثار القدماء في ميدان العلم والفن ، ودخلوا في عداد الأمم ذات الثقافات الموروثة .

وكان فتح القسطنطينية هدف السياسة العربية النهائى خلال النصف الأول من القرن الثامن بصورة أوضح . وفي سنة ٧١٧م

اعتقلت عرش بيزنطة الأسيرة الإيسورية الفتية ، ووجد أول أباطرتها ، وهو إيو الثالث ، نفسه في موقف من أخرج ماعرفته الدولة البيزنطية في تاريخها : ذلك أن جيوش العرب أوغلت في آسيا الصغرى ووصلت إلى أسوار العاصمة ، بينما حاصرها في البحر أسطول عربي قوى . وفي سنة ٧١٨م انتهت هذه المحاولة الجريئة بالفشل التام . وبعد تلك الهزيمة لم يعد العرب إلى مهاجمة المدينة « التي يحرسها الله » ، ولكن فكرة الاستيلاء على القسطنطينية بقيت ماثلة : ففي سنة ٨٣٨م كان الخليفة المعتصم ، بعد انتصاراته العسكرية في آسيا الصغرى ، يحلم بالزحف على القسطنطينية .

وقبل ظهور الأتراك السلاجقة وتوطيد أقدامهم في آسيا الصغرى في القرن الحادي عشر [أنطامس الهجري] كانت الحروب تكاد تكون دائمة متصلة بين البيزنطيين والعرب . وتذكر المصادر العربية ، في كل سنة تقريبا ، حملات حربية كانت على الأغلب سرايا لا غرض لها إلا الفوز بالغنائم ، وكان يصاحبها تبادل الأسرى [الذي يعرف في الروايات الإسلامية بالأفدية ومفردتها فداء] . وكان التوفيق يحنون بيزنطة في بعض الأحيان ، فقد اضطرت الإمبراطورية مثلاً قبيل نهاية القرن الثامن ، حسب شروط الصلح ، إلى أن تدفع للعرب مبلغا كبيرا من المال « كان

على الإمبراطورة إيريني أن تؤديه في شهرى إبريل وأبريل من كل عام^(١) . وكان هذا الاتفاق هو السبب في نشوء تلك الفكرة الخاطئة التي تقول إن الخليفة الذائع الصيت هرون الرشيد كان في سنة ٨٠١ م سيد الإمبراطورية الرومانية^(٢) . وربما كان الخليفة سبب هذا الأمر جزية . ولكن ما ذكره بالخليفة للإمبراطور إلا استغلالاً حكيمياً للمال ، إذ أنه لم يكن يريد أن يتوقف عن الدفع كلما حصل . نفسه الفكرة على أن يقول^(٣) : «

(١) تفررت الجزية على الروم بعد غزو الرشيد لآسيا الصغرى في سنة ١٨١ هـ واستمرت تدفع حتى سنة ١٨٧ هـ حينما نفس تقفوز ، الذى خلف الإمبراطورة إيريني في سنة ١٨٧ هـ ، المعاهدة القائمة بين الروم والمسلمين وتحدد تفاصيل ذلك عند ابن الأثير (ج ٥ ص ١٨٤) .

(٢) على هذا النحو فسرف . و . بكار المعاهدة التى تم الاتفاق عليها بين هرون الرشيد وإيريني فى كتابه « هرون الرشيد وشرلمان » (كمبردج ، مساشوسيتس ، ١٩٣١) ص ٣٦ .

F. W. Buckler, Harun'î — Rashid and Charles the Great (Cambridge, Massachusetts, 1931), p. 36.

(المؤلف)

S. RUNCIMAN : Byzantine Civilization (London, (٣) 1933) p. 162. (المؤلف)

واليك نص رونسمان الذى يشير إليه المؤلف : « وحتى فى بعض أوقات التى لم تكن بيزنطة فيها تريد القيام بإحدى الحروب ، اسبب ما ، كانت ترسل مبلغاً سنوياً من المال إلى بغداد أو برسلانو . وربما كان الخليفة أو القيصر يعتبر هذا المبلغ جزية إذا أراد ، ولكنه لم يكن فى الواقع إلا مجرد استثمار حكيم له » .

وفي ميدان البحر الأبيض المتوسط دخلت قبرص تحت سلطان العرب في القرن السابع ، وكذلك إفريطش وصقلية في القرن التاسع ، واستولى العرب كذلك على بعض المدن في جنوب إيطاليا . وعندما فتح العرب المغرب فرَّ كثير من الإغريق الذين كانوا فيه إلى صقلية ، ثم غادروها إلى جنوب إيطاليا حينما غزا العرب صقلية شيئا فشيئا ، فزادت بذلك أعداد المنصر الهلنكي بين سكان جنوب إيطاليا . ويؤكد بعض العلماء أن البحر الأبيض المتوسط أصبح بحيرة إسلامية . وهذا قول لا يخلو من مبالغة .

ويبدو للعتا مل لأول وهلة أن مصالح هذين العدوين اللذين فرقت بينهما السياسة والدين لم يكن من الممكن أن تتلقى إلا أن الأمر لم يكن في الواقع كذلك . فإن الأعمال الحربية لم تحل دون قيام العلاقات الثقافية . وقد حففت هذه الفترة بسلسلة متتالية من أعمال الحرب والسلم والتخريب والإبادة والعداوة والصداقة . لم يكن هناك حقد عاصي ، إنما كان الإمبراطور ثقفور الأول (٤٠٧ - ٤٥٦ م) كان ، كما نقول المصادر الشرقية ، من أصل عربي^(١) وربما كان من أهل

(١) والمراجع العربية بدورها ترد هذا القول إلى الروم : فيقول ابن الأثير في حوادث سنة ١٨٧ هـ : « وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها ريفي ، فخلعتها الروم وملكث ثقفور ، وتزعم الروم أنه من أولاد جفنة ابن غسان » (السكامل : ابن الأثير ج ٥ ص ١١٨) .

شمال العراق . وفي عهد ايو الثالث بُنى جامع في القسطنطينية ،
ومن هنا وصَفَ أحد أصحاب المدونات الإغريقية هذا الإمبراطور
بأنه كان « ذا عقلية عربية » . وكتب بطريق القسطنطينية
نيقولا ميستيكس *Nicholas Mysticus* في النصف الأول من
القرن العاشر إلى أمير إقريطش يخاطبه بقوله : « إلى الأمير
الأشهر الأشرف الأذنى إلى المحبة » ثم مضى يقول : « إن
دولتي العرب والروم ظاهرتان على العالم كله ، وهما تمتازان
وتتألفان كالشمس والقمر في القبة الزرقاء . ولهذا وحده لامندوحة
لنا عن أن نعيش معاً كإخوة بالرغم من اختلافنا في الطبائع
والعادات والدين » .

ولما كانت العلاقات السياسية مع العرب في الشرق والغرب
أمراً أساسياً بالنسبة لبيزنطة ، فقد كانت مراسم استقبال
السفارات العربية ، التي كانت توفد إلى القسطنطينية في فترات
الصلح ، تجري على أسلوب دقيق محكم . وكانت بيزنطة تستقبل
السفراء وترحب بهم بكل مظاهر الاحتفال الباهرة في البلاط
والجملات الدبلوماسية وعرض القوات العسكرية إظهاراً
للقوة . وقد حفظت لنا الكتب التي صُنفت تحت إشراف
قسطنطين بورفيروجينيتوس في القرن العاشر في موضوع « مراسم

البلاط البيزنطى [*De Ceremoniis*] أوصافاً للاستقبال
الودى البالغ الذى كان البيزنطيون يستقبلون به سفراء بغداد
والقاهرة . وكان « الأصدقاء » العرب يحتلون على المائدة
الإمبراطورية مقاعد أعلى من مقاعد « الأصدقاء » الفرنجيين .
وكان عرب المشرق يجلسون فى أمكنة أشرف من أما كن عرب
المغرب . ثم إن سفراء الروم حينما كانوا يفدون على بغداد — كما
حدث مثلاً فى سنة ٩١٧ م — كان الخليفة يستقبلهم استقبالا
رسميا فى أبهة شرقية بالغة ، ويقم عرضاً عسكرياً شاملاً . وفى
سنة ٩٤٧ — ٩٤٨ م ظهر سفراء الإمبراطور قسطنطين
بورفيروجينيتوس فى بلاط الخليفة الأندلسى الذائع الصيت ،
عبد الرحمن الناصر ، واستقبلوا بترحيب باهر . وكان بين الهدايا
التي قدمها السفراء البيزنطيون إلى الخليفة باسم إمبراطورهم مخطوط
إغريقى جميل يحتوى على مؤلف طبي ونسخة لاتينية من تاريخ
أوروسىوس ^(١) *Orosius* ؛ ولما لم يجد الخليفة بين المسيحيين فى

(١) راجع وصف سفارة قسطنطين بورفيروجينيتوس فى نفع الطيب
المقرى (ج ١ ص ٢٣٦ وما بعدها طبعة أوروبا) وابن خلدون ، المبر
(طبعة بولاق ، ج ٤ ص ١٤٢ — ١٤٣) . وقد وجدنا فى وصف ابن حيان
لهدية « صاحب القسطنطينية العظمى » ما يلى : « ودفنوا كتاب ملكهم
صاحب قسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون وهو فى رق مصبوغ لونا
سماويا مكتوبا بالذهب بالحط الإغريقى ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة —

إسبانيا من يعرف اليونانية فقد ظل المخطوط اليونانى فى مكتبته.
دون أن يُترجم .

وكانت معاهدات الصلح بين بيزنطة وجيرانها ، بما فيهم
العرب بالطبع ، تُعقد للأبد ، وكانوا يقولون فيها : « طالما تشع
الشمس ويظل العالم ثابتاً » أو : « طالما تشع الشمس ، وما بقى
الكون بعد ذلك وإلى الأبد » ؛ وقد بقيت المحسنات البديعية
الشرقية ^(١) مستعملة حتى فى القرن التاسع عشر . فقد جاءت

أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقى أيضاً فيها وصف هديته التى أرسل بها ،
وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه ثلاثة مثاقيل ... « المقرى » ، نفخ الطيب
ج ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ . وربما كانت هذه إشارة إلى مخطوط أوروبسيوس .
(١) إصرار المؤلف هنا على عبارات مثل « آلهة شرقية » و « محسنات
بديعية شرقية » لا يخلو من غمز غير لائق ، وهو هنا يتبع كافة المؤرخين
والمفكرين الأوربيين الذين يضيفون هذا الوصف إلى ~~مكتبة~~ الترف فى بلاد
الشرق ولا يريدون به إلا الخط من قيمة الشرق جملة . ولا بد من أن ننبه
أولاً إلى أن ما يذهب إليه هؤلاء المؤرخون من إسراف الشرقيين فى احترام
ملوكهم والخضوع لهم إنما هو ظاهرة يشترك فيها الشرق والغرب على السواء .
ومهما بلغت مظاهر التعظيم للوك الشرق فى القديم ، ومهما بلغت آبهتهم فهى
لا تبلغ مظاهر العظم والآبهه التى كانت تحيط بملوك فرنسا ، وهم غربيون .
هذا ولا نحب الإشارة إلى مظاهر الولاء المطلق والخضوع الأعمى الذى
كان يحيط بأباطرة الدول الرومانية المقدسة وهم غربيون . أما إشارته إلى
« المحسنات البديعية » ووصفها بالشرقية فغالبية لأن هذا الأسلوب كان
أسلوب الشرق والغرب على السواء فى الكتابة فى العصور الوسطى .
والموضوع كله يحتاج إلى رد معلول حاسم قائم على التدليل التاريخى حتى
تزول هذه الفكرة الخاطئة من أذهان الناس .

العبارة التالية في نص المعاهدة التي أبرمت بين إمارة مسقط (في الجزيرة العربية) وبين بريطانيا العظمى في سنة ١٨٠٠ م :
« إن صداقة الدولتين سوف تبقى دون أن تنزعزع حتى نهاية الزمن وحتى ينتهى القمر والشمس من سيرهما الدائرى » .

وفي معاهدة الصداقة والتجارة التي عقدت في سنة ١٨٣٣ م بين الولايات المتحدة الأمريكية وسيام نجد العبارة التالية :
« سوف يحافظ السياميون وأهل الولايات المتحدة الأمريكية بإخلاص على اتصالها التجارى فى موانئ أمتيهما المبحرتين طالما بقيت السماء والأرض » .

وقد ترتب على فتوح العرب فى القرن السابع والثامن والتاسع تغير لا يستهان به فى التجارة بين منطقة الشرق ووسط آسيا . وقد تقوضت دعائم الرخاء الإقتصادى الذى كانت تتمتع به الإمبراطورية الرومانية الأولى بسبب الفوضى الداخلية التى سادتها خلال القرن الثالث ، وبسبب هجرات البرابرة إلى الولايات الغربية فى القرنين الرابع والخامس . وقد كُتبت لتجارة الإمبراطورية الخارجية خلال القرن السادس على يد جستنيان ، وخاصة فى الشرق ، حياة جديدة . ولكن العرب وجهوا ضربة قاضية إلى نفوذ بينظرة الإقتصادى فى الشرق والجنوب ، وذلك باقتطاعهم من الإمبراطورية أغنى ولاياتها

وأكثرها انتعاشاً وأكثرها رقيّاً من الناحية الاقتصادية . وقد أصبح البحر الأبيض غير آمن للملاحة بسبب أعمال (القراصنة ^(١))

(١) قوله « قراصنة العرب » عبارة خاطئة ينبغي أن تصحح ، وقد وقع فيها معظم المؤرخين الأوروبيين عن قصد ، وإصرارهم عليها لا يخلو من روح التعصب . وتبدو لنا هذه الروح على أوضح صورها في المقال الذي كتبه كارل هاينريخ ريكس في تاريخ كبردج للصور الوسطى عن الفتوح الإسلامية ج ٢ . فقد ألقى هذا المؤرخ على أكتاف المسلمين تبعه كل أعمال القرصنة التي كانت تقع في البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، مع أن المعروف أن العرب لم يكونوا في يوم من الأيام قراصنة وإنما الذي حدث هو أن القرصان انتشروا في حوضي البحر الأبيض الشرقي والغربي عقب اضمحلال الدول الإسلامية وعجزها عن السيطرة على البحار من أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . وكانت جماعات القرصان تتكوّن من جنسيات مختلفة ، فكانت فيهم أعداد عظيمة من أهل إيطاليا والباقان وجنوب فرنسا والمغرب . وربما كان المغاربة أقل عدداً من غيرهم . ولكن البابوية جعلت القرصان كلهم عرباً أو مغاربة لكي تزيد في سخط الناس عليهم . ولا يتسع المجال هنا لإثبات براءة العرب والمغاربة من كثير مما ينسب إليهم من أعمال القرصنة ، ولكن يكفي أن يطلع الإنسان على المراجع التالية لكي يتبين الحقيقة التي نشير إليها هنا :
ابن جبير : الرحلة (طبعة رايت) .

Le Baron M. L. de Mas Latrie : Traité de Paix et de Commerce et documents divers concernant les Relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen âge. Paris 1866.

SIMONDI : Histoire des Républiques Italiennes. Lausanne 1940.

ولا بد على أي حال من دراسة هذه النقطة من وجهة نظرنا لإثبات خطأ هذه النظرية الشائعة .

العرب (الذين جعلوا مرا كزهم في جزيرة كريت إلى حد اضطر
التجار معه إلى ترك سفنهم والمجازفة بالقيام برحلات برية طويلة
لم تكن مأمونة الجانب ولا مريحة كل الراحة ، وذلك لكي
يفلتوا من « البربر الموريتانيين » ^(١) الذين نجد ذكرهم في « حياة
القديس جريجوار الديكابوليتي » ^(٢) .

وقد يُظن لأول وهلة أن كيان الشرق الأوسط الاقتصادي
كله قد انهدم ، وأن العلاقات التجارية مع الشرق قد انتهت .
ولكن الأمر لم يكن كذلك : فقد عاش في الجزيرة العربية قبل
ظهور محمد صلى الله عليه وسلم — عدا البدو الرحل — أقوام
مستقرون في المدن ، وقامت قرى ومنازل للقوافل على طول الطرق
التجارية ، ولا سيما ذلك الطريق الذي كان يسير من الجنوب إلى
الشمال ، من اليمن إلى فلسطين وسوريا وشبه جزيرة سيناء .
وكانت أغنى المدن الواقعة على هذا الطريق هي مكة (ما كورابا
في الكتابات القديمة) ، وكانت ذات شهرة قبل الإسلام بزمان

(١) يسميهم سانت جريجوار "Mavrosii" ولفظ Mavrosii محريف
للفظ Mauritanii نسبة إلى Mauritania التي تعرف في النصوص العربية
بمرطانية .

(٢) La Vie de Saint Grégoire Le Décapolite et les
Slaves Macédoniens au IX^e Siècle, ed. F. Dvornik (Paris,
1926), p. 53 (par. 9). (المؤلف)

طويل . وكان بين التجار العرب كثير من النصارى فى الجزيرة العربية . وقد بلغ من انصراف اهل مكة إلى شؤونهم التجارية أن وصفهم أحد العلماء بقوله إن مكة « اكتسبت طابعاً مادياً ، وتركزت السلطة فيها فى يد جماعة متعطرسة ^(١) » وبعبارة أخرى كانت سوريا وفلسطين قبل الإسلام مرتبطتين اقتصادياً بالجزيرة العربية . وحتى فى القرآن — لو صح تفسير الآية — نقرأ أن رجال قريش كانوا يرسلون قوافلهم للخارج فى الشتاء والصيف ^(٢) . وكانت قريش تعنى عناية كبيرة بتأمين قوافلها التجارية التى كانت تنجيه فى الصيف شمالاً إلى سوريا ، وفى الشتاء جنوباً إلى اليمن . ثم إن الحياة الاقتصادية المحلية فى الولايات البيزنطية الشرقية كانت لا تزال قائمة على أسس متينة قبل أن يستولى عليها العرب ، وبما يؤيد هذا أن الصناع البيزنطيين واصلوا عملهم تحت الحكم العربى .

Goldziher, *Die Religion des Islams*, p. 103, in *Die* (١)
Kultur der Gegenwart, ed. by P. Hinneberg, Teil I, Abt. 3,
Die Religionen des Orients (1913) Part I, ed. 2. (المؤلف)

(٢) القرآن الكريم ، سورة ١٠٦ ، آية ٢ . انظر مادة مكة بقلم
الأب لأمنس فى دائرة المعارف الإسلامية . (المؤلف)

وكان من الطبيعي ألا تجوز بيزنطة — بعد أن فقدت ولاياتها الشرقية — ذاتها مباشرة مع النظم الاقتصادية التي قام هناك حين انتهت فترة المداخلة ، ولكن الفائدة كانت عظيمة ، من ناحية غير مباشرة ، لأن الحياة الاقتصادية التي قامت على أسس متينة في سوريا وفلسطين [بعد أن فتحهما العرب] كانت تساعد الإمبراطورية مساعدة لا بأس بها ، طالما كان في استطاعة بيزنطة أن تجدد علاقاتها التجارية مع الشرق ، وعلى الرغم من كثرة الحروب في آسيا الصغرى ، وشدة وطأة غارات التتار ، فقد أتيح للإمبراطور والحلافة الإسلامية من فترات السلام ، أن اتفهما على تبين أهمية تمام العلاقات التجارية بينهما ، فقد ظم التجار البيزنطيون في كثير من المدن العربية ، وكان التجار كذلك يفدون على بيزنطة لإنجاز أعمالهم ، وأصبحت طرابزون في القرن العاشر أهم مركز للاتصالات التجارية بين بيزنطة وتجار المسلمين . وقال عنها المسعودي : « لها أسواق في السنة يأتي إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم »^(١) . وفي سنة ٩٦١ م أفلحت الدولة البيزنطية في استعادة جزيرة كريت

(١) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣ (طبعة باريسيه ديمانار
باريس ١٨٦١) (المؤلف)

بعد أن فشلت في ذلك مرتين ، ومن هنا استطاع الإمبراطور
نقفور فوكاس أن يخاطب السفير الإيطالي ليوتبراند Liutprand
بقوله : « وایس اسيدك أى سفن فى البحر ، ولدى وحدى حقا
بحارة أشداء ^(١) » .

وكانت العلاقات الاقتصادية مع العرب غايةً في الأهمية
لبيزنطة ، ولم تكن أهميتها تقتصر على الناحية التجارية فحسب
بل كانت تعزز مكانتها الدولية كذلك بالنسبة لغرب أوروبا .
فكان أكثر تجارة الشرق الإسلامى ينقل قبل فترة الحروب
الصليبية عن طريق بيزنطة ، وكانت هذه تجنى دخلا عظيما بفضل
قيامها بدور الوسيط بين الشرق والغرب . ولكن الصليبيين
أقاموا علاقات تجارية مباشرة بين أوروبا والشرق ، حتى إن
ازدهار بيزنطة الاقتصادية تلاشى بعد ذلك بقليل . وانتقل دور
السيادة الاقتصادية إلى المدن الإيطالية وعلى رأسها البندقية وجنوة .
فإذا انتقلنا إلى ناحية العلاقات الثقافية المتبادلة بين بيزنطة
والإسلام لم تكن لنا مندوحة عن أن ندخل في حسابنا ما أخذته
الحياة الفكرية العربية عن شعوب أجنبية عنها ؛ فمند ما انتقلت

Liutprand, Legatio, ch. XI. (١)

الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ، وانتقلت عاصمة الدولة من الشام إلى بغداد ، بدأ الفرس يلعبون دورا هاما في نشاط الخلافة الثقافية . ثم عرف العرب كنوز الثقافة الهلينية عن طريق الآراميين . ونقول باختصار إن التطور الثقافي عند العرب كان يرجع في الغالب إلى نشاط أجنبي ومادة دخيلة . ويقول واحد من كبار المستشرقين الألمان : « كان على اليونان وفارس والهند ضربة شفاء العقل العربي من عقمه ^(١) » .

وفي أثناء العصور الوسطى قبل الحروب الصليبية كانت هناك ثلاثة مراكز ثقافية عالمية ، أحدها في بلاد النصرانية والآخران في بلاد الإسلام ، وهي القسطنطينية على البسفور ، وبغداد وقرطبة على طرفي العالم الإسلامي المتقابلين . وكانت القسطنطينية « المدينة التي يجرسها الله » « فخر اليونان » أغنى المدن وأبرزها في العالم الوسيط . وكانت بغداد ، المدينة التي بُعثت في الوجود « كما لو قامت بعصا ساحر » في منتصف القرن الثامن ثانية المدن بعد القسطنطينية . وكان البلاط العبّاسي حديقة حقيقية للمعرفة والعلم والفنون . وكانت قرطبة في إسبانيا في القرن

Ed. Sachau, *Alberuni's India*, Vol. I (London, (١)
1888), p. XXVIII. (المؤلف)

العاشر أ كثر المدن حضارة في غرب أوروبا ، و « كانت تشير دهشة العالم وإعجابه » : وكانت تضم سبعين مكتبة وتسعمائة حتم عام .

وكانت الثقافة الهلنسية الملك المشترك الذي استطاع أن يقرب ما بين بيزنطة ودولة الخلافة بعد فتح العرب لسوريا ومصر . ففي أديرة سوريا كان صغار الرهبان منسكبين على ترجمة المؤلفات الدينية وغير الدينية . وكان أرسطو يحتل بين الفلاسفة مكاناً رفيعاً ، وكان أبقراط (هبوكراتيس *Hippocrates*) وجالينوس يحتلان مكانة مشابهة بين أصحاب المؤلفات الطبية . ووجد النسطوريون ، الذين اضطهدتهم الحكومة البيزنطية وأدانهم المجمع الديني العالمي الثالث في سنة ٤٣١ م ، ملجأ في فارس الساسانية ، وحملوا إليها علوم الإغريق . وقد قام كثير من العلماء زمن الساسانيين بالترجمة من الفارسية إلى الفارسية ، وكتبوا مخطوطات جديدة . ووثقوا بذلك علاقة وثيقة بين الترجمة والفلسفة والرياضية والطبية .

وعندما انتصرت الحركة اللايقونية في القرن الثامن في بيزنطة ، كان أحد المدافعين المتحمسين عن الإيقونات ، وهو يوحنا الدمشقي ، يعيش في ظل الخلافة الإسلامية . ومع أن

الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك (٧٢٠ — ٧٢٤ م / ١٠١ —
١٠٥ هـ) ، المعاصر للإمبراطور ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤١ م) ،
كما تؤكد المصادر الموثوقة بها ، كان قد أصدر^(١) منشوراً قبل
منشور ليو الثالث بثلاث سنين يأمر فيه بتحطيم جميع الصور في
كنائس رعاياه المسيحيين ، إلا أن يوحنا الدمشقي واصل عمله
الأدبي دون أي إزعاج . ومن بين كتاباته المتعددة في ميادين
العقيدة والجدل الديني والتاريخ والفلسفة والخطابة والشعر نجد
ثلاث مقالات مشهورة عنوانها « الرد على الذين يحطون من
شأن الصور المقدسة » كتبها في ظل الخلافة ، وأصبحت أمضى
سلاح للدفاعيين من البيزنطيين عن الأيقونات .

ولم يكن التسامح الديني أحد سمات الأنظمة البيزنطية .
فبعد عهد قنسطنطين الكبير ، الذي أعلن في زمنه لأول مرة أن
المسيحية ديانة شرعية ، ندم لنا التاريخ البيزنطي أمثلة كثيرة

(١) أشارت إلى ذلك الموضوع الأستاذة سيدة اسماعيل الكاشف
في كتابها « مصر في فجر الإسلام » بقولها : « وقد أمر الخليفة يزيد
ابن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) في سنة ١٠٤ هـ بكسر الصليان في كل
مكان ، وبعجو الصور والتماثيل التي في الكنائس ؛ وقد شمل هذا القرار
اللايقوني (أو حركة كسر الصور) جميع بلاد الدولة الإسلامية » .
انظر سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام ، ص ٢٠١ .

بارزة من عدم التسامح الدينى . ولقد كان أى انحراف عن عقيدة الأباطرة الحاكمين يُحارب وتُدبّنه المجامع ، حتى إن كثيراً من الطوائف والمذاهب التى ظهرت داخل الكنيسة المسيحية خلال العصور الوسطى اضطهدت واعتُبرت خارجة على القانون ، رغم ما كان لها من أهمية من الوجهتين الدينيّة والسياسية وأدّت سياسة عدم التسامح هذه إلى مشكلات سياسية خطيرة ، وخسرت الدولة بسببها كثيراً من الأراضى . ولكن موقف الحكومة البيزنطية من الإسلام كان مختلفاً . حقاً ، لقد كانت المصادر البيزنطية فى بعض الأحيان تهاجم الإسلام ، ومن هذا ما وصف به أحد المؤرخين البيزنطيين الإمبراطور ليون الثالث لميوله اللايقونية ، كما رأينا سابقاً ، بأنه « ذو عقلية عربية » . وكانت إحدى التهم التى وجهها المجمع اللايقونى فى سنة ٧٥٤ م إلى يوحنا الدمشقى هى أنه « يميل إلى الإسلام » ، بيد أننا رأينا كيف أنشئ جامع فى القسطنطينية زمن ليون الثالث (٧١٧ — ٧٤١ م) .

وفى سنة ١٠٠٩ م أمر الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمى المختل العقل فى مصر — وكانت فلسطين فى طاعته — بهدم كنيسة القيامة فى بيت المقدس . وبعد موته (١٠٢٠ م) عاد التسامح

مع المسيحية على عهد القديم خلال فترة طويلة ، فقد أبرم خلفه الخليفة الظاهر في سنة ١٠٢٧ م اتفاقاً مع الإمبراطور قسطنطين الثامن بعد تصوير العلاقات الدينية بين الإسلام والإمبراطورية ؛ فقد اتفق على أن يُدعى للخليفة الفاطمي في جميع مساجد الدولة البيزنطية ، وأُذن بإعادة جامع القسطنطينية الذي كان قد هُدم ردّاً على هدم كنيسة القيامة في بيت المقدس ، وعُين له مؤذن . ووافق الظاهر بدوره على السماح بإعادة بناء الكنيسة في بيت المقدس .

ولم يكن البيزنطيون مولعين بالرحلات ، فليست هناك أوصاف لبغداد وانطاكية والقدس وقرطبة ، أو لعدد من الأماكن الأخرى الخاضعة للعرب كتبها رحالة بيزنطيون . وكان عدد الرحالة المسلمين الذين زاروا القسطنطينية أو أماكن أخرى في الإمبراطورية قبل الحروب الصليبية قليلاً جداً .

وأول رحالة عربي وصف القسطنطينية هو هرون بن يحيى — فيما نعلم — فقد زار القسطنطينية إما في زمن الإمبراطور باسيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦ م) أو في زمن الإسكندر

(٩١٣ - ٩١٣ م^(١)) ، ولم يكن تاجراً ولا سائحاً وإنما كان أسيراً وقع في أيدي البيزنطيين في مكان ما في آسيا الصغرى ، وأُتي به عن طريق البحر إلى العاصمة ، فوصف ما رآه بعينه من أبواب المدينة والمبدروم والقصر الإمبراطوري ، واستققت نظره الأرغن الذي سمعه هناك ، ووصف كذلك موكب الإمبراطور المهيّب إلى الكنيسة الكبرى « أياصوفيا » وتمثال جستنيان ، وقناطر المياه ، وبعض الأديرة القائمة حول القسطنطينية وغيرها من الأشياء . وفي طريقه من القسطنطينية إلى روما زار مدينة أخرى هامة في الإمبراطورية وهي سالونيك « تسالونيك » . ويعطينا وصف هرون بن يحيى مادة شيقة جداً لطوروغرافية القسطنطينية وبعض احتفالات البلاط والاحتفالات الدينية التي قد تعوّضنا عن دراسة مفصلة .

وقد زار القسطنطينية في القرن العاشر مسلم آخر وهو المسعودي ، الجغرافي والمؤرخ المشهور الذي أنفق معظم حياته في

A. Vasiliev, "Harun — ibn — Yahya and his (١) description of Constantinople". G. Ostrogorsky, "Zum Reisebericht des Harun — ibn — Yahya". Both Studies in Seminarium Kondakovianum, Vol. V (1932), pp. 149—63, 251—7.
(الوآف)

الرحلات. ولما كان متلهفا على رؤية عاصمة «ملوك الروم النصارى»^(١) فقد زار المدينة أثناء عهد الأسرة المقدونية الباهر، وترك وصفا موجزا لها، ويقول: «ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين وبرهة من مملكة الروم تعظم العلماء وتشرف الحكماء»^(٢). وعلى رغم الحروب التي كانت مستمرة غالبا بين بيزنطة والعرب في المشرق، كان الاتصال الثقافي مستمرا بين هذين العدوين اللذين يبدو لأول وهلة أن التقريب بينهما كان مستحيلا. ولما كان الخلفاء يدركون تفوق الثقافة البيزنطية من عدة وجوه فقد كانوا يلجأون إلى الأباطرة في طلب المساعدة في المشاريع الثقافية. ومن ذلك ما فعله الخليفة الوايد الأول (٧٠٥ — ٧١٥ م) عند ما طلب من الإمبراطور أن يرسل له بعض الصناعات المزينة بجوامع دمشق والمدينة وبيت المقدس بالفسيقساء. وحدث خلال القرن العاشر الميلادي أن كتب الحكم المستنصر (٩٦١ — ٩٧٦ م)، خليفة قرطبة الأموي، إلى إمبراطور بيزنطة يرجوه أن يرسل له أحد صناعات الفسيقساء المزينة بمسجد قرطبة

(١) الروم عم الرومان، ويستعمل ككتاب العرب هذا اللفظ للدلالة على البيزنطيين الإغريق في العصور الوسطى. وكان لفظ «الروم» يطلق أيضاً على آسيا الصغرى. (المؤلف)

(٢) انظر المسعودي ج ١ (طبعة بولاق) ص ١٥٣ — ١٥٤.

الجامع . وقد « أمر » الحكم المستنصر ، كما يقول مؤرخ عربي ،
الإمبراطور بأن يبعث له صانعا قديرا ليقلد ما فعله الوليد لإتمام
جامع دمشق . وقد اصطحب رسل الخليفة عند رجوعهم إلى
الأندلس خبيرا بأعمال الفسيفساء من القسطنطينية ، وعددا
لا بأس به من مكعبات الفسيفساء التي أرسلها الإمبراطور هدية
منه . وقد جعل الخليفة عددا من الرجال مع هؤلاء الصانع ليأخذوا
هذه الصناعة عنهم ، وذلك ليكون عند الحكم بعد رجوعهم
عدد من الماهرين في هذا الفن . وأرسل الإمبراطور قسطنطين
بورفبروجينتوس أيضا في القرن العاشر مائة وأربعين عمودا للخليفة
الأندلسي عبد الرحمن الثالث الذي كان عندئذ مشتغلا ببناء
مدينة الزهراء ، محل إقامة المفضل لديه ، إلى جوار قرطبة . وكان
يعيش في القسطنطينية في القرن العاشر زمن الإمبراطور ثيوفيلوس
رياضي بارز يسمى ليو . وقد بعد صيته خارج بلاد الدولة بفضل
تلاميذه ، حتى إن الخليفة المأمون ، وهو مشجع نشيط للتعليم في
بلاد ، سأله الحضور إلى بلاطه . ولما سمع ثيوفيلوس بهذه الدعوة
قرّر لليو مرتبا وعينه معلما للناس في إحدى كنائس القسطنطينية .
ومع أن المأمون أرسل رسالة شخصية لثيوفيلوس يطلب منه أن
يسمح لليو بالحضور إلى بغداد لفترة قصيرة ، وقال إنه يعتبر ذلك

عملا وديا ، ويعرض في مقابل ذلك ، كما تؤكد الرواية ، صلحا دائما وألنى قطعة ذهبية فقد رفض الإمبراطور إجابة مطلبه . وفي القرن التاسع أيضا أرسل الخليفة الواثق (٨٤٢ — ٨٤٧ م) إلى إقيسوس عالما ليزور الكهوف التي كانت محفوظة فيها جثث الشبان السبعة الذين اشتشهدوا أيام دقلديانوس ، وذلك « بتفويض خاص من الإمبراطور ميخائيل الثالث » ، كما تقول الروايات . ولهذا المناسبة أرسل الإمبراطور البيزنطى رجلا ليكون دليلا للعالم العربى . وإنما لا نستطيع رفض قصة هذه الرحلة ، التي أوردها كاتب عربى فى القرن التاسع ، لأنها صادرة عن كاتب معاصر ، فهى تُرينا أنه حتى فى الوقت الذى كانت العداوات فيه شديدة متصلة بين بيزنطة والعرب ، كان من الممكن أن يقوم بينهما نوع من التبادل العلمى : فقد كان هدف البعثة منسجما انسجاما مطلقا مع عقلية المصور الوسطى .

وانقد أثرت الحروب العربية البيزنطية فى الأدب فى كلا البلدين . فقد خلقت الاشتباكات العسكرية نموذجاً لبطل قومى يتصف بالبسالة والإقدام والكرم ، وأصبح بعض هؤلاء الأبطال شخصيات أسطورية وهبت قوة خارقة (فوق مستوى البشر) وتقوم بأعمال عجيبة . ومن ذلك محارب عربى اسمه

عبد الله البطال ، بما يكون قد استشهد في معركة اكروينون في آسيا الصغرى سنة ٧٤٠ م^(١) ، فأصبح هذا البطل الإسلامى فيما بعد النموذج الحى التاريخى للبطل التركى القومى الأسطورى سيد بطل غازى الذى لا يزال قبره يشاهد فى إحدى القرى جنوب اسكى شهر (دور يليوم *Dorylaeum* فى العصور الوسيطة) فى آسيا الصغرى آ وفى القرن العاشر أوجد الحمدانيون فى حلب فى سوريا مركزا لنشاط أدبى زاهر فى بلاطهم . وأطلقى المعاصرون على عهد الحمدانيين اسم « العصر الذهبى » . ولم يقتصر شعراء عهدهم على معالجة مواضيع الشعر العربى العادية بل تعدوها إلى تمجيد أعمال المسلمين فى الحروب مع بيزنطة . وتدور ملحمة البطولة البيزنطية المشهورة التى نشأت حول شخصية ديجينيس أكر يقاس — وهى ملحمة من ملاحم أعمال الأبطال "Chanson de geste" تصور أعمال هذا البطل القومى اليونانى الخالدة — حول شخص حقيقى كان قد قتل فى الحرب ضد العرب فى آسيا الصغرى فى سنة ٧٨٨ م على ما يظهر . وقبر البطل نفسه يوجد غير بعيد من سُميساط . وهذه الملحمة وما يسمى بالأغنيات

(١) ورد فى الطبرى ج ٢ ص ١٧١٦ عند الكلام على حوادث سنة ١٢٢ هـ : « وفيها قتل عبد الله البطال فى جماعة من المسلمين بأرض الروم »

الشعبية الأكرينية [نسبة لأكريناس] تصور الحروب بين العرب وبيزنطة تصويراً جميلاً ودقيقاً في حالات كثيرة ، وخاصة حروب القرن التاسع عند ما انتصرت الجيوش العربية في سنة ١٣٨ م (٢٢٣ هـ) انتصاراً عسكرياً عظيماً على الفرق البيزنطية في عمورية في فرنجية . وقد تمخضت الأبحاث الباهرة التي تمت أخيراً في ميدان انتشار البطولة البيزنطية والعربية والتركية عن مسألة في غاية الأهمية ، وهو مسألة الارتباط الوثيق بين ألف ليلة وليلة وبين شعر البطولة اليوناني وملحمة سيد البطال التركية ، التي لم تدخل في دائرة الشعر التركي إلا بعد نقلها إلى اللغة التركية وأصلها عربي . فملحمة ديجينيس أكريناس اليونانية مصدر غني للمعارف عن العلاقات الثقافية بين بيزنطة والعرب .

وقد انتقلت كلمات عربية كثيرة إلى اللغة اليونانية ، وكلمات يونانية كثيرة إلى اللغة العربية نتيجة للاتصال المتبادل بين العرب والروم ؛ فهذه السمكيات النادرة سواء أكانت عربية أم يونانية ، كثيراً ما أخذت صوراً محرفة إلى درجة لا نستطيع معها أن نصل إلى الأصل الخنفي وراءها . ومثل هذه الاستعارات اللفظية يمكن ملاحظتها في الغرب في الأندلس ، حيث دخلت كلمات عربية كثيرة إلى اللغتين الإسبانية والبرتغالية .

إن الفترة التي تبتدئ منذ الحروب الصليبية إلى سقوط القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م كانت تختلف اختلافاً بيناً عن الدور السابق فيما يختص بمدى العلاقات المتبادلة بين بيزنطة والإسلام . وقد توالى في تاريخ الشرق الأوسط ثلاثة أجناس احتلت المركز الأول في أموره السياسية واحداً بعد الآخر : ففي القرن الحادى عشر أسس السلاجقة الأتراك في آسيا الصغرى سلطنة الروم وعاصمتها قونية (Iconium) ، وفي القرن الثالث عشر هزم المغول السلاجقة ، وفي الرابع عشر والخامس عشر أقام الأتراك العثمانيون سيادتهم حين غزوا آسيا الصغرى ومعظم شبه جزيرة البلقان ووضعوا أيديهم على القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م ، وبذلك قرروا المصير السياسى لبقايا الإمبراطورية البيزنطية . وخلال هذه الفترة كانت المصالح السياسية تفوق المصالح الاقتصادية والثقافية في العلاقات بين بيزنطة والإسلام .

وقد ظلت آسيا الصغرى ، على رغم الصراع الطويل الذى نشب بين الإسلام والنصرانية في ميادينها ، مسيحية حتى بدأ السلاجقة تقدمهم فيها خلال القرن الحادى عشر . ولم يدخل السلاجقة الإسلام في هذه البلاد — التى فتحوها والتى غلب الإسلام فيما بعد على أهلها — إلا في القرن الحادى عشر . وقد تغير

الموقف السيامى فى آسيا الصغرى نتيجة لذلك تقريباً حاسماً . وفى سنة ١٠٧١ م سحق السلاجقة الجيش البيزنطى وأسروا الإمبراطور رومانوس ديوجينيس فى موقعة ملاذكرد (منزىكرت) فى أرمينية . وفى نفس ذلك العام استولوا على بيت المقدس ونهبوها . ومن ذلك الحين صار الإسلام خطراً حقيقياً يهدد بيزنطة بعد أن أصبح لواؤه بأيدى السلاجقة دون العرب . ولا معنى لأن تتصور ما كان من الممكن أن يحدث فى الشرق الأوسط عند نهاية القرن الحادى عشر لو أن الصليبيين لم يظهروا فى القسطنطينية ويفتحوا بذلك صفحة جديدة فى تاريخ العالم .

لقد ظهرت فى القرن الثامن مسألة الصراع العالمى بين العالم المسيحى الأوروبى كله والدولة الإسلامية القوية . وكانت الأخيرة هى البادئة بالعدوان ، أى أن الشرق هدد الغرب فى هذا الدور . وعند نهاية القرن الحادى عشر تجدد هذا الصراع العالمى بين العالم المسيحى الأوروبى كله وبين العالم الإسلامى مرة أخرى بوضوح . وفى هذا الدور هدد الغرب الشرق ، وبدأت بهذا فترة الحروب الصليبية ، تلك الفترة الحافلة بالنتائج السياسية والاقتصادية والثقافية ، التى كانت خطراً داهماً على الإمبراطورية البيزنطية ، وعظيمة الفائدة لغرب أوروبا . وكان المسلمون فى ذلك الحين

تسودم القوضى والاضطراب . ويقول مؤرخ عربى معاصر [وهو ابن القلانسى] فى سنة ١٠٩٧ م ٥٤٠٩ هـ وفى هذه السنة كان مبدأ تواصل الأخبار بظهور عساكر الإفرنج من بحر القسطنطينية فى عالم لا يحصى عدده كثرة ، وتتابعت الأنباء بذلك فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها^(١) .

وكان موقف الإمبراطورية البيزنطية شديد التعقيد فى الحروب الصليبية التى كانت عملاً أوروبياً خالصاً ، فلم تكن هناك فكرة عن أى حرب صليبية فى بيزنطة . وكانت مسألة استعادة فلسطين خيالية إلى حد بعيد ، ولم تكن حيوية بالنسبة للإمبراطورية ، إذ لم يكن هناك عداً دينياً بينها وبين الإسلام ، ولم يكن هناك خطباء يحرضون على القيام بالحروب الصليبية فى بيزنطة . وقد أفضحت الإمبراطورية الشرقية فى غمرة الحرب الصليبية الأولى على رغبتها ، فقد كان هدف الإمبراطورية هو الحصول على بعض المعاونات فى حربها مع الأتراك ، ولم يكن لهذا الأمر علاقة بالحملة على فلسطين . وكانت السنوات التى سبقت الحرب الصليبية الثالثة هامة إذا نظرنا إليها من ناحية موقف بيزنطة حيال الحركة الصليبية . ففى اللحظة التى بدأت فيها الحرب الصليبية فتح

(١) انظر ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

الإمبراطور إسحاق أنجيلوس باب المفاوضات مع صلاح الدين الذي وُجّهت تلك الحرب ضده ، وعقد معه محادثة ضد سلطان الروم السلاجقة في قونية .

لقد دفعت بيزنطة ثمنًا غاليًا لاضطرارها إلى الاشتراك على رغبتها في الحملات التي سارت لحرب الإسلام . ففي سنة ١٢٠٤ استولى الصليبيون على القسطنطينية ونهبوها وأسسوا إمبراطورية لاتينية . وحين استعاد آل باليولوجوس القسطنطينية في سنة ١٢٦٧م كانوا أضعف من أن يقوموا بأي محاولة خطيرة لاستعادة ما فقدوه مما أخذ منهم الأتراك السلاجقة .

« ولو قد كان هناك في آسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن الثالث عشر عنصرٌ غالب له ماض تاريخي وقائد قوى لسكان من المحتمل أن نشاهد انتعاشاً في سلطنة قونية ، أو ربما رأينا انتعاشاً للهلبية بعد أن تُطعم بها سلالة جديدة ، فتستطيع في هذه الحالة أن تضع أسساً جديدة في ظل الإمبراطورية البيزنطية ، وذلك باستعادة المقاطعات الآسيوية وغزوها من جديد . ولكن المغول والصليبيين قاموا بعملهم على صورة أكمل مما ينبغي . فقد أقفل اللاتين في القسطنطينية ، والمغول في فارس وبلاد الجزيرة ، السبيل أمام أي انتعاش سواء أكان للمسلمين

العرب أم للتقاليد الإغريقية المسيحية^(١) .

وقد رأينا فيما سلف أن الفترة الأخيرة من تاريخ الدولة البيزنطية من سنة ١٢٦١ — ١٤٥٣ م إنما كانت فترة صراع سياسى مستئس ؛ فقد كانت الإمبراطورية فى الواقع تحتضر احتضاراً طويلاً فى أثناء صراع بقاياها مع الإسلام ، ولم يكن صراع نديّ لند ، وكان يحمل لواءه هذه المرة الأتراك العثمانيون . ونتيجة لهذا لم يكن هناك تقريباً أى تبادل ثقافى بين بيزنطة والإسلام فى الفترة التى مرت بين الحروب الصليبية وسقوط الإمبراطورية : اضطرب سير التجارة وفقدت تنظيمها ، ولم تعد تسير فى أوقاتها ، وضاع الكثير من كنوز الثقافة الإسلامية . ولم يكن السلاجقة أو العثمانيون فى ذلك الوقت أهلاً للسير بشئون الثقافة الحقيقية أولبت الحياة فى كيانها . وأضحى التعاون مع الإمبراطورية الشرقية مستحيلاً .

وخلال هذه الفترة زار القسطنطينية أربعة من الرحالة العرب وتركوا لنا أوصافاً للمدينة : زارها اثنان منهم فى أثناء حكم أسرة

H. A. GIBBONS, *The Foundation of the Ottoman* (١)

Empire (New York, 1916), pp. 13—14. (المؤلف)

آل كومنين الباهر في القرن الثاني عشر . ويعطينا أحدهما وهو أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي في كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وصفاً موجزاً لأهم آثار العاصمة ، وهو يخلص بالذكر بعض الآثار التي لها علاقة بالإسلام ، ويؤكد مرة أخرى تسامح بيزنطة الديني مع المسلمين ، فيقول إنه كان يقوم « في جانب سورها قبر أبي أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها الجامع الذي بناه مسعدة بن عبد الملك والتابعون ، وبه قبر رجل من ولد الحسين رضى الله عنه ^(١) » . ويقول في نهاية وصفه للقسطنطينية : « وهذه المدينة أكبر من اسمها ، نسأل الله تعالى أن يجعلها دار إسلام بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى ^(٢) » . وقد أُجيب دعاؤه في سنة ١٤٥٣ م .

أما الثاني ، وهو الإدريسي ، الجغرافي المشهور الذي ولد في سبته ، فقد زار القسطنطينية في القرن الثاني عشر . ووفد عليها في زمن آل باليولوجوس اثنان من الرحالة العرب ووصفاها : أولها هو المؤرخ الجغرافي العربي أبو الفداء ، وقد زارها في بداية القرن الرابع عشر وشاهد آثاراً ضمه لال العاصمة ، وقال : « وداخل

(١) انظر رحلة الهروي ص ٤٨ — ٤٩ (مخطوط دار الكتب

المصرية) .

(٢) نفس المخطوط ص ٤٩ .

سورها مزارع وبساتين ، وبالمدينة خراب كثير^(١) .

وثانيهما هو الرحالة المغربي الذائع الصيت ابن بطوطة ، الذي ولد في طنجة ، وزار القسطنطينية في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وخلف لنا وصفاً ممتعاً يفيض حيوية . ويقول : إن قافلته عندما وصلت أول بوابة للقصر الإمبراطوري وجد رجالها عندها حوالي مائة رجل « سمعهم يقولون : سرا كنو ! سرا كنو ! ومعناه المسلمون^(٢) » ، ونزل ضيفاً على الإمبراطور ، وأظهر سكان القسطنطينية نحوه ودأ كبيراً ؛ ويقول ابن بطوطة : « دخلت سوق الكتاب فرآني القاضي فبعث لي أحد أعوانه ، فسأل الرومي الذي معي فقال له : إنه من طلبه المسلمين . فلما عاد إليه وأخبره بذلك بعث إليّ أحد أصحابه ، وهم يسمون القاضي النجشي كفالاً ؛ فقال لي : النجشي كفالاً يدعوك ، فصعدتُ إليه إلى القبة التي تقدم ذكرها ، فرأيت شيخاً حسن الوجه واللثة عليه لباس الرهبان ، وهو الملف الأسود ، وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون ، فقام إلى وقام أصحابه وقال : أنت ضيف الملك ويجب علينا إكرامك ، وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر

(١) أبو الفداء ، تقويم البلدان طبعة باريس (١٨٤٠) ص ٢١٣ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٢ طبعة باريس ص ٤٧٥ — ٤٧٦ .

وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام ، وقال لى : لا بد لك أن تأتي
إلى دارى فأضيفك ، فأنصرفت عنه ولم ألقه بعد^(١) .
وعند ما اشتد خطر الأتراك العثمانيين ، بدأنا نلاحظ عند
أهل العاصمة نمو شعور العداء للإسلام . ويقول مؤرخ بيزنطى
من مؤرخى القرن الرابع عشر إنه بينما كانت الصلاة تجرى ذات
مرة فى الكنيسة الإمبراطورية ، غضب الناس عند ما رأوا أتراكا
عثمانيين ، ممن سُمح لهم بدخول العاصمة ، يرقصون ويغنون على
مقربة من القصر « يرددون فى أصوات غير مفهومة أغانى محمد
وتراتيله فصرفوا الناس بهذا عن الكتب المقدسة » . وقد صنف
الإمبراطور مانويل الثانى أو فى رسالة كتبت فى بيزنطة فى الرد
على الإسلام وتعاليمه ، فهو يعرف الإسلام بأنه « ضلالة تسمى
عقيدة » . ويتحدث عن محمد فى لهجة ملؤها الجرأة . وعلى رغم
ذلك كله كانت غالبية الشعب فى عشية الكارثة القاضية تنفر
من أى اتفاق مع كنيسة روما الكاثوليكية أكثر من نفورها
من الإسلام . ولا زال الناس يرددون تلك القالة الماثورة ، التى
صدرت عن رئيس دينى بيزنطى يُدعى لوكاس ناتوراس فى ذلك

(١) رحلة ابن بطوطة طبعة باريس ج ٢ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ . وقد
اكتفى المؤلف هنا بذكر إشارة ابن بطوطة إلى دعوة القاضى له ، فرأينا أن
نثبت هنا نص ابن بطوطة كله .

الحين ، وهي « إنه خير لنا أن نرى العامة التركية في مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية » .

وفي سنة ١٤٥٣ م سقطت القسطنطينية ، روما الثانية ، ودخلها السلطان محمد الثاني « المنذر بقدوم الدجال وشبيهه سنحاريب » . وأقام الأتراك العثمانيون إمبراطوريتهم العسكرية على أطلال الإمبراطورية الشرقية المسيحية . وكان لهذا الانتصار الذي أحرزه الإسلام على المسيحية أصداء بعيدة في روسيا النائية ، ووقع في روع كثير من الروس أنهم أصحاب التراث البيزنطي الثقافي ، فوجب عليهم لهذا الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ضد الإسلام .

وأخيراً ربما كان التأثير الثقافي للإمبراطورية البيزنطية والإسلام مما ظهر في أصول ما يسمى بالنهضة الإيطالية وتقدمها . فتلك العلوم القديمة والمعارف المختلفة ، التي حافظت عليها بيزنطة بعناية والتي عني بها العرب وأتقنوها ، قد ر لها أن تلعب دوراً أساسياً في خلق جو ثقافي جديد في إيطاليا ، وأصبحت حلقة واصله بين الثقافة القديمة وحضارتنا الراهنة . وفي هذا المجال نرى بين أيدينا مثلاً للتعاون الثقافي بين هاتين القوتين اللتين كانتا أقوى وأخصب ما عرفه العصر الوسيط ، وهما بيزنطة والإسلام .

١ . ١ . فازلييف

ملحق ٣

أباطرة الدولة الرومانية الشرقية

من قنسطنطين الأول إلى قنسطنطين الحادي عشر

نقلا عن كتاب

الحضارة البيزنطية

تأليف

ستيفن رونسمان

STEVEN RUNCIMAN : *Byzantine Civilization*,
pp. 301—305 (London 1948)

كان بعض أباطرة الدولة البيزنطية يشتركون في الحكم
كشركاء للإمبراطور القائم أو معاونين له قبل أن يتفردوا
بالسلطان ، وقد كتبنا أسماءهم حين حكموا على هذه الصورة بالخط
الصغير ، ثم عدنا فكتبنا أسماءهم بالحرف الكبير عند ما تولوا
متفردين .

أسرة قنسطنطين :

قنسطنطين الأول ، الكبير	توفي سنة ٣٣٧ .
قنسطنطيوس	٣٣٧ — ٣٦١ . حكم منفرداً بعد سنة ٣٥١ .
يوليان المرتد	٣٦١ — ٣٦٣ . حكم منفرداً
يوفيان <i>Jovian</i>	٣٦٣ — ٣٦٤ . حكم منفرداً .
فالنس	٣٦٤ — ٣٧٨ .

أسرة ثيودوسيوس :

ثيودوسيوس الأول ، الكبير	٣٧٩ — ٣٩٥ حكم منفرداً بعد سنة ٣٩٢
أركاديوس	٣٩٥ — ٤٠٨ .
ثيودوسيوس الثاني	٤٠٨ — ٤٥٠ . كان انثيميوس وصياً من سنة ٤٠٨ — ٤١٤ .
مارقيان <i>Marcian</i>	٤٥٠ — ٤٥٧ .

أسرة ليو :

ليو الأول	٤٥٧ — ٤٧٤ .

ليو الثانى

. ٤٧٤

زينون

٤٧٤ — ٤٩١ باسيليكوس

المتعصب ٤٧٥ — ٤٧٦ .

أناستاسيوس الأول

. ٤٩١ — ٥١٨ .

أسرة جستنيان :

جستين الأول

. ٥٢٧ — ٥١٨ .

جستنيان الأول

. ٥٦٥ — ٥٢٧ .

جستين الثانى

٥٦٥ — ٥٧٨ صوفيا وصية من

٥٧٣ إلى ٥٧٤ ، وطيباريوس

وصياً من ٥٧٤ إلى ٥٧٨ .

طيباريوس الثانى

. ٥٨٢ — ٥٧٨ .

موريس

. ٦٠٢ — ٥٨٢ .

نيودوسيوس ، شريك فى العرش

. ٦٠٢ — ٥٩٠ .

فوكاس *Phocas*

. ٦١٠ — ٦٠٢ .

أسرة هرقل :

هرقل الأول

. ٦٤١ — ٦١٠ .

قنسططين الثالث

. ٦٤١ — ٦١٣ .

هرقليوناس

. ٦٤١ — ٦٣٨ .

قنسطنطين الثالث
٦٤١ .
هرقليوناس
٦٤١ مارتينة *Martina* وصية
٦٤١ .

قنسطانز الثاني ٦٤١ — ٦٦٨ .

قنسطنطين الرابع
٦٥٩ — ٦٦٨ .
هرقل
٦٥٩ — ٦٨١ .
طياروس
٦٥٩ — ٦٨١ .

قنسطنطين الرابع ، بوجونات ٦٦٨ — ٦٨٥ .
Pogonatus (= ذو اللحية)

جستنيان الثاني ، رينوتميتوس ٦٨٥ — ٦٩٥ .
Rhinotmetus (المجدوع الأنف)

ليونتيوس *Leontius* ٦٩٥ — ٦٩٨ .

طياروس الثالث ، اسيما ٦٩٨ — ٧٠٥ .
Apsimar

جستنيان الثاني ، رينوتميتوس ٧٠٥ — ٧١١ للمرة الثانية

٧٠٦ — ٧١١ .
طيربوس

فيلبيكوس *Philippicus* ، ٧١١ — ٧١٣ .

باردانس *Bardanes*

أناستاسيوس الثاني ، ٧١٣ — ٧١٥ .

أرتيميوس *Artemius*

ثيودوسيوس الثالث ٧١٥ — ٧١٧ .

الأسرة الإيسورية :

ليو الثالث ، الإيسوري ٧١٧ — ٧٤٠ .

قنسطنطين الخامس ٧٢٠ — ٧٤٠ .

قنسطنطين الخامس ، ٧٤٠ — ٧٧٥ .

كوبرونيوموس *Copronymus*

ليو الرابع ٧٥٠ — ٧٧٥ .

ليو الرابع ، الخزرى ، *Chazar* ٧٧٥ — ٧٨٠ .

قنسطنطين السادس ٧٧٦ — ٧٨٠ .

قنسطنطين السادس ٧٨٠ — ٧٩٧ إيريني وصية

٧٨٠ — ٧٩٠ ، ٧٩٢ — ٧٩٧ .

إيريني ٧٩٧ — ٨٠٢ .

نقفور الأول ٨٠٢ — ٨١١ .

ستوراكيوس ٨١١ .

ميخائيل الأول ، رانجاب ٨١١ — ٨١٣ .

Rhangabe

ليو الخامس ، الأرمني ٨١٣ — ٨٢٠ .

الأسرة العمورية [الفرجية] :

٨٢٩ — ٨٢٠	ميخائيل الثاني ، العموري
٨٢٩ — ٨٢١	ثيوفيلوس
٨٤٢ — ٨٢٩	ثيوفيلوس
٨٦٧ — ٨٤٢	ميخائيل الثالث ، السكير
٨٥٦ — ٨٤٢	ثيودورا وصية
٨٦٦ — ٨٦٢	بارداس وصياً
٨٦٦ — ٨٦٧	باسيل الأول

الأسرة المقدونية :

٨٨٦ — ٨٦٧	باسيل الأول المقدوني
٨٨٠ — ٨٦٩	قنسطنطين
٦٨٦ — ٨٧٠	ليو السادس
٩١٢ — ٨٧١	الإسكندر
٩١٢ — ٨٨٦	ليو السادس ، الحكيم
٩١٣ — ٩١١	قنسطنطين السابع
٩١٣ — ٩١٢	الإسكندر
٩١٣ — ٩١٩	قنسطنطين السابع ، الأرجواني
٩١٩ — ٩١٣	مجلس وصاية ٩١٣
٩١٩ — ٩١٣	زوى كاربو بسينا <i>Carbopsina</i>
٩٤٤ — ٩١٩	رومانوس الأول ،

ليكابينوس *Lecapenus*

- قنسطنطين السابع
 . ٩٤٤ — ٩١٩
 كرسثوفر ليكابينوس
 . ٩٣١ — ٩٢١
 ستيقن ليكابينوس
 . ٩٤٥ — ٩٢٤
 قنسطنطين ليكابينوس
 . ٩٤٥ — ٩٢٤
 قنسطنطين السابع ، بورفيروجينيتوس
 . ٩٥٩ — ٩٤٤
 رومانوس الثاني
 . ٩٥٩ — ٩٥٠ حوالى
 رومانوس الثاني
 . ٩٦٣ — ٩٥٩
 باسيل الثاني
 . ٩٦٣ — ٩٦٠
 قنسطنطين الثامن
 . ١٠٢٥ — ٩٦١
 باسيل الثاني ، سفاح البلغار
 . ٩٦٣ ، ثيوفانو
 وصية ٩٦٣ .
Bulgaroetonus
 نقفور الثاني فوكاس
 . ٩٦٩ — ٩٦٣
 باسيل الثاني
 . ٩٧٦ — ٩٦٣
 يوحنا الأول ، تسيمسكيين
 . ٩٧٦ — ٩٦٩
 باسيل الثاني ، سفاح البلغار
 . ١٠٢٥ — ٩٧٦
 قنسطنطين الثامن
 . ١٠٢٨ — ١٠٢٥
 رومانوس الثالث ، ارجيوس
 . ١٠٣٤ — ١٠٢٨ *Argyros*
 ميخائيل الرابع ، البفلاجوني
 . ١٠٤١ — ١٠٣٤
 ميخائيل الخامس ، الشماع
 . ١٠٤٢ — ١٠٤١ *the Calfat*
 زوى وثيودورا ، الأرجوانيتان
 . ١٠٤٢
Porphyrogenetae

قنسطنطين التاسع ، مُنوماخوس ١٠٤٢ — ١٠٥٥ .

Monomachus

ثيودورا ، الأرجوانية ١٠٥٥ — ١٠٥٦ .

Porphyrogenneta

ميخائيل السادس ، ستراتوتيوكوس ١٠٥٦ — ١٠٥٧ .

Stratioticus

إسحاق الأول ، كومنينوس ١٠٥٧ — ١٠٥٩ .

أسرة دوкас :

قنسطنطين العاشر ، دوкас ١٠٥٩ — ١٠٦٧ .

ميخائيل السابع حوالى ١٠٦٠ — ١٠٦٧ .

ميخائيل السابع ، پارابينيسز ١٠٦٧ — ١٠٦٨ .

Parapinaces

إيدوخيا ماكريمبوليتسا

وصية *Macrembolitissa*

١٠٦٧ — ١٠٦٨ .

رومانوس الرابع ، ديوجينيس *Diogenes* ١٠٦٨ — ١٠٧١ .

ميخائيل السابع ١٠٦٨ — ١٠٧١ .

ميخائيل السابع پارابينيسز ١٠٧١ — ١٠٧٨ .

Parapinaces

نقفور الثالث ، بوتانياتيس ١٠٧٨ — ١٠٨١ .

Botaniates

أسرة كومنين :

١٠٨١ — ١١١٨ .	ألكسيوس الأول ، كومنينوس
١٠٨١ — حوالى ١٠٩٠ .	قلسطنطين دوкас
١٠٩٢ — ١١١٨ .	يوحنا الثانى
١١٤٣ — ١١١٨ .	يوحنا الثانى ، كالوجوهانيز
	Calojohannes
١١٤٢ — ١١١٩ .	ألكسيوس
١١٨٠ — ١١٤٣ .	مانويل الأول
١١٧٢ — ١١٨٠ .	ألكسيوس الثانى
١١٨٠ — ١١٨٣ مارية	ألكسيوس الثانى
الأنطاكية ، وصية	
١١٨٠ — ١١٨٢ .	
١١٨٢ — ١١٨٣ .	اندرونيكوس الأول
١١٨٣ — ١١٨٥ .	اندرونيكوس الأول

أسرة أنجيل :

١١٨٥ — ١١٩٥ .	إسحاق الثانى ، أنجيلوس
١١٩٥ — ١٢٠٣ .	ألكسيوس الثالث
١٢٠٣ — ١٢٠٤ .	ألكسيوس الرابع
١٢٠٣ — ١٢٠٤ .	إسحاق الثانى

ألكسيوس الخامس ، مورتزوفلوس ١٢٠٤ .
Murtzuphlus

أسرة الأشاكرة :

(إمبراطورية نيقية ، ١٢٠٤ — ١٢٦١)

ثيودور الأول الأشكري ١٢٠٤ — ١٢٢٢ .

يوحنا الثالث ، دوкас فئاتريس ١٢٢٢ — ١٢٥٤ .
Vatatzes

ثيودور الثاني ، الأشكري فئاتريس ١٢٥٤ — ١٢٥٨ .

يوحنا الرابع ، دوкас فئاتريس ١٢٥٨ .

أسرة باليولوجوس :

ميخائيل الثامن ، باليولوجوس ١٢٥٨ — ١٢٨٢ .

أندرونيكوس الثاني ١٢٨٢ — ١٢٧٢ .

أندرونيكوس الثاني ١٢٨٢ — ١٣٢٨ .

ميخائيل ١٢٩٥ — ١٣٢٠ .

أندرونيكوس الثالث ١٣٢٥ — ١٣٢٨ .

أندرونيكوس الثالث ١٣٢٨ — ١٣٤١ .

يوحنا الخامس ١٣٤١ — ١٣٤٧ .

حنة أميرة سافوى ، وصية .

١٣٤٧ — ١٣٤١

- يوحنا السادس ، كاتنا كوزيني
Contacuzene
- . ١٣٥٥ — ١٣٤٧
- يوحنا الخامس
 ماتيو كاتنا كوزيني
- . ١٣٥٥ — ١٣٤٨
- يوحنا الخامس
- . ١٣٧٦ — ١٣٥٥
- اندرونيكوس الرابع
- . ١٣٧٩ — ١٣٧٦
- يوحنا السابع
- . ١٣٩٠ — ١٣٧٦
- يوحنا الخامس
- . ١٣٩٠ — ١٣٧٩
- اندرونيكوس الرابع
 مانويل الثاني
- . ١٣٨٥ — ١٣٧٩
- . ١٣٩١ — ١٣٨٦
- . ١٣٩٠
- يوحنا السابع
- . ١٣٩١ — ١٣٩٠
- يوحنا الخامس
- . ١٤٢٥ — ١٣٩١
- مانويل الثاني
- . ١٤١٢ — ١٣٩٩
- يوحنا السابع
- . ١٤٢٥ — ١٤٢٣
- يوحنا الثامن
- . ١٤٤٨ — ١٤٢٥
- يوحنا الثامن
- . ١٤٥٣ — ١٤٤٨ قنسطنطين الحادي عشر ، دراجاسيس
Dragases

فہرست تفصیلی

صفحہ	
۱ — ۵	تقدیم
۶ — ۱۰	مقدمۃ المؤلف

الفصل الأول

مدينة قنسطنطين ١ — ١٥

تفكك العالم الروماني في القرن السادس ١ و ٢ — إصلاحات
دقليديانوس ٣ و ٤ — ديين روما للشرق ٥ — اضمحلال
المجتمع الروماني ابتداء من القرن الثالث الميلادي ٦ —
سوء حالة لإيطاليا ٧ — قيام روما الجديدة ٧ و ٨ — أعمال
قنسطنطين ٩ و ١٠ — موقف قنسطنطين من الوثنية ١١ —
رموز المدينة الجديدة ١٢ — سكانها ١٣ — وصف موجز
لها ١٤ و ١٥ .

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية في الإمبراطورية الشرقية ... ١٦ — ٣٩

الحياة الاجتماعية في الإمبراطورية البيزنطية لم تُنوّخ بعد ١٦

الرجل البيزنطي كان يعيش في عالم تسيطر عليه الحرافات ١٧

غلبة الروح الدينية ١٨ — كيرلس الإسكندري ١٩ و ٢٠

كرامات القديسين ٢١ — القديس المسيحي محل محل الإله

الوثني ٢٢ — أهل القسطنطينية يعيشون في جو ديني ٢٣

صفحة

أهل بيزنطة يعيشون في حالة توتر مستمر — الاستخفاف
بالقيم الإنسانية ٢٤ — ميلهم إلى القسوة ٢٥ — ولعهم
بالملاهي — الهبذروم ٢٦ و ٢٧ — أنواع التسلية في
الملعب ٢٨ — وصف للحفلات العامة في الملعب ٣٠ —
رأى يكون في أسباب الفتن ودوافعها ٣١ — الدور الذي
كان يلعبه ميدان السباق في الحياة البيزنطية ٣٢ — الحياة
المنزلية في بيزنطة ٣٣ و ٣٤ — الحياة الاجتماعية في
بيزنطة ٣٤ و ٣٥ — يوحنا ملالاس وكتابه ٣٦ و ٣٧
بعض مراجع الحياة الاجتماعية البيزنطية ٣٨ و ٣٩ .

الفصل الثالث

ثبت بأسماء الأباطرة البيزنطيين ٤٠ — ٧٢

الفترة الأولى ، أسرة قنسطنطين ٤٠ — قنسطنطيوس
الثاني — قنسطانز الأول وصراعه مع ماجنتيوس الغاصب
ومعركة مورسا — المناداة بيوليان إمبراطوراً — يوثيان
قالينتيان الأول وأخوه فالنس ٤١ — معركة أدرنة —
جراتيان ٤٢ .
الأسرة الثيودوسيوسية : ثيودوسيوس الأول —
ابناه هونوريوس وأركاديوس — ثيودوسيوس الثاني —
أنثيموس رئيس الحرس — بولكيريا أخت الإمبراطور —
إيدوخيا زوج ثيودوسيوس الثاني — خريساقيوس
الحصى ٤٢ — بولكيريا تزوج مارقيان — مارقيان
إمبراطوراً — آلان أسبار — ليو الأول — ليو الثاني
زينون ٤٣ .
أهمية حكم ثيودوسيوس الأول — اعتباره المسيحية

صفحة

الأرثوذكسية ديانة الدولة الرسمية — إبطال فكرة التسامح
مع الوثنيين — الصلح مع فارس — جهود الأباطرة لحماية
حدود الدولة وعجزها عن الوقوف في وجه الغزو الجرمانى ٤٤
انتصار القوط في موقعة أدرنة ومعناه — النزاع بين فارس
وروما حول أرمينية وتقسيمها بين الإمبراطوريتين — ليو
الأول يشرك الإيسوريين في الحكم — الإيسوريون يحمون
الشرق — أناستاسيوس يبعدهم عن العاصمة ٤٥ —
كورش محافظ القسطنطينية يحصن العاصمة — يوليان
الجاحد يبعد الوثنية — فشل هذه المحاولة — اثناسيوس —
القسطنطينية والإسكندرية تتنازعان السيادة الدينية ٤٦ —
انتصار القسطنطينية في مجمع خلقيدونية — تجدد النزاع —
انتعاش الأدب السريانى — المذاهب الدينية وسيلة لإظهار
المشاعر القومية ٤٧ .

الفترة الثانية : أسرة جستنيان : جستان الأول —
جستنيان الأول — جستان الثانى — طيباريوس الثانى ٤٨
موريس — فوكاس ٤٩ .
جستنيان وأعماله ٤٩ — ٥١ .

الفترة الثالثة : أسرة هرقل : قسطنطين الثالث —
هرقل الأول — هرقليوناس ٥٢ — قسطنطين الثانى —
قسطنطين الرابع — جستنيان الثانى — نفيه —
ليونتيوس — طيباريوس الثالث ٥٣ — جستنيان الثانى
للمرة الثانية — تدهور قوة الإمبراطورية — باردانس —
أناستاسيوس الثانى — ثيودوسيوس الثالث ٥٤ .
نظرة عامة إلى أعمال هرقل وأحوال الدولة في عصره
وحروبها مع المسلمين وغيرهم ٥٥ — ٥٧ .

صفحة

الفترة الرابعة : الأسرة الإيسورية (اللا إيقونيون)

ليو الثالث — قنسطنطين الخامس ٥٧ — ليو الرابع —
إيريني وصية عليه — قنسطنطين السادس — إيريني ٥٨ .

نهاية الأسرة الإيسورية : نقفور — ستورا كيوس —
ميخائيل الأول — ليو الخامس ٥٨ .

الأسرة الفريجية : ميخائيل الثاني — نيو فيلوس —
ميخائيل الثالث — قيصر بارداس ٥٩ .

نظرة عامة في أحوال الدولة في حكم الأسرتين الإيسورية
والفريجية ، ومحاولات العرب الاستيلاء على القسطنطينية
وفشلها — حركة تحطيم الصور — تقدير الإيسوريين ٥٩ — ٦١

الفترة الخامسة : الأسرة المقدونية : باسيل الأول —

ليو السادس — الإسكندر ٦١ — قنسطنطين السابع
بورفيريوجينيتوس — رومانوس الأول — رومانوس
الثاني — باسيل الثاني — قنسطنطين الثامن — نقفور
الثاني — يوحنا تسيمسكيس ٦٢ — رومانوس الثالث —
ميخائيل الرابع — ميخائيل الخامس — زوى وثيودورا
قنسطنطين التاسع مُنوماخوس ٦٣ — ثيودورا —
ميخائيل سترانيونيكوس ٦٤ .

نظرة عامة في أحوال الدولة في عهد الأسرة المقدونية مع
بيان أهم الحوادث التي تمت في هذه الفترة والخصائص التي
تمتاز بها ٦٤ — ٦٧ .

الفترة السادسة ١٠٥٧ — ١٢٠٤ : الفترة التي انقضت

بين نهاية الأسرة المقدونية وبجيء آل كومنين : إسحاق

صفحة

- كومنينوس ٦٧ — قسطنطين العاشر دوكاس —
رومانوس الرابع ديوجينيس — ميخائيل السابع دوكاس —
تقصور الثالث يوتانياتيس ٦٨ .
أسرة كومنين : ألكسيوس كومنينوس — يوحنا
الثاني — مانويل ٦٨ — ألكسيوس الثاني —
اندرونيكوس — إسحاق الثاني — ألكسيوس الثالث —
إسحاق الثاني وألكسيوس الرابع ٦٩ .
نظرة عامة في أحوال الدولة في عهد آل كومنين ٦٩ — ٧١
الفترة السابعة ١٠٧٤ — ١٤٥٣ : للمامة قصيرة
بجمال الدولة خلال هذه الفترة ٧١ — ٧٢ .

الفصل الرابع

السيادة البيزنطية ٧٣ — ٩٤

- تركز السلطان في الدولة الرومانية في يد رجل واحد ٧٣ و ٧٤
اتجاه نظم الحكم في الدولة الرومانية نحو نظام الإمبراطورية
٧٥ — الأباطرة يقضون على سلطان مجلس الشيوخ —
الإمبراطور مصدر التشريع ٧٦ — الإمبراطور رئيساً
دينياً أعلى ٧٧ — الإمبراطور المسيحي — مؤثرات شرقية
في العالم الروماني وفي نظرية الحكم الرومانية ٧٨ — مصدر
قوة الحاكم الأوتوقراطي والقوى التي ساعدته على امتلاك
هذه القوة ٧٩ و ٨٠ — الأوتوقراطية كهانة ملكية
— النظرية الإلهية في أصل الملكية ٨١ — الإمبراطور مؤيد
بالغاية الإلهية ٨٢ — الأباطرة يكسبون حق اختيار
خلفائهم ٨٣ — الأوتوقراطون ٨٤ و ٨٥ —
الإمبراطورية خالدة ٨٦ — القيود العملية والنظرية التي

صفحة

تخدم من ادعاء الأباطرة السيطرة على الكون ٨٧ — سكان
العاصمة وامتيازاتهم — واجب الإمبراطور الإنسانى نحو
شعبه ٨٨ و ٨٩ — هيئة البلاط ٩٠ — مراسم
البلاط ٩١ — ٩٣ — ديوان الرسائل الإمبراطورية ٩٣ .

الفصل الخامس

الكنيسة الأرثوذكسية ٩٥ — ١٢٧

قيام كنيسة القسطنطينية ٩٥ — ٩٧ — اعتبار الأقدمية
أساساً لتقدير أهمية كنيسة بلد من البلاد ٩٨ — كنيسة
القسطنطينية تحتل المكان الأول ٩٩ — كنيسة الإسكندرية
وأسباب قوتها ١٠٠ — النزاع بين كيرلس الإسكندري
ونسطوريوس ١٠١ — ديوسقوروس ويوتيجيوس ١٠٢
بجمع خلاقيونية وأسباب انهزام كنيسة الإسكندرية ١٠٣
و ١٠٤ — زينون يحاول لإزالة أسباب الشقاق الدينى
ويحاول استرضاء المونوفيزيين ١٠٦ — نهاية النزاع
الدينى ١٠٦ — الدولة تحارب الوثنية ١٠٧ — ١٠٩
بدء الرهينة وتطورها ١١٠ — ١١٢ — حركة اللاصورية
١١٤ — ١١٩ — العلاقات بين كنيسة القسطنطينية
وروما ١٢٠ — ١٢٤ — الكنيسة الشرقية ، مواضع
قوتها وضعفها ١٢٤ — ١٢٧ .

الفصل السادس

ملكية الأرض والضرائب ١٢٨ — ١٤٤

الارتباط بين ملكية الأرض والضرائب فى النظام الإدارى

صفحة

البيزنطى ١٢٨ — الأرض أساس مالية الدولة البيزنطية —
أهمية مصر من هذه الناحية ١٢٩ — اعتماد الدولة على
الجبايات غير العادية والضرائب العينية ١٣٠ — النظام
المالى لمصر البيزنطية ١٣١ و ١٣٢ — طريقة توزيع
الضرائب على الناس ١٣٣ — اهتمام الإدارة البيزنطية
بالأرض والفلاحين ١٣٤ — نظام التعمير البيزنطى
(Colonat) ١٣٥ و ١٣٦ — النزاع بين الدولة وكبار
الملك ١٣٧ — خصومات النبلاء والعصابات المسلحة
(Bucellarü) ١٣٨ — حالة القرى والمزارع ١٣٩ — ١٤٤ .

الفصل السابع

الإدارة المدنية ١٤٥ - ١٦٦

- ١ — الهيئة الحاكمة : القائد العسكرى والحاكم المدنى
لإقاص حجم الولايات ١٤٥ — تقسيم الدولة الإدارى ١٤٦
أمير الاواء ١٤٧ — كبير الموظفين *Magister Officiorum*
وزير المالية ١٤٨ و ١٤٩ — تعمد نظام الإدارة
والألقاب الرئاسية ١٤٩ و ١٥٠ — تداعى نظام الإدارة
المقدس وما تبع ذلك من التغيرات ١٥١ .
- ٢ — إدارة القضاء : القضاء فى العالم الرومانى الشرقى
والحاكم ١٥٢ و ١٥٣ — القانون الجنائى ١٥٤ و ١٥٥ .
- ٣ — المالية : وجوه الإنفاق : الدفاع ١٥٦ — النفقات
العامة ١٥٧ — الطالب الدينية ١٥٨ — موارد الدخل ١٥٩
الضرائب ١٦٠ — ضريبة التركات ١٦١ — ضرائب
غير مباشرة ١٦٢ — المكوس ١٦٣ — تمويش الموظفين

صفحة

عن أعمالهم بِمِنَح من الأرض ١٦٤ و ١٦٥ — ارتكاز
مالية الدولة على نقاء عملتها الذهبية ١٦٥ — ثبات المركز
المالى للدولة ١٦٦ .

الفصل الثامن

الجيش والأسطول ١٦٧ — ١٩٠

١ — الجيش : تاريخ روما هو تاريخ الجيش الرومانى ١٦٧
استمرار النظم الرومانية فى الجيش البيزنطى ١٦٨ — ١٧٠
إصلاحات جستنيان — نظام الولايات الثغرية *thema*
١٧١ — ١٧٤ فصائل الجيش المراقبة فى العاصمة وفى
الولايات — الدُمُستق — فرق القصر — المشاة —
دُمُستق الأسوار ١٧٤ — المتطوعون — رئيس جماعات
الجند — المحالفون — منح الأرض فى نظير الخدمة
العسكرية ١٧٥ — أسباب تأخر الجيش الرومانى فى
القرنين الحادى عشر والثانى عشر ١٧٦ — إقطاعات
الجند ١٧٧ — المرتزقون فى جيوش الدولة ١٧٨ —
عظمة الجيوش البيزنطية ١٧٩ — الفرسان والمشاة —
ملايس الجنود — نظام الجيش المحكم ١٨٠ و ١٨١ .

٢ — الأسطول : اهتمام روما والإمبراطورية البيزنطية
بالشئون البحرية ١٨٢ و ١٨٣ — نظام الأسطول
البيزنطى ١٨٣ و ١٨٤ — أهمية الأسطول ١٨٥ و ١٨٦ —
اضمحلال القوة البحرية البيزنطية ١٨٧ و ١٨٨ —
تقدير قوة الأسطول البيزنطى ١٨٩ — ١٩١ .

صفحة

الفصل التاسع

التعليم ٢١١ — ١٩٢

بدء تأثير التعليم الروماني القديم بالمسيحية ١٩٢ —
 القديس باسيل والقديس جريجوريوس النازياني وليبيانوس
 القسطنطيني ١٩٣ — مناهج الدراسة — النحو والصرف
 ودراسة النصوص ١٩٤ — ابكتيس — شروح
 هومبروس ١٩٥ — الامتحانات — البلاغة ١٩٦ —
 دراسة كتاب النثر القدماء ١٩٧ — حلقات الدراسة ١٩٨
 نظام التدريس ١٩٩ و ٢٠٠ — جامعة أثينا وأساتذتها —
 هيئات الطلاب ٢٠١ — ٢٠٣ — مناهج الدراسة
 الجامعية ٢٠٤ — تعاليم ثيمستوبوس ٢٠٥ و ٢٠٦ —
 انتشار المدارس في الشرق الروماني ٢٠٧ — احتفاظ
 اللغة اليونانية بمكانتها ٢٠٨ — موقف الناس من
 الدراسات القديمة ٢٠٩ — نهضة الفلسفة والعلم في القرن
 التاسع — تعليم القانون ٢١٠ و ٢١١ .

الفصل العاشر

الأدب ٢١٢ — ٢٢٧

مبات الثقافة الهلينستية ٢١٢ — أدب روما الشرقية أدب
 يوناني ٢١٣ — المؤلفون المسيحيون ٢١٤ — حكم
 قسطنطين يبدأ عصرأ أدبياً جديداً ٢١٥ — مؤلفات
 اللاهوتيين — اثناسيوس — باسيل — جريجوريوس
 النازياني — جريجوريوس النيسى — يوحنا كريسوستوم

صفحة

- كيرلس الإسكندري — الحارث القيسرائي ٢١٦ —
 كبار الكتاب في عصر الآباء وطريقتهم في الكتابة ٢١٧ و ٢١٨ —
 خصوصية الأدب البيزنطي من الناحية الإنسانية ٢١٩ —
 بقاء العالميين الفكريين اليوناني والمسيحي ٢٢٠ —
 نهاية فترة الإبداع في اللاهوت البيزنطي ٢٢١ — اهتمامات
 علم اللاهوت في الدولة الشرقية ٢٢٢ — الترجمات اليونانية
 وأثرها في الآداب السريانية والأرمنية — الشعر
 البيزنطي ٢٢٣ — الشعر الديني ٢٢٤ و ٢٢٥ —
 التاريخ ٢٢٥ — ٢٢٧ .

الفصل الحادي عشر

الفن البيزنطي ٢٢٨ — ٢٤٧

- ميلاد الفن المسيحي ٢٢٨ و ٢٢٩ — انسام الفن البيزنطي
 بالطابع الروماني ٢٣٠ — القسطنطينية متحف للفن
 البيزنطي بشئ صوره — الكنيسة البيزنطية تقبل التراث
 الفني اليوناني — طابع الفن في روما الجديدة : الشخصية
 البشرية — العناصر التصويرية — مشاهد الألعاب —
 المناظر الريفية — الحيوانات والأطفال — التلوين —
 النقوش — العناصر الشرقية — مشكلة الفن
 البيزنطي ٢٣١ — ٢٣٣ — الفن البيزنطي في مصر
 وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ٢٣٣ — تأثير
 القسطنطينية الفني — أباصوفيا ٢٣٤ و ٢٣٥ — العصر الذهبي
 الأول للفن البيزنطي ٢٣٥ و ٢٣٦ — التصوير الديني —
 العصر الذهبي الثاني ٢٣٧ و ٢٣٨ — فن الإيقونات
 ٢٣٩ — نهضة الفن البيزنطي بعد سنة ١٢٦١ م — ٢٤٠
 أثر الفن البيزنطي في غرب أوروبا : في روما وإيطاليا وفي

صفحة

النهضة الفنية في زمن شرلمان وفي ألمانيا ٢٤١—٢٤٤ — الفن
البيزنطي المدنى ٢٤٥ — تقدير الفن البيزنطى ٢٤٦ و٢٤٧ .

الفصل الثانى عشر

القانون الرومانى فى عصوره المتأخرة ٢٤٨ — ٢٦٨

القانون الرومانى وأدواره ٢٤٨ — الميزات الرئيسية لكل
دور ٢٤٩ — تشريعات جستنيان ٢٥٠ — ٢٥٦ —
التشريعات البيزنطية بعد القرن السابع — بروخيرون —
الإباناجوج — البازيليكا — تشريعات اللايقونيين ٢٥٧
مدرسة قسطنطين مُنوماخوس القانونية ٢٥٨ — قانون
الفلاح وقانون الجندى وقانون الملاح ٢٥٩ — المؤثرات
الرئيسية فى تطور القانون الرومانى فى عصوره
المتأخرة ٢٥٩ — ٢٦٢ — ميزات تشريعات
اللايقونيين ٢٦٢ — ٢٦٤ — أثر الكنيسة والشعور
المسيحي ٢٦٥ — تعديلات اللايقونيين ٢٦٦ — ٢٦٨ .

الفصل الثالث عشر

التجارة ٢٦٩ — ٢٨٦

تجارة روما مع الشرق ٢٦٩ — طرق هذه التجارة ٢٧٠
الحرير ٢٧١ و٢٧٢ — التجارة مع الجنوب والشمال —
كوزماس انديكو بليوستيس ٢٧٣ — التجارة مع الهند
والصين والحبشة ٢٧٤ — ٢٧٦ — الجاليات الشرقية
فى مدن الغرب ٢٧٧ — التجارة مع إفريقيا ٢٧٨ —

مقدمة

ومع روسيا ٢٧٩ و ٢٨٠ — الأنظمة
التجارية ٢٨٠ — ٢٨٢ — اضمحلال تجارة الدولة في
القرنين الحادى عشر والثانى عشر ٢٨٣ — منافسة
البندقية ٢٨٣ و ٢٨٤ — الفرسان ٢٨٥ و ٢٨٦ .

الفصل الرابع عشر

دين الصقالبة لبيزنطة ٢٨٧—٣٠٧

كيرلس ومثودىوس وبمقتهما إلى الصقالبة ونشر المسيحية
بينهم ٢٨٧ — ٢٨٩ .

١ — دين البلغار لبيزنطة : نشأة دولة البلغار ٢٨٩ —
تنصر البلغار وانضمامهم للكنيسة الأرثوذكسية ٢٩٠ —
تطلعهم إلى إزالة الدولة البيزنطية — سيميون الكبير ٢٩١
العلاقات بين دولة البلغار وبيزنطة ٢٩٢ — الثقافة البيزنطية
في بلاد البلغار ٢٩٣ — اضمحلال الدولة البلغارية ٢٩٤ —
ازدياد النفوذ البيزنطى ٢٩٥ .

٢ — الصرب : استيفان نيمانيا واستيفان أوروخ
واستيفان دوشان ونشأة الدولة الصربية ٢٩٦ و ٢٩٧ —
علاقة دولة الصرب ببيزنطة ٢٩٨ — آثار بيزنطة في دولة
الصرب وحضارتهم ٢٩٩ و ٣٠٠ — عداوة الصرب
ليزنطة ٣٠١ .

٣ — الروس : ميلاد روسيا ٣٠٢ — بيزنطة تنشر
المسيحية في روسيا ٣٠٣ و ٣٠٤ — علاقة روسيا
بالكنيسة الشرقية ٣٠٤ — ٣٠٦ — حاكم روسيا
ورث الأباطرة البيزنطيين ٣٠٧ .

خاتمة ٣٠٨ — ٣١٨

صفحة

ملحق ١

عرض عام لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية ... ٣١٩ — ٣٥٢

الفصل الأول

من تأسيس القسطنطينية إلى نهاية القرن التاسع ٣٢٠ — ٣٣

الإمبراطورية منذ تأسيس القسطنطينية إلى أول

القرن السادس ... ٣٢٠ — ٣٢٩

محول الدولة البيزنطية إلى دولة شرقية ... ٣٢٧ — ٣٣٥

أعمال الأسرة الإيسورية ... ٣٣١ — ٣٣٤

الفصل الثاني

من أوج الدولة إلى سقوطها ... ٣٣٥ — ٣٥٢

الإمبراطورية في أوجها تحت حكم الأسرة المقدونية ٣٣٥ — ٣٤٠

نهضة الإمبراطورية في عصر آل كومنين ... ٣٤١ — ٣٤٦

الإمبراطورية في عصر آل باليولوجوس ... ٣٤٧ — ٣٥٢

٣٩٢ — ٣٥٣

ملحق ٢

بيزنطة والإسلام : فتح العرب لفلسطين والشام ومصر

والغرب ٣٥٤ و ٣٥٥ — نشأة البحرية العربية ٣٥٥ و ٣٥٦

المذهبان النسطوري والمونوفيزي وأثرهما في الإسلام ٣٥٧ —

٣٥٩ العرب يأخذون نظاماً إدارياً عن البيزنطيين —

الثقافة آفنديستية — فتح القسطنطينية هدف السياسة

العربية ٣٦٠ و ٣٦١ — العلاقات السياسية والحربية

(٢٧ م)

صفحة

بين بيزنطة والإسلام ٣٦١ — ٣٦٣ العلاقات الثقافية
 ٣٦٣ و ٣٦٤ — السفارات بين الدول الإسلامية وبيزنطة
 ٣٦٤ — ٣٦٦ أثر الفتوح الإسلامية في التجارة
 البيزنطية ٣٦٧ — ٣٧٢ العلاقات الثقافية بين بيزنطة
 والدول الإسلامية ٣٧٣ — ٣٧٧ القسطنطينية كما رآها
 رحالة العرب ٣٧٨ و ٣٧٩ — علاقات بيزنطة مع
 الأندلس ٣٧٩ — ٣٨١ أثر الحروب الإسلامية البيزنطية
 في الأدب ٣٨١ — ٣٨٣ تأسيس السلاجقة سلطنة الروم
 في آسيا الصغرى وإدخالهم الإسلام فيها ٣٨٤ — الصراع
 بين الإسلام والنصرانية ٣٨٥ — موقف الإمبراطورية
 البيزنطية أثناء الحروب الصليبية ٣٨٦ — بيزنطة تدفع
 ثمن اشتراكها في الحروب الصليبية ٣٨٧ — العلاقات
 بين بيزنطة والإسلام بين سنتي ١٢٦١ و ١٤٥٣ —
 ص ٣٨٨ — الرحالة المسلمون الذين زاروا القسطنطينية في
 هذه الفترة وتحدثوا عنها : أبو بكر الهروي — الإدريس —
 ابن بطوطة — أبو الفداء ٣٨٨ — ٣٩٠ اشتداد
 خطر الأتراك العثمانيين وظهور شعور العداء للإسلام في
 بيزنطة ٣٩١ — خاتمة ٣٩٢ .

ملحق ٣

أباطرة الدولة الرومانية الشرقية من قسطنطين

الأول إلى قسطنطين الحادي عشر ٣٩٣ — ٤٠٤

فهرس تفصيلي ٤٠٥ — ٤١٩

الخرائط

(١) امبراطورية جستنيان في سنة ٥٦٥ م .

(٢) الإمبراطورية البيزنطية على عهد باسيل الثانى ١٠٢٥ .

(٣) الدولة البيزنطية بعد سنة ١٢٠٤ .

اللوحات

(١) جستنيان الكبير .

رسم بالفسيفساء فى كنيسة القديس أبوليناريوس فى راثنا .

(٢) القديس سمعان (سيميون) الممودى جالسا على عموده .

عن أحد مؤلفات باسيل الثانى .

(٣) لوحة تضم عددا من أباطرة الدولة البيزنطية وهم (من اليسار أعلى) .

الكسيوس الرابع أنجيل ، الكسيوس الخامس دوكاس مورتزوفلوس ،

ثيودور الأول الأشكرى ، يوحنا الثالث دوكاس فاتاتريس ، ثيودور

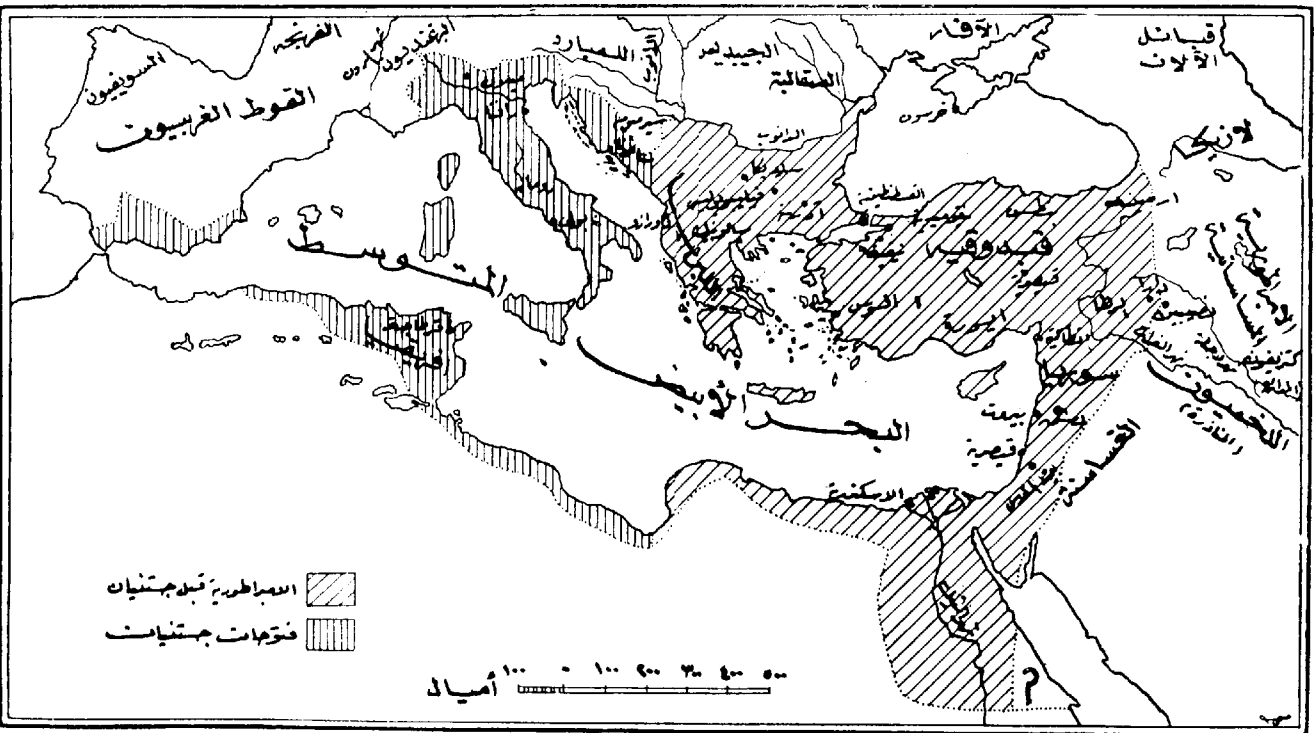
الثانى الأشكرى ، يوحنا الرابع ، ميخائيل الثامن باليولوجوس ،

اندرونيكوس الثانى ، وابنه ميخائيل .

(٤) قائد بيزنطى يتفاوض مع العرب .

تصويبات

ص	سطر	خطأ	صواب
٢٢	٦	سانونيكاً	سانونيك
٣٢	١٥	الوثنية	المسيحية
٥٧	٧	المدينة	المدنية
٦٠	٢	وجدت لها الرجل	وجدت الرجل
٦٥	٢	١٥٠٤	١٠٥٤
٦٨	٨	بوتانياتيس	بوتانياتيس
٧٦	٧	دقليديانوس	خلفاء دقليديانوس
٧٨	٥	ولإذا	ولإذا
٨٥	٩	الامبراطور	الإمبراطور ميخائيل
٨٨	٨	لإدارة	لإرادة
٩٩	١٦	<i>Greek</i>	<i>Byzantine</i>
١٠٢	١٤	المسيح	طبيعة المسيح
١٠٥	١٢	البردى	البردى (برادايوس)
١١٣	١٦	الأرمينيين	الأرمن
١٢٦	١٠	السورى	السمريانى
١٣٣	١١	الحاكم	الحاكم
٢٢٤	١٦	لأحدى	أحد
٢٣٩	٩	الظاهرة	الظاهرة البارزة
٢٤٠	١٢	صربيا	بلاد الصرب
٢٩٦	٤	المقلب	المقلب



امبراطورية جستانيا في سنة ٥٦٥

